جامعة الأزهر



مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة

العدد الخامس عشر

الجزء الثانى

المشرف العام

الأستاذ الدكتور/ محمد أحمد العزب

عميد الكلية

رئيس التحرير

الأستاذ الدكتور/ محمد حسين عبدالحليم حماد

وكيل الكلية

١٤١٦هـ ١٩٩٦م



مجلة
كلية اللغة العربية
بالمنصورة

العدد الخامس عشر

الجزء الثانى

١٤١٦هـ



عضوية الحوار فى العمل القصصى

الدكتور / عبد اللطيف محمد الحديدى

أستاذ الأدب والنقد الأدبى المساعد

فى كلية اللغة العربية بالمنصورة - جامعة الأزهر

عضوية الحوار فى العمل القصصى

الحوار عنصر هام من عناصر الأسلوب التعبيرى فـى القصـة، وهـو كذلك ركن هام مـن أركـان العمـل القصصى، حيـث لا ينفصـل عـن الشخصية الروائية، ولكونه وسيلة من أهم الوسـائل التـى يعتمـد عليهـا الكاتب فى رسـم الشـخصيات، وعـلاوة علـى ذلـك، فكثيراً مـايكون الحوار السلس المتقن مصدراً من أهم مصادر المتعة فى القصة، وبواسطته تتصـل شـخصيات القصـة، بعضهـا بـالبعض الآخـر، اتصـالاً صريحـاً مباشراً[(١)].

ومن المعروف أن أسلوب القصة يقـوم علـى الوصـف أو السـرد أو الحوار، وكل كـاتب يتخير الأسـلوب الـذى يـروق لـه، وتطمئـن إليـه نفسه، ليرسم به شـخصياته، "وغالبـاً مـايتفوق الحـوار علـى الأسـلوب الوصفى لما يضفيه على القصة من حيوية، ولما يمنحه للقارئ من متعة.

غير أن الحوار مع تفوقه هذا يتطلـب مـن الكـاتب استعداداً أكـثر مشقة وجهداً، إذ يجب عليه أن يجعل حواره طبعياً سلسـاً متقنـاً مناسـباً للشخصيات التى تتحدث به، ومناسباً للمواقف التـى يقـال فيهـا، دون إسراف فى الأخذ والرد، حتى لا يتحول الموقف الحـوارى إلى استطراد ممل[(٢)]".

---

(١) فن القصة: د. محمد يوسف نجم ص١١٧.

(٢) فى الأدب العربى المعاصر: د. إبراهيم عوضين: ج١، ص١٥٤.

والحوار هو تلك الجمل السريعة المتلاحقة التى تتبادلها شخصيات القصة فى موقف من المواقف، أو قضية من القضايا التى تواجه شخصيات القصة، أو فى أمور الحياة، أو فى غير ذلك مما تنهض به القصة من قضايا ومواقف وموضوعات.

ويشترط فى الحوار الإبانة عن المواقف، والكشف عن خبايا النفوس، والقصر حتى يؤثر فى السامعين، ولا يصيبهم بالملل حين يطول ويصبح كالخطابة، فعند ذلك يسقط الحوار سقوطاً سريعاً. "فالحوار المعبر الرشيق، سبب من أسباب حيوية السرد وتدفقه، والكاتب الفنى البارع، هو الذى يتمكن من اصطناع هذه الوسيلة الفعالة، وتقديمها فى مواضعها المناسبة[١]".

فالسرعة والقصر والرشاقة من سمات الحوار الجيد فى العمل القصصى، وعلى القاص أن يراعى ذلك فى حواره، فلا يجعل شخصياته تسترسل فى حوارها، فتتحدث كل شخصية عن نفسها حديثاً غنائياً طويلاً، يصف المشاعر الذاتية للشخصية بإسهاب فى أثناء الحوار، عند ذلك يفقد الحوار أبرز سماته، وهى الجمل القصيرة المتلاحقة التى تجذب القارئ وتحدث له المتعة.

وللحوار أهمية كبرى فى العمل القصصى بعامة، وفى الأسلوب القصصى بخاصة، وتبرز تلك الأهمية من خلال الوظائف العديدة التى يقوم بها الحوار، ومنها:

---

(١) فن القصة ص١١٨.

١- التعبير عن آراء المؤلف من خلال الآراء التي يطرحها المتحاورون[1] من شخصيات القصة، إذ من المعروف أن القاص عندما يريد طرح آرائه وأفكاره فى قضية من القضايا، أو مشكلة من المشكلات، فإنه يلجأ إلى إنطاق شخصياته بتلك الآراء والأفكار فى حوارهم، إذ لغة السرد أو الوصف لا تسعفه بذلك. فالقصة جعلت أساساً لعرض آراء القاص فى القضية أو المشكلة التى يعرض لها فى قصته، ولن يستطيع ذلك إلا من خلال الحوار المتبادل بين شخصياته التى -غالباً- ماينطقها هو بما يريد، ومن هنا تكون أهمية الحوار فى التعبير عن آراء المؤلف، ونقلها إلى جمهور المتلقين.

٢- بث الحركة في المشاهد الروائية، وذلك عن طريق التخفيف من رتابة السرد[2].

فكلما أحس القارئ للقصة بملل وسأم من توالى المشاهد والأحداث، قطع سأمه حوار ساخن سريع مثير بين شخصيتين أو مجموعة من الشخصيات، فيعود إليه نشاطه وقوته مرة أخرى لمواصلة القراءة، والمشهد الروائى الجامد يستطيع الكاتب أيضاً أن يبعث فيه الحياة عن طريق الحوار بين الشخصيات.

فقوة الحوار تكمن فى الحركة التى يبعثها فى الأحداث، وفى الحياة التى يبثها فى المشاهد، إنه يزيد الأحداث تقدماً إلى الأمام،

---

(١) فن كتابة القصة: حسين القبانى: ص٩٤.

(٢) عالم القصة (برناردى فوتو): ترجمة د. مصطفى هداره: ص٢٦٦.

ولهذا لا يستغنى كاتب القصة عن الحوار فى كثير من مشاهد قصته، أو على الأقل فى بعضها، لأنه يولد الحركة التى يتمشى بها مع الأحداث، ويعمق معرفتنا بالشخصيات فى حركتها النفسية، ونرى فيه الحركات النفسية دائبة الصعود، دائبة التجاذب والتفاعل[١]".

٣- التمييز بين المتحدثين، "فالقارئ" الذى يظن أن الشخصيات جميعاً تتكلم بعضها مثل بعضها يجانبه الصواب[٢]".

بل إن القصة التى يحدث فيها ذلك قصة ساقطة، فمن غير المعقول أن تتحدث جميع الشخصيات لغة واحدة، على رغم مابينها من اختلافات اجتماعية وفكرية وثقافية، عند ذلك تكون اللغة فى القصة هى لغة الكاتب، وليس لغة الشخصيات.

"فكلما عبر كل شخص فيه بلغته حسب مستواه فيها ووضعه، كان ذلك أكمل، لأنه يساعد على نسياننا للمؤلف، وشعورنا بأن الحياة تجرى طبيعية أمامنا دون أن يعترضها تنسيقه المفتعل، وقد يجد المؤلفون فى اللغة العربية بعض الصعوبة لتطويعها لجميع المستويات الفكرية والشعورية، لأنها بطبيعتها لغة الخواص، ولكن هذا التطويع ممكن حسب المواقف بدون خروج على حسب طبيعة اللغة وأساليبها. وخير مايضرب به المثل على هذا التطويع أسلوب

---

(١) النقد الأدبى الحديث: د. محمد غنيمى هلال: ص٦١٤.

(٢) عالم القصة: ص٢٦٦.

المازنى فى (إبراهيم الكاتب)، و(إبراهيم الثانى)، بل فى سائر ماكتب من الأقاصيص والصور، والأمر الذى يمكن مرة يمكن مرة أخرى، إذا صحت النية، وانتفى الكسل والمحال[١]".

وهذا يعنى أننا لا نقصد العامية مطلقاً حين نريد أن ينطق الكاتب كل شخصية بلغتها التى تناسبها، وإنما نقصد أن تتحدث كل شخصية بلغة تناسبها فكرياً وثقافياً مع الحفاظ على فصاحة اللغة وسلامتها.

والواقع أن دعاة الواقعية فى القصة يريدون أن يكون الحوار بلغة الشخصيات من حيث الفصحى والعامية، "والحق أن التشبث فى القصة بفكرة الواقع إلى حد أن نفسد لغتها بإدخال الكلمات والصيغ العامية تشبث من شأنه أن يفقدها روعتها الأدبية وينبغى أن نحتفظ لها بقيم هذه الروعة، وأن يمرّن القصاص الممتاز فصحاءنا على أداء مايظن أن العامية تسبقها فيه أو فى أدائه.

والواقعية الحقيقية ليست فى الألفاظ وإنما هى فى المضمون أو فى القضايا والأوضاع الاجتماعية التى ينبغى أن يحسن أداءها القصاص والتى لا يستطيع الناس أن يعبروا عنها على نحو مايعبر عنها فى قصته[٢]".

---

(١) النقد الأدبى أصوله ومناهجه: سيد قطب: ص٨٠.

(٢) فى النقد الأدبى: د. شوقى ضيف: ص٢٣٣.

إن التمييز بين شخصيات القصة بالحوار لا يكون باستخدام اللغة العامية فيه، وإنما يكون باستخدام الفصحى السهلة القريبة من الأذهان، ثم يكون التمايز بدلالة تلك اللغة على المستوى الفكرى والثقافى لكل شخصية.

٤- المساعدة على رسم الشخصيات الروائية، ونقل أحاسيسها ومشاعرها وخواطرها النفسية للمتلقى، فعن طريق الحوار يستطيع القارئ التعرف على الأبعاد المختلفة للشخصية، كالبعد النفسى، والبعد الثقافى، والبعد الاجتماعى، والبعد الجسمى، والبعد العاطفى، وهى أبعاد تسهم مجتمعة فى رسم ملامح الشخصية، وتحديد إطارها، وللحوار وظيفة مهمة وأثر فعال فى نقل ملامح تلك الأبعاد إلى القارئ.

"إن عمل الحوار الحقيقى فى القصة هو رفع الحجب عن عواطف الشخصية، وأحاسيسها المختلفة، وشعورها الباطن تجاه الحوادث أو الشخصيات الأخرى، وهو مايسمى عادة بالبوح أو الاعتراف، على أن يكون بطريقة تلقائية، تخلو من التعمد والصنعة والرهق والافتعال[١]". فعمل الحوار الحقيقى هو "المعاونة على رسم الشخصية والكشف عن دخيلة نفسها وتفاعلها مع الشخصيات الأخرى[٢]".

---

(١) فى القصة: ص١١٨.

(٢) القصة من خلال تجاربى الذاتية: عبد الحميد جودة السحار: ص١٨.

وقد لا تساعد الشخصية فى بيان ملامحها فى أثناء الحوار الذى يجرى على لسانها، وإنما غالباً مايكون ذلك عن طريق الحوار المتبادل بين الشخصيات الأخرى حول شخصية من الشخصيات، وتلك طريقة تفضل كثيراً طريقة حديث الشخصية عن ملامحها وسماتها الخاصة خلال حوارها، لما فى الطريقة الثانية من مباشرة تضعف القصة، حين يجعل الكاتب شخصياته تعرف نفسها للقراء بنفسها.

٥- ومن الوظائف الحيوية التى يؤديها الحوار فى العمل القصصى الاختصار فى الحوادث، والأجيال التى يشملها زمن القصة، فقد يضطر كاتب القصة أحياناً إلى إسقاط حادثة أو جيل بأكمله، ويشير إليهما بجملة حوارية على لسان إحدى الشخصيات.

والحوار بأدائه لهذه الوظيفة يسهم بقوة فى تطوير الأحداث بسرعة، ويستخدم فى استحضار الحلقات المفقودة فى أحداث القصة.

ولعل أبرز وظيفة من هذه الوظائف التى يؤديها الحوار فى العمل القصصى هى: عرض آراء الكاتب وأفكاره الخاصة أحياناً، فى قضية من القضايا أو مشكلة من المشكلات التى يعالجها فى قصته، فيلجأ إلى إنطاق بعض الشخصيات بتلك الآراء والأفكار فى أثناء الحوار، وهى الوظيفة الأولى. فالكاتب لا يستطيع أن يستخدم لغة الوصف مثلاً فى عرض آرائه وأفكاره، ولهذا كان الحوار أقوى الوسائل اللغوية فى القصة فى عرض آراء كاتب القصة.

والحق إن للحوار وظائف أخرى كثيرة يؤديها فى العمل القصصى، ومنها -مثلاً- الكشف عن الصراع داخل الرواية، فعن طريق الحوار نستطيع أن نعرف نوعية الصراع الذى يدور بين شخصيات الرواية، والقضايا المختلفة التى يدور حولها هذا الصراع، والوسائل والأدوات المستخدمة فى هذا الصراع كذلك.

هكذا يقوم الحوار بوظائف مهمة ومتعددة داخل العمل القصصى، ولهذا فهو ركن مهم من أركان هذا العمل، ومهما قيل عن قلة اعتماد الكتاب عليه فى العمل القصصى، فسيبقى مهماً وضرورياً للقيام بتلك الوظائف، ولن يستطيع كاتب أن يخلى قصته منه تماماً؛ لأنه لا يمكن تصور قصة بدون حوار بين شخصياتها حول القضايا المطروحة فيها.

ولكى يقوم الحوار بهذه الوظائف على الوجه الأكمل، ولكى يكون حواراً ناجحاً، ولكى يكون مصدراً من أهم مصادر المتعة فى القصة، فإنه لابد أن تتوافر فيه بعض الصفات التى تضمن له تحقيق الغاية منه، ومن هذه الصفات:

١- أن يكون الحوار تلقائياً فى حرارة وتدفق وصدق، خالياً من التعمد والصنعة والرهق والافتعال[1]، فتبث الشخصية فى أثناء حوارها عواطفها وأحاسيسها بطريقة طبيعية، تشعرنا أننا أمام شخصية حقيقية تعيش فى الحياة.

---

(١) فن القصة : ص١١٨.

٢- أن يكون الحوار سلساً ورشيقاً، وموجزاً ليس فيه ثرثرة[١]، والحوار السلس المتقن مصدر من أهم مصادر المتعة فى القصة، والحوار المعبر الرشيق سبب من أسباب حيوية السرد وتدفقه، والكاتب الفنى البارع هو الذى يتمكن من اصطناع هذه الوسيلة الفعالة، وتقديمها فى مواضعها المناسبة[٢].

هذا، إلى أن الحوار الخفيف الرشيق السلس، يقرب القصة من أذهان عامة القراء، ويجعلهم يستمتعون بها عند قراءتها، ويفيدون منها، وتلك غاية الفن عموماً.

٣- أن يكون الحوار مناسباً للشخصية الروائية التى تتحدث، ومناسباً - أيضاً- للمواقف المختلفة، وأن يحتوى على طاقات تمثيلية[٣]، فتندمج الشخصيات والمواقف مع الحوار.

"ومن الخطأ أن يظن الكاتب الواقعى أن الحوار القصصى ماهو إلا نقل حرفى لما يدور على ألسنة الشخصيات فى الحياة الواقعية، ولو كانت دلالته الفنية هزيلة تافهة، بل عليه أن يضع نصب عينيه تحقيق القيم الفنية، فى المقام الأول، وهذه لا يمكن تحقيقها إلا إذا كان الحوار تمثيلياً سريعاً، يؤدى عملاً هاماً فى القصة بحيث يشعر

---

(١) فى الأدب وفنونه: على بو ملحم: ص١٣١.

(٢) فن القصة: ص١١٧، ص١١٨.

(٣) فن القصة: ص١١٩.

القارئ بصدقه وطبعيته، ولا يشذ عن الاتجاه العام للحوادث والشخصيات[١]".

٤- "أن يندمج الحوار فى صلب القصة، لكى لا يبدو للقارئ وكأنه عنصر دخيل عليها متطفل على شخصياتها، وهذا يعنى أنه -كما سبق أن قلنا فى وظائف الحوار- يجب أن يحقق فائدة ملموسة فى تطوير الحوادث، أو تقوية عنصر (الدراما) فيها، وكذلك فى رسم الشخصيات والكشف عن مواقفها من الحوادث. والحوار الذى لا يؤدى وظيفة من هاتين الوظيفتين، يعد فى نظر الفن غريباً على العمل القصصى، غربة تعليقات الكاتب وشروحه وتعقيباته ومواعظه وخطبه.

وهذا العيب يتجلى لنا واضحاً فى قصص الكتاب الذين يقدمون الوعظ والتوجيه، على وحدة العمل الفنى وتماسكه[٢]".

٥- ومن صفات الحوار الجيدن الناجح "أن يتجنب الكاتب الحوار الذى يكون أقرب إلى الهذر والثرثرة منه إلى الحوار الفنى المتقن، ولاسيما أن الكاتب يمتلك فى يديه أقوى سلاح فنى، وهو سلاح الاختيار، ولهذا يستطيع أن يعيد النظر فيما قد يجرى على لسان شخصياته من أحاديث، وأن ينقحها ويختار منها، حتى لا تكون أداة فساد وتخريب فى الموقف القصصى[٣]".

---

(١) فن القصة: ص١٢٠.

(٢) السابق: ص١١٩.

(٣) السابق: ص١٢٠.

فلكى يكون الحوار ناجحاً ينبغى على الكاتب ألا يطلقه كيفما اتفق دون تهذيب أو تنقيح، فإن ذلك يضعفه، ولهذا يجب على الكاتب أن يعود إلى حوار قصته بشىء من التهذيب والتثقيف ليحقق الهدف المنوط به.

٦- ومن صفات الحوار الناجح أن يتميز بقصر الجمل وتلاحقها؛ لأن الطول فى الحوار يؤدى إلى الملل والسأم، كما أن الطول فى الحوار يفقد الحركة حيويتها، والأحداث تطورها، ولهذا من الأفضل لكاتب القصة أن يتجنب الطول فى الحوار، ضماناً لنجاح حواره وبالتالى قصته.

٧- أن يتناسب الحوار مع المستوى الفكرى والثقافى لكل شخصية من الشخصيات فى القصة، فمن غير المعقول أن يتكلم العوام بلغة كبار الأدباء، أو العامل أو الفلاح بلغة أدبية راقية، ولكن لا يلجأ الكاتب فى هذا إلى العامية، فالفصحى العربية لغة مطواعة، يمكن تطويعها لتناسب كل الأذواق والمستويات.

هذه أبرز صفات الحوار الناجح، والتى إن توافرت فيه ضمنت له تحقيق الأهداف والغايات المرجوة منه.

وسبيلنا الآن أن نتناول بالتفصيل أبرز القضايا الفنية التى تتعلق بالحوار فى العمل القصصى، وهى:

١- ملاءمة الحوار للشخصية نفسياً واجتماعياً وثقافياً:

إن ملاءمة الحوار للشخصية نفسياً تعنى أن تتواءم لغة الحوار مع حالتها النفسية من حيث الفرح أو الحزن، والألم أو الأمل، والغضب والحدة والثورة أو الهدوء والطمأنينة، فتعبر ألفاظه تعبيراً دقيقاً عن تلك الحالات، بحيث يلمس القارئ حالة الشخصية النفسية من خلال حوارها.

وملاءمة الحوار للشخصية اجتماعياً، تعنى أن تشمل لغة الحوار ألفاظاً مما تجرى على ألسنة الطبقة الاجتماعية التى تنتمى إليها الشخصية، وأن تكون لغة الحوار معبرة دائماً عن مستوى الشخصية الاجتماعى الذى تعيشه، بحيث يتعرف القارئ على المستوى الاجتماعى للشخصية، والطبقة الاجتماعية التى تنتمى إليها من خلال حوارها، دون أن يحتاج إلى كاتب القصة ليعرفه بذلك.

وملاءمة الحوار للشخصية ثقافياً تعنى أن تتناسب لغة الحوار مع المستوى الفكرى والثقافى للشخصية، مع مراعاة اختلاف هذا المستوى من شخصية إلى أخرى، ولكن -كما قلنا مراراً- بشرط الحفاظ على سلامة اللغة وفصاحتها.

وعندما يتلاءم الحوار مع الشخصية فى هذه الأبعاد الثلاثة، فإن ذلك يعد براعة من الكاتب فى إجادة لغة الحوار.

إن الحوار الذى يدور فى القصة بين شخصياتها المختلفة، إنما هو فى حقيقته إبداع الكاتب نفسه، فالكاتب هو الذى يجرى الحوار على ألسنة الشخصيات المختلفة، ولكنه مضطر أحياناً كثيرة أن يتنازل عن مستواه الفكرى والثقافى عند إبداع لغة الحوار، لكى يستطيع أن يجرى على لسان كل شخصية الحوار المناسب لها، لأنه إن لم يفعل ذلك فسيكون هناك تناقض كبير بين الشخصية وبين الحوار الذى يجرى على لسانها، إذ لابد أن "يتحدث كل شخص بلغته الخاصة، وبلهجته الخاصة، ولكن لابد أن يصحب ذلك اعتبار للمستويات الفكرية، فكل شخصية لها مستواها الفكرى .. ولذلك يلزم أن يراعى الكاتب مستويات شخصياته الفكرية إلى جانب مراعاته للغة هذه الشخصيات ولهجاتها، فلا يجعل شخصية بسيطة تنطق بالحكمة وتتحدث حديث الخبير المجرب، أو تتحدث حديث المثقف أو العالم[١]".

ولهذا ينبغى على الكاتب كى يلاءم بين الحوار وبين شخصيات قصته نفسيا واجتماعياً وثقافياً أن يراعى الفروق الفردية الدقيقة بين تلك الشخصيات؛ لأنه عند ذلك سيستطيع أن يقنعنا بأن الحوار خاص بالشخصية التى تتحدث به، وليس من إبداعه هو ككاتب مبدع مجيد، ولهذا يراعى ألا يتحدث أمى مثلاً بأفكار الفلاسفة، ويراعى المستويات الفكرية والنفسية والثقافية للشخصية التى يجرى الحوار على لسانها، فلا تتحدث الشخصيات إلا بالأسلوب الذى يلائمها[٢]

---

(١) الأدب وفنونه: عز الدين إسماعيل: ص١٤٠.

(٢) دراسات فى القصة العربية الحديثة: د. محمد زغلول سلام: ص٣١.

وحين يهتم الكاتب فى حواره القصصى بالفروق الفردية الدقيقة بين الشخصيات، فسوف يحمل هذا الحوار فى ثناياه دلالات متنوعة فى الشخصية، كالدلالة النفسية، والدلالة الثقافية، والدلالة الاجتماعية، "فاللغة الأصيلة للشخصية فى الحوار القصصى تحمل فى ثناياها أكثر من دلالة: تحمل دلالة المستوى النفسى، ودلالة المستوى العقلى، ودلالة المستوى الاجتماعى لهذه الشخصية[(١)]".

فالحوار الذى يجرى على لسان الشخصية القصصية فى أثناء حوارها مع الشخصيات الأخرى، ينبغى أن يعبر تعبيراً دقيقاً عن الدلالات المختلفة لتلك الشخصية، من حيث ثقافتها ونفسيتها ومركزها الاجتماعى، ويوضحها أمام القارئ، بحيث لا تكون تلك الشخصية غامضة وغير مفهومة، فإن ذلك يضعف رسم الشخصية فى القصة. وعلى الكاتب القصصى أن يراعى ذلك، "فينقل الحوار من لغة الشخوص إلى لغة عربية تناسبهم، فيها سذاجة إذا كانت تلك الشخوص ساذجة، وفيها سخرية إذا كانت ساخرة، وفيها عمق إذا كانت مفكرة، وفيها خفة إن كانت تحب الدعابة والضحك، وبذلك يكتمل جو القصة ويتم الانسجام[(٢)]".

فالقاص البارع هو الذى يستطيع أن يطوع الحوار للشخصية التى يجرى على لسانها هذا الحوار، ويجعله مناسباً لها من كل الأبعاد، لأنه

---

(١) الرجل والقمة: بحوث ودراسات: ص١١٥، مقال اللص والكلاب: نقلاً عن مجلة الفكر المعاصر - مارس ١٩٦٣م - القاهرة.

(٢) القصة من خلال تجاربى الذاتية: ص٢٣.

بذلك يجعل القارئ يتعرف على الشخصية من لغة حوارها، حتى ولو لم يذكر القاص اسم الشخصية وأوصافها، وتلك براعة من القاص حين يجعل الشخصية -كما قلنا- تتحدث عن نفسها، وتعرف نفسها للقارئ بنفسها.

ولهذا فالواجب "أن كل سطر من الحوار يفصل بدقة على قدر الشخص المقصود، ففى الرواية الجيدة يستطيع القارئ أن يعين شخصية المتكلم، حتى من خلال جمل منفصلة، فلكل واحد كلماته المختارة، وأسلوبه فى صياغة الملاحظات[(١)]".

والأمر فى تطويع لغة الحوار لتناسب كل المستويات، حتى المستوى اللغوى المتدنى ليس سهلاً على إطلاقه، فقد يجد القاص، أحياناً بعض الصعوبة فى تطويع لغة حواره الفصحى لتناسب بعض المستويات وبخاصة المستويات المتدنية. وقد يرجع ذلك -كما يقول سيد قطب- إلى أن اللغة العربية لغة الخواص، فطبيعتها أنها لغة راقية، ورفيعة المستوى، فهو يقول: "وقد يجد المؤلفون فى اللغة العربية بعض الصعوبة لتطويعها لجميع المستويات الفكرية والشعورية، لأنها بطبيعتها لغة الخواص، ولكن هذا التطويع ممكن حسب المواقف بدون خروج على حسب طبيعة اللغة وأساليبها[(٢)]".

---

(١) بناء الرواية: د. عبد الفتاح عثمان: ص٤٩.

(٢) النقد الأدبى أصوله ومناهجه: ص٨٢.

وقد يرجع ذلك إلى ضعف الملكة اللغوية والقصصية عند الكاتب، وبخاصة المبتدئ، فلا يستطيع تطويع اللغة العربية لتناسب كل المستويات الموجودة فى قصته، ولهذا نجد بعض الكتاب يميلون إلى استخدام اللغة العامية، إما لضعف ملكاتهم اللغوية فلا يستطيعون إيجاد التناسب بين اللغة وبين مستويات الشخصيات الفكرية، وإما لأن اللغة العربية لغة الخواص، وإما لأنهم يميلون إلى الواقعية فتكون العامية من مذهبهم.

ومهما يكن السبب فإننا نجد بعض الكتاب يميلون إلى اللهجات العامية فى أثناء حوار شخصياتهم القصصية المختلفة، كى يكون الحوار فى مستوى الشخصيات، وسوف نُفصّل القول فى قضية العامية هذه بعد قليل.

هذا، وقد يخفق الكاتب فى تحقيق الملاءمة والتناسب أحياناً بين الحوار والشخصيات المتحاورة فى قصته، من الناحية النفسية والثقافية والاجتماعية، كما فى قصة (الباحث عن الحقيقة) -مثلاً- لمحمد بعد الحليم عبد الله، حيث إن الكاتب لم يراع الفروق الفردية بين الشخصيات، فقد تحدثت جميع الشخصيات بلغة واحدة، ولكن عدم توفيق الكاتب فى تمييز حوار الشخصيات لا يقلل من قيمة لغة القصة، حيث جاء أسلوب الكاتب فى هذه القصة معبراً وجميلاً، استخدم فيه لغة عربية فصحى راقية رفيعة المستوى.

وقد يكون عذر الكاتب فى هذه القصة يكمن فى عدم مراعاته الفروق الفردية بين الشخصيات، أن القصة تاريخية تدور فى صدر الإسلام، ومن المعقول جداً أن تكون اللغة التى تدور على لسان كل

الشخصيات فى هذا الزمن عربية فصحى سليمة، لأنها لغة التخاطب عندهم حتى فى أحاديثهم اليومية، ولهذا كان من الصعب على الكاتب أن يميز بين الشخصيات فى لغة الحوار.

وعلى نحو ما نجده أيضاً فى قصة (قاتل حمزة) لنجيب الكيلانى؛ حيث يستخدم الكاتب مفردات لغوية على ألسنة بعض الشخصيات لا تتناسب مطلقاً مع ثقافة الشخصية، ولا مع الثقافة العامة السائدة فى عصر تلك القصة، وهو عصر صدر الإسلام.

فلا يتصور قارئ أن الحوار التالى يدور بين (وحشى بن حرب) بطل القصة وقاتل (حمزة بن عبد المطلب) ﷺ، وبين الجارية (عبلة).

"أصبحت الأمة البلهاء فيلسوفة.

- لا أعرف شيئاً عن الفلسفة ياوحشى[(١)]".

"فكيف يرد عليها: (أصبحت الأمة فيلسوفة). مع أن لفظ الفلسفة لم يكن معروفاً عند هؤلاء الناس[(٢)]".

فهذه اللفظة لا تتناسب مع العصر الذى وقعت فيه أحداث القصة، مما يدل على أن أسلوب الكاتب وثقافته هما الظاهران فى قصته. والحق إن الكاتب فى القصة التاريخية قد لا يواجه صعوبة شديدة فى

---

(١) قاتل حمزة: نجيب الكيلانى: ص٥٧.

(٢) رحلتى مع الأدب الإسلامى: نجيب الكيلانى: بقلم د. ماهر حتحوت ص١٣٢.

إجراء الحوار الفصيح على ألسنة الشخصيات، طالما أنه يتمتع بثقافة لغوية تؤهله لذلك، ولأن الفروق الدقيقة بين الشخصيات من حيث اللغة والمستوى الثقافى تكاد تكون نادرة أو قليلة، ولأنه يعتمد هنا على المصادر التاريخية المختلفة، التى تقدم له الشخصية معدة جاهزة بالكثير من أبعادها النفسية والاجتماعية والثقافية، بشرط أن يبتعد الكاتب عن استخدام المصطلحات والأفكار الثقافية التى لم تكن مستعملة فى عصر الشخصية. وقد يقال: إن الكاتب فى القصة التاريخية قد يواجه بصعوبة تتمثل فى كيفية إجراء حوار على ألسنة شخصيات لم يعش معها، ولم يسمع منها، وإن كان بإمكانه التغلب على تلك الصعوبة بمعرفة مستوى ثقافة الشخصية التاريخية التى يتناولها، ويدرس حالتها النفسية والاجتماعية عن طريق النظر والاطلاع فى المصادر التاريخية المختلفة، ومن ثم يمكنه أن يجعل حواره متناسباً معها، مستفيداً من سعة اللغة العربية، وغناها بالمفردات المتنوعة.

ولكن لا صعوبة هنا -كما قلنا من قبل- لأن الشخصية هنا تخدمها المصادر التاريخية المختلفة؛ ولأن اللغة هنالك هى اللغة الفصحى السليمة.

أما فى القصة غير التاريخية، أو القصة المستمدة من عصر الكاتب وواقعه، فإن الكاتب فيها قد يواجه بصعوبة شديدة فى تحقيق التناسب بين حواره وبين شخصيات قصته من الناحية اللغوية والثقافية، وذلك حين يبتعد عن اللغة العامية، ويستخدم اللغة الفصحى السليمة؛ لأنها لم تعد لغة جمهور الناس فى هذا الزمان، وربما لا يستخدمها المتخصصون

فيها أحياناً، ولأن جمهور القراء لا يتوقع أن تجرى تلك اللغة على لسان الشخصية وشريحتها فى الواقع، ولهذا على الكاتب أن يستخدم لغة سليمة فصيحة، وفى ذات الوقت تتناسب مع طبيعة اللغة السائدة على ألسنة الطبقة الاجتماعية للشخصية التى تمثل تلك الطبقة فى القصة، كما أن اللغة العربية الفصحى لم تعد مستعملة الآن كما كان فى الزمن الماضى كما قلنا، ومن هنا تأتى الصعوبة، ومع ذلك نجد كثيراً من الكتاب يجيدون استخدام الفصحى فى حوارهم، وإحداث التناسب بين الحوار وبين الشخصيات حتى العامة منهم -كما نجد-مثلاً- فى قصة (السهول البيض) لعبد الحميد جودة السحار، فقد استخدم الكاتب فيها لغة عربية فصحى راقية المستوى، فجاءت هذه اللغة نموذجاً يستطيع أن يحتذيه الكتاب إن أرادوا.

أما بالنسبة لتلاؤم الحوار مع الشخصية الناطقة نفسياً واجتماعياً فيبدو أن هذا الأمر سهل على الكاتب فى هذا النوع من القصص، حتى يمكن أن يلائم الحوار الشخصية أيضاً من الناحية الثقافية، وذلك حين يميل الكاتب إلى استخدام العامية، وماأكثر الكتاب الذين يستخدمون العامية فى قصصهم.

ففى هذا الجانب يمكن للكاتب بسهولة أن يجعل حواره ملائماً للشخصية التى يجرى الحوار على لسانها؛ لأن مثل هذه الشخصيات يشاهدها الكاتب فى الواقع الذى يعيشه، فيستطيع أن ينقل مايشاهده ويسمعه ويجرى الحوار المناسب على ألسنة شخصياته.

ومن ذلك مانجده -مثلاً- فى قصة (طريق العودة) ليوسف السباعى حيث جاء الحوار الصادر عن شخصية (عم محمد) بواب العمارة ومؤذنها، ملائماً لأبعادها الثقافية والنفسية والاجتماعية، فهو يعمل بواباً، ويمثل طبقة اجتماعية محدودة الثقافة، ولها طابعها الاجتماعى الخاص. ومن نماذج الحوار الذى جرى على لسان هذه الشخصية قوله لبطل القصة: "مفهوم ياسعادة البيه، لن أؤذن وذنبى فى رقبتك[(١)]". وقوله أيضاً: "لو كانت حجرتى قد المقام لأخليتها لك[(٢)]".

فهذا الحوار ملائم لشخصية (عم محمد) ثقافياً واجتماعياً ونفسياً، ولهذا نلحظ سيادة اللهجة العامية، ولا غرابة فى ذلك فيوسف السباعى من الكتاب الذين يفضلون أن تعبر كل شخصية بلهجتها الخاصة عما بداخلها، فهو يقول فى ذلك: ".. ولكن عندما نعبر بالحوار ونجد أن حديث بعض الشخصيات يكون أبلغ تعبيراً، وأدق معنى إذا مانطقت باللهجة الخاصة بها، فاعتقد أنه ليس هناك ما يحول بيننا وبين استعمال هذه اللهجة[(٣)]".

ولهذا كثيراً ما يستخدم يوسف السباعى اللهجة العامية فى قصصه، بالرغم من أن هذه اللهجة تضعف القصة فنياً، ونحن لا نميل إليها، ولا نحبذها فى القصة، بل فى الأدب بعامة.

---

(١) طريق العودة: ص١٤٧.

(٢) طريق العودة: ص١٤٩، وانظر: ص١٤٧ - ص١٤٩.

(٣) نماذج من الرواية المصرية: يوسف الشارونى: ص١٩٦.

ومن ذلك أيضاً مانجده -مثلاً- فى قصة (اللص والكلاب) لنجيب محفوظ، حيث نجد الحوار الجارى على لسان الشيخ (الجنيدى) الصوفى -أحد شخصيات القصة- ملائماً لنفسيته وثقافته ووضعه الاجتماعى. والشيخ (الجنيدى) رجل صوفى، والصوفية لهم ألفاظ ومصطلحات خاصة بهم تجرى على ألسنتهم، ونجيب محفوظ خالط هؤلاء الصوفية وعايشهم فى حى الحسين، وحى السيدة زينب، فجرت بعض مصطلحاتهم على لسانه، وعرف كثيراً من عاداتهم وتقاليدهم، فكان طبعياً أن يأتى الحوار الذى يجرى على لسان الشيخ (الجنيدى) مناسباً له باعتباره رجلاً صوفياً.

ومن نماذج هذا الحوار، الحوار التالى الذى دار بين الشيخ (الجنيدى) واللص (سعيد مهران) بطل القصة:

- وباب السماء كيف وجدته؟

- لكنى لا أجد مكاناً فى الأرض، وابنتى أنكرتنى.

- ما أشبهها بك!

- كيف يامولاى؟

- أنت طالب بيت لا جواب.

- فقال الشيخ كالمترنم:

قالت المرأة السماوية: أما تستحى أن تطلب رضا من لست عنه براض[(١)]" ويعلق الكاتب الكبير يحيى حقى على هذا الحوار الصادر عن شخصية الشيخ (الجنيدى)، فيقول: "أما فى (اللص والكلاب) فلا نجد إلا خلاصة الخلاصة، الأقوال المقتضبة التى ينطق بها الشيخ الجنيدى، وكأنها نبوءات (أوراكل) فى معبد إغريقى هى خلاصة لأطنان من كتب التصوف[(٢)]".

لقد استطاع نجيب محفوظ بمقدرته الفنية وموهبته القصصية ومخالطته لفئة الصوفية فى (الحسين والسيدة زينب) أن يلائم ببراعة بين (الجنيدى) الصوفى والحوار الصادر عنه باستخدامه كثيراً من المصطلحات الصوفية، وميله إلى الفصحى أحياناً كما هى عادة الصوفيين أحياناً.

يتبين من ذلك أن الكاتب فى القصص المستمدة من واقعه وعصره، يجد صعوبة أحياناً فى إجراء الحوار على لسان الشخصيات المتدنية، فيضطر لاستخدام اللهجات العامية أحياناً فى الحوار، ليحقق الملاءمة بين الحوار والشخصية، وفى تقديرى أن هذا عجز من الكاتب.

أما الشخصيات المثقفة فقد لا يجد الكاتب صعوبة فى تحقيق الملاءمة بينها وبين الحوار.

---

(١) اللص والكلاب: ص٢١، وانظر نماذج أخرى: ص١٣١، ص١٣٢، ص١٣٣.

(٢) الرجل والقمة: ص١١٥، الاستاتيكية والديناميكية فى أدب نجيب محفوظ: بقلم يحيى حقى.

والكاتب يستطيع أن يستخدم لغة عربية مبسطة قدر الإمكان، عند ذلك سوف يحقق قدراً كبيراً من الملاءمة بين الحوار والشخصية، أما أن يكتب الكاتب جل حواره القصصي بلغة عامية، ويحتج لذلك بأنه ينشد الملاءمة بين الشخصية والحوار، وسبيله إلى ذلك اللغة العامية، فأرى أن هذا يفقد الأدب قدراً من قيمته، فالأدب له لغة خاصة تختلف عن لغة الحياة اليومية التى تجرى على ألسنة الناس فى حيواتهم المعاشة.

هذا، وقد يخفق الكاتب أحياناً فى الملاءمة بين الشخصية والحوار، فينطق الشخصية بألفاظ -فى أثناء حوارها- لا تتناسب مع مكانتها الاجتماعية، ولا مع ثقافتها.

ومن ذلك -مثلاً- ماتجده فى قصة (الفلاح) لعبد الرحمن الشرقاوى حيث أجرى على لسان الشيخ (طلبة) -إمام القرية ومعلم القرآن الكريم-فى أثناء حواره- بعض الألفاظ التى لا تتناسب مع مكانته وثقافته وحفظه القرآن الكريم وتعليمه لأهل القرية، وتصدره للفتوى بين أهل القرية.

كقوله: "ولكنك تقول كلام من عندك، الله يلعنك[١]".

وقوله (لرزق بك) عندما أعطاه (سيجارة) أمريكية: "هو كل يوم تدينى سيجارة من الحاجات (الهاى لايف دى)، ربنا يديم عليك عزه، لكن مش مولعها، خليها هئ هئ، خليها كده، بركة، حاجة من ريحة البهوات[٢]".

---

(١) الفلاح: ص٤٤.

(٢) السابق: ص٤٤.

أيعقل أن يجرى مثل هذا الحوار على لسان رجل يؤم القرية، ويفتى أهلها، ويحفظ القرآن الكريم، ويعلم أهل قريته القرآن الكريم.

٢- فنية الحوار:

يقصد بفنية الحوار: أن يكون الحوار دقيقاً جيداً معبراً عن المواقف والأحداث القصصية تعبيراً دقيقاً محققاً للأهداف المنوطة به فى العمل القصصى.

ولكى يحقق الحوار الأهداف المنوطة به، يجب أن تتوافر فيه عدة خصائص فنية، حتى يكون أداة فاعلة ومؤثرة فى العمل القصصى، وحتى يكون عامل جذب لجمهور القراء، ومن هذه الخصائص:

(أ) الإيجاز والتركيز:

ينبغى أن يكون الحوار القصصى قصيراً ومركزاً، بحيث يعبر عن المراد بجمل موجزة لا إطناب فيها، ففنية الحوار تدعو إلى الإيجاز، وقصر الجمل، والبعد عن الثرثرة والزيادة عن المطلوب فى الحوار. يقول (ديان دوات فاير): "القاعدة هى أن تجعل أحاديثك قصيرة، فالناس قلما يتحدثون دون مقاطعة، إلا إذا كان جمهورهم من الأسرى(١)".

---

(١) فن كتابة الرواية: ص٥٠.

وطول الحوار -كما سبق أن بينا- يؤدى إلى بطء الحركة، وجمود المواقف والأحداث، ويحول لغة الحوار إلى لغة خطابية، فتصبح الشخصية وكأنها تخطب فى الناس أو تقرأ من كتاب(١).

فالحوار ينبغى "ألا يكون مطولاً فيبلغ الصفحات، بل ينبغى أن يكون مكثفاً ومركزاً وموحياً. ويتطلب ثانياً ألا يكون معرضاً لبلاغة الأسلوب، وجمال الألفاظ ورنين موسيقاها. فإن ذلك يعوق القارئ عن تتبع الحركة، ويشترط -قبل هذا وذاك- أن تكون لغته عربية سليمة مُبَسَّطة مفهومه(٢)".

فعلى الكاتب القصصى أن يراعى فى حواره الإيجاز والتركيز والبعد عن الخطابية، إلا إذا كان الموقف أو المشهد القصصى يحتاج إلى الإطناب، فليس هناك مايمنع الكاتب من الإسهاب فى حواره، لأن هناك ضرورة ملحة تدعو إلى الإسهاب، وعند ذلك يكون الإسهاب مهماً للحوار وللحدث والموقف والقارئ معاً.

وقد يقع الكاتب أحياناً فى هذا العيب فى قصته، فيطول حواره دون داع، ويتحول إلى خطابية ممجوجة، على نحو مانجد -مثلاً- فى قصة (المنعرج) للكاتب التونسى (مصطفى الفارسى)، فالشاب (عبد السلام النفطى) الذى يمثل فى القصة الإسلام، والصوت الذى يعبر عن الإسلام، وإبراز رأى الإسلام ووجهة نظره فى القضايا المختلفة، نلحظ

---

(١) فن كتابة الرواية: ص٥٠.

(٢) بانوراما الرواية العربية الحديثة: د. سيد حامد النساج: ص٣٥.

على هذه الشخصية فى حوارها مع الآخرين، طول الحوار، وخطابيته الواضحة، فيؤخذ على الكاتب الإطالة فى الحوار الخاص بشخصية (عبد السلام)، فتحولت حواراتها فى القصة إلى خطب وعظية يلقيها (عبد السلام) على زميله (عبد العزيز[١]). وهكذا تكون للحوار القصصى قيمته الغنية إذا كان تمثيلياً سريعاً، يتميز بالقصر والإيقاع السريع والبعد عن الخطابية.

أما إذا جاء الحوار على ضد هذه الصفات: البطء فى الإيقاع، الطول، الخطابية، فإن لغته حينئذ تفقد القوة الحركية، لأنها تصبح بمثابة وقف للحدث، تنفصل به الشخصية عن زميلاتها فى الموقف، وتفقد الجمل تأثيرها العملى، أى وظيفتها الدرامية، وبالتالى يضعف العمل القصصى بعامة، والأسلوب القصصى بخاصة، ويفقد الحوار أول خاصية من الخصائص التى تجعله فنياً.

(ب) البساطة والتعقيد:

البساطة تعنى أن يكون الأسلوب سهلاً، يجرى على الفطرة والطبع، دون تكلف أو قصد إلى الصنعة والزخرف.

وتعنى البساطة أن ترتفع لغة الحوار عن ألفاظ السوقة، وتخلو من الغريب الحوشى، ومن الكلمات التى يجد اللسان صعوبة وثقلاً عند النطق بها، كالكلمات الطويلة والكلمات التى تتقارب مخارج حروفها. وتعنى البساطة كذلك أن يجرى نسق اللغة فى الحوار على النسق

---

(١) انظر: المنعرج: ص٤١ – ص٤٨.

اللغوى والنحوى، فلا يخرج عن المألوف فيوقع السامع فى قلق أو حيرة. وتعنى البساطة كذلك أن تكون لغة الحوار ظاهرة الدلالة على المعنى المراد، وتلك سمة البلاغة، ويتحقق ذلك إذا كانت المفردات اللغوية دقيقة الدلالة، وتوخى الأديب فيها القواعد النحوية، و لم يطل الفصل بين أركان الجملة، أو تكثر قيود الفعل قبل أن يأتى فاعله، فمثل ذلك يؤدى إلى الخفاء والتعقيد.

وتعنى البساطة كذلك أن تتلاءم لغة الحوار مع الموقف أو الحادثة أو الحالة التى تمر بها الشخصية، وذلك بمراعاة المقام فى اختيار الكلمات، فهناك بعض الكلمات تحسن فى مقام المدح والثناء، وضدها -مثلاً- يحسن فى مقام الخصام والجدل والصراع، وهكذا لكل مقام مايناسبه من الكلمات.

والتعقيد يكون بضد هذا كله، بكثرة الغريب، باستخدام اللغة العالية التى لا يفهمها إلا الخاصة، بكثرة التقديم والتأخير فى الجمل الحوارية، والفصل الطويل بين أركانها، ومخالفة القياس النحوى واللغوى، بعدم الملاءمة بين الكلمات والمقامات والمواقف، بشيوع الكلمات الطويلة أو التى تثقل على اللسان.

ومما لاشك فيه أن البساطة ترفع من القيمة الفنية للغة الحوار وتجعله قوياً مؤثراً، والتعقيد يؤثر فى دقة الحوار وجودته، ويؤدى إلى انصراف القارئ عن القصة.

ولهذا فمن شروط الحوار القصصى أن يكون مبسطاً وسهلاً، حتى يستطيع القارئ أن يتعايش معه، ويشعر بالمتعة فى أثناء قراءته لهذا الحوار.

وعلى هذا فالبساطة فى الحوار القصصى لا تعنى "اللغة السطحية والمسفة والسوقية، بقدر ماتعنى الإتيان باللغة على السليقة والطبع، وبشكل يساير طبيعة الشخصية التى تتحدث بها دونما تكلف[١]".

فالبساطة فى الحوار القصصى لا يقصد بها استخدام اللهجات المحلية، أو استخدام اللغة الدارجة التى يستخدمها الناس فى حياتهم العامة، لأن ذلك يفقد القصة قدراً من قيمتها الفنية، وإنما البساطة تقوم على استخدام لغة سهلة واضحة قريبة من أذهان العامة، بعيدة عن التعقيد والإغراب والتكلف، وفى الوقت نفسه بعيدة عن الإسفاف والركاكة.

فينبغى أن تكون "العبارة القصصية سهلة تنأى عن التعقيد والإغراب، رشيقة لا تثقل ولا تمل .. ولكن لا ينبغى أن تنحدر إلى الركاكة والإسفاف[٢]".

وإذا كنا نطالب القاص بأن تنأى لغة حواره عن الغموض والتعقيد والإغراب، فنحن لا نستطيع أن نحول بينه وبين استخدام الرمز والإيحاء

---

(١) الشخصية وأثرها فى البناء الفنى لروايات نجيب محفوظ: د. نصر محمد إبراهيم: ص٢٨٩.

(٢) فى الأدب وفنونه: على بوملحم: ص١٣١.

أحياناً فى لغة الحوار، لأنهما من الأمور المطلوبة فى الحوار إذا دعت الحاجة والضرورة إليهما، أو وجد الكاتب أن المقام يستدعى ذلك.

هذا، والمتأمل فى القصة التاريخية الحديثة يجد أن لغة الحوار فى معظمها جاءت عربية فصيحة تتسم بالبساطة والسهولة، وتبتعد عن الغموض والتعقيد والإغراب، كما أنها تبتعد عن الركاكة والإسفاف وهذا يتناسب مع طبيعة القصص التاريخية التى -غالباً- ماتتناول فترات ازدهار اللغة الفصحى فى عصورها الأُوَل، فلابد أن يكون الحوار فصيحاً، كما حرص الكتاب على البساطة والسهولة فى حوار هذا القصص مراعاة لجمهور القراء الذى يناسبه مثل هذا الحوار المبسط السهل.

ومن ذلك -مثلاً- مانجده فى قصة (الباحث عن الحقيقة) لمحمد عبد الحليم عبد الله، فالحوار فى هذه القصة جاء فى لغة عربية فصحى وواضحة، والعبارات قصيرة ومركزة، فيها بعض الإيحاء، ولذا كان الحوار فيها أنموذجاً رائعاً لما ينبغى أن يكون عليه الحوار القصصى عامة، وحوار القصص التاريخية خاصة.

ومن نماذجه هذا الحوار الذى دار بين (سلمان الفارسى) ﵁، بطل القصة، واليهودى الذى التقى به فى المدينة، حيث قال اليهودى لسلمان:

- "ليس تحت ظل النخل سواى يافارسى. شُكْراً لك، مارأيتُ عبداً يحب مولاه مثل حبك لمولاك.

هتف الفارسى من أعلى، وبصوت صعد نصف منه إلى السماء، وهبط نصف منه إلى الأرض:

- ما قلت كلمة صدق يا أباكعب سوى هذه[(١)]".

هنا لغة فصحى راقية، تتضمن بعض الإيحاء المتمثل فى الذى قصده اليهودى من قوله: وهو نفسه، ومـاقصده سلمان من قوله، وهو الله ﷻ.

وفى لغة الحوار فى هذه القصة يقول مصطفى السحرتى: "قص الصديق عبد الحليم قصة هذا البطل فى أروع ثوب، وفى أبهى أسلوب، أشهد أنه سما فيه كل السمو، فجمع إلى بلاغة اللغة سيولتها، وكشف عن قدرته الفائقة فى ملكية التعبير[(٢)]".

أما فى القصة غير التاريخية، فالمتأمل فى هذا اللون من القصص فى القصة العربية الحديثة، يجد أن الحوار فيها جاء متفاوتاً غالباً، ففى بعضها اتسم بالبساطة والسهولة والوضوح، وفيها بعضها الآخر اتسم بالغموض والتعقيد، ويبدو أن طبيعة الموضوع فى القصة، وطبيعة الفئة الاجتماعية التى يدور حولها موضوع القصة، لهما تأثير قوى فى لغة الحوار من حيث البساطة أو التعقيد، كما أن لثقافة الكاتب وموهبته القصصية وطبعه أثراً فى ذلك أيضاً.

---

(١) الباحث عن الحقيقة:ص١١٦.

(٢) دراسات نقدية فى الأدب المعاصر: مصطفى السحرتى: ص١٥١.

فمن القصص التى جاء الحوار فيها مبسطاً وسهلاً وواضحاً، مع ابتعاده عن الركاكة والإسفاف، قصة (ثرثرة فوق النيل) لنجيب محفوظ، فحوارها مبسط سهل، وجمله قصيرة معبرة تعبيراً واضحاً مباشراً عن المراد، كما فى هذا الحوار الذى دار بين (عم عبده) بواب العوامة، ومؤذن وإمام المصلى المجاور لها، وبين أحد رواد العوامة:

- "ما أهم شيء فى الدنيا؟

- الصحة والعافية.

- متى عشقت امرأة آخر مرة؟

- أووه.

- وبعد العشق ألم تجد شيئاً يسرك؟

- قرة عينى فى الصلاة[(١)]".

فى هذا الحوار تجد جملاً قصيرة سريعة قائمة على لغة فصحى مبسطة، وهكذا فى كل القصة، مع استخدام الكاتب بعض الكلمات العامية، وإن كانت قليلة.

ومن القصص التى جاء الحوار فيها مُبَسَّطاً سهلاً، ولا ينحدر إلى اللغة العامية الدارجة، ولا يرتفع إلى درجة التعقيد والغموض، قصة (المنعرج) للكاتب التونسى مصطفى الفارسى، فلغة الحوار فيها تمتع

---

(١) ثرثرة فوق النيل: ص١٥، ص١٦.

القارئ، ويستطيع أن يفهمها بسهولة، لأنها كتبت بلغة فصحى مبسطة[١].

وليس فى استطاعة كل كاتب أن يجعل حواره سهلاً مبسطاً مع الحفاظ على فصاحة اللغة وسلامتها؛ لأن ذلك يتطلب موهبة وملكة وخبرة لا تتوافر فى كل الكتاب، "فالبساطة فى الأداء لا تتأتى إلى لخبير، إذ ليس كل كاتب قادر على أن يشكل معاناته، وتجاربه وثقافته، وخبراته، فى أسلوب سهل، ينفذ إلى قلب القارئ العادى أو المثقف على حد سواء[٢]".

ولهذا نجد من الكتاب من لا يستطيع أن يحقق البساطة والسهولة فى حواره إلا باستخدام اللغة العامية الدارجة، ولهذا يأتى حوارهم -فى أغلبه- ركيكاً، يغلب عليه الإسفاف والابتذال.

وسبق القول كثيراً بأن الأدب -ومنه الحوار فى العمل القصصى- يجب أن يرتفع عن اللغة السوقية الدارجة، التى لا تقال إلا فى الشوارع بين الناس، لأن هذه الغة لا تتناسب مع الأدب الراقى، حتى ولو كان أصحابه من الواقعيين، فالواقعية لا تعنى أن يكون الحوار القصصى باللغة العامية الدارجة.

ومثل هذا الحوار العامى الدارج نجده -مثلاً- فى قصة (الفلاح) لعبد الرحمن الشرقاوى، حيث أسرف الكاتب فى استخدام اللغة العامية الدارجة بين الفلاحين فى الأرياف.

---

(١) انظر نموذج لهذا الحوار فى القصة: ص٤٢.

(٢) بانوراما الرواية العربية الحديثة: د. سيد النساج: ص٣٥.

ومن نماذجها قول الشيخ (طلبة) (لرزق بك): "إهيـه، مهما يكن برضة المقامات محفوظة، مابقيتش البيه بتاع زمان إزاى؟ دا أنتم أسيادنا من قديم الأزل، طب قسماً با لله (المرحوم والدك عطا ا لله بيه لما كان يقعد فى الشكمة التى إحنا قاعدين فيها قعدتك دى ..[١]".

والمتتبع للقصة يجد لغة الحوار فيها تسير على هذا النمط، وكأن الكاتب أراد أن تتحدث كل شخصية بلهجتها الخاصة بها، فجاءت لغته ركيكة فيها كثير من الإسفاف والابتذال.

ومثل (الفلاح) فى إسفاف حوارها وركاكته قصة (طريق العودة) ليوسف السباعى، فقد استخدم فيها أيضاً لغة عامية دارجة[٢]. وقد يأتى الحوار أحياناً -كما قلنا- متسماً بشىء من التعقيد والغموض، كما نجد -مثلاً- فى قصة (اللص والكلاب) لنجيب محفوظ، فالحوار فى هذه القصة -غالباً- جاء سهلاً وواضحاً ومُبَسَّطاً، عدا الحوار الذى جرى على لسان الشيخ (الجنيدى) الصوفى، فقد جاء معقداً وغير واضح، ولعل السر فى ذلك أن (الجنيدى) صوفى، ولغة الصوفيين دائماً تقوم علىالرمز والإيماء، "فالرمز خاصية من خصائص الفن الروائى فى (اللص والكلاب)، نجده فى الأسلوب، ولاسيما على لسان الشيخ (الجنيدى) الذى يستخدم لغته الصوفية المشحونة بالرمز دائماً[٣]".

---

(١) الفلاح ص٣٩، ص٤٠.

(٢) انظر نماذج من الحوار فى القصة: ص١٤٧، ص١٤٩.

(٣) الروائيون الثلاثة: يوسف الشارونى: ص٩١.

ومن نماذج هذا الحوار ماجاء على لسان الشيخ (الجنيدى) فى حواره مع اللص (سعيد مهران) بطل القصة:

"- مولاى، قصدتك فى ساعة أنكرتنى فيها ابنتى.

- يضع سره فى أصغر خلقه.

- قلت لنفسى إذا كان الله قد مد له العمر فسأجد الباب مفتوحاً.

فقال الشيخ بهدوء:

- وباب السماء كيف وجدته؟

- لكنى لا أجد مكاناً فى الأرض، وابنتى أنكرتنى.

- ما أشبهها بك!

- كيف يامولاى؟

- أنت طالب بيت لا جواب[1].

وواضح من هذا الحوار أن (سعيد) يسأل، والشيخ يجيب إجابات غامضة لم يستطع (سعيد) أن يفهمها.

وبرغم التعاطف الواضح الذى أبداه الشيخ (الجنيدى) تجاه اللص (سعيد مهران) فى هذا الحوار، فإن "هذا التعاطف من جانب الشيخ ظل مقترناً بغموض رموزه، واستعلاء لغته[2]".

---

(١) اللص والكلاب: ص٢١.

(٢) الإسلامية والروحية فى أدب نجيب محفوظ: د. محمد حسن عبدالله: ص٢٤٧.

هكذا كان الحوار الذى جرى على لسان (الجنيدى) والـذى اتسـم بالإيجاز والغموض، استجابة لطبيعة شخصية (الجنيدى) الصوفية.

(ج) الفصحى والعامية:

اختلف النقاد حول لغة الحوار، كما اختلف كتـاب القصـة حولهـا كذلك، هل تكتب بالعامية أو بالفصحى،؟، "وهى مسألة محليـة، كـان السبب المباشر فى إثارتهـا الفـرق الشاسـع بـين الفصحـى والعاميـة فـى لغتنا، مما تكاد ننفـرد بـه فـى الآداب العالميـة، مـع الضعـف المطبـق فـى الفصحى لدى الجمهور، ومـن ثـم وضعـت المسـألة وضعـاً خاطئـاً فـى نظرنا، على أسـاس الواقـع ومسـايرته، لا علـى أسـاس مطـالب الأدب، ومابنبغى أن يكون من أجـل النهضـة بالأجنـاس الأدبيـة[1]". ويشـتد الخلاف بين النقاد والكتاب حول استخدام الفصحى أو العامية فـى لغـة الحوار القصصى، ويتولد عـن هـذا الخـلال اتجاهـات ثلاثـة: لكـل منهـا أنصاره من النقاد والكتـاب، يريـدون أن يبسـطوا سيطرتهم وهيمنتهـم على لغة الحوار، ويمعنون فى مهاجمة أصحاب التيـارات المناوئـة، وهـذه الاتجاهات الثلاثة هى:

١- الاتجاه الفصيح:

أصحـاب هـذا الاتجـاه يـرون أن يسـتخدم القـاص اللغـة العربيـة الفصحى فى حوار شخصياته القصصية، مع مراعاة الفروق الفردية بـين الشخصيات نفسياً واجتماعياً وثقافياً.

---

(١) النقد الأدبى الحديث: د. محمد غنيمى هلال: ص٦٢٣.

يقول الدكتور محمد غنيمى هلال: "الذى نعارضه كل المعارضة هو أن نحكم على الفصحى -من حيث هى- بأنها تعجز عن أن تسهم فى هذا المجال، تعللاً بأن العامية ثرية بقرائن ألفاظها الحية فى الاستعمال، أو مراعاة لواقع الحال فى حديث الشخصيات التى تتكلم العامية، وينطقها الكاتب اللغة الفصيحة، مما يسمونه: واقعية الأداء ..

على أن فى التسليم بعجز اللغة العربية عن الإسهام فى إنتاج الأدب القصصى أو المسرحى تخلفاً ينال من الرقى فنياً بهذين الجنسين الأدبيين فضلاً عن التحكم المجافى للمنطق فى القول بأن اللغة العربية تعجز عما تم فى اللغات الأدبية العالمية. ذلك أن القصص والمسرحيات العالمية -لو كانت قد ظلت تكتب بلهجات محلية فى الآداب العالمية- لما ارتقت، ولما تعاونت الآداب العالمية والنقد العالمى على النهوض بها، وعلى تبادل التأثير والتأثر العالميين فى مجالاتها، مما كان سبب نموها ونضجها، ومساعدتها على تأدية رسالاتها الإنسانية والاجتماعية على أنه لا نزاع فى أن اللغة الفصحى أقدر وأثرى فى تنويع الدلالات وتعميقها من اللغة العامية المحدودة فى مفرداتها، والمتصلة بالوقائع والمحسات، فى حين تعجز عن المعانى العالمية والأفكار والخواطر والمشاعر الدقيقة، وفى سبيل ذلك لا يصح أن نراعى التيسير على عامة الجمهور، بل يجب أن نرقى بإمكانياته، وبخاصة فى أدبنا، أدب المسرحيات والقصص، فنحن فى أشد الحاجة إلى تزويد الفصحى فى

هذه المجالات، كى يصبح أدبها موضوع دراسة، ولئلا نحرم الجمهور تغذية فكره وإمكانياته الفنية فيما تقصر فيه العامية[١]".

وهذه دعوة صريحة لاستخدام الفصحى فى لغة الحوار القصصى، وذلك لأهميتها القصوى فى الارتقاء بالفن القصصى، وذوق الجمهور أيضاً. ويتراءى لى من مجموع آراء النقاد المحدثين حول هذه القضية، أن الدعوة إلى استخدام الفصحى، كانت أكثر شيوعاً بين النقاد، وفى القصة الحديثة كذلك كانت أكثر وروداً فى لغة الحوار من اللغة العامية، وماقاله الدكتور محمد غنيمى هلال فى هذا النص يمثل وجهة نظر الداعين إلى الفصحى أصدق تمثيل، ويبرز الدوافع والأسباب التى دفعتهم إلى الحرص على الفصحى فى لغة الحوار القصصى.

والمتأمل فى القصة العربية الحديثة يجد أن لغة الحوار فى القصة التاريخية تأتى فصيحة، لا يخالطها ألفاظ عامية، لأن طبيعة هذه القصة تفرض على الكاتب ذلك.

بينما فى القصة غير التاريخية تبرز قضية الفصحى والعامية بروزاً واضحاً، لأن كاتب هذه القصة يجد نفسه أمام لهجات متعددة فى بيئة قصته المعاصرة، تنتظمها الفصحى والعامية، لذلك نجد بعض الكتاب يستخدمون الفصحى فى حوارهم، والبعض الآخر يستخدم اللغة الوسطى، والبعض الثالث يستخدم اللغة العامية، وهذا يرتبط بطبيعة التوجه الفنى لكل كاتب.

---

(١) النقد الأدبى الحديث: ص٦٢٤ - ص٦٢٦.

ولما كنا بصدد الحديث عن الاتجاه الفصيح، فإننا نمثل هنا لفئة الكتاب الذين التزموا هذا الاتجاه، وذلك بتقديم نماذج من قصصهم التى جاء حوارها باللغة الفصحى.

من الكتاب "من ينوبون عن شخصياتهم فى الحديث، ولا يبالون أكان هذا الحديث صادقاً معبراً، أم مفتعلاً مزوراً. وخير مثل على هذه الفئة من الكتاب، طه حسين، فهو قليلاً مايلجأ إلى الحوار، ولكنه إذا مااضطر إلى اللجوء إليه، لا يعمد إلى اللغة العامية أبداً، بل يجرى على لسان الشخصيات على اختلاف طبقاتها، حواراً أدبياً مختاراً، يخلو من الدلالة الفنية، وينضح بالكلفة والافتعال[(١)]". ومن الكتاب الذين استخدموا اللغة الفصحى فى حوارهم، الأستاذ عبد الحميد جودة السحار، فى جميع أعماله القصصية، ومنها -مثلاً- قصته (السهول البيض)، فقد جاء الحوار فيها بلغة عربية فصحى راقية المستوى، فكان نموذجاً لما ينبغى أن يكون عليه الحوار القصصى.

ومن نماذج الحوار فى القصة، ماجاء على لسان الشيخ (حسن)، الذى يمثل شخصية الشاب الملتزم فى القصة:

"لو كنا دولة قوية لأرغمنا هؤلاء الأجانب على احترامنا، فالناس لا يحترمون إلا الأقوياء، و يقلدون إلا الأقوياء، ولا يتملقون إلا الأقوياء .. لو كنا أقوياء مامشى هؤلاء الإنجليز على أرضنا مطمئنين.

- لم يبق إلا شهور وبعدها نرتاح من رؤية وجوههم.

---

(١) فن القصة: ص١٢١.

- لا أعتقد أنهم سيتركوننا دون حرب[١]".

هنا نلحظ فصاحة اللغة وسلامتها، وخضوعها لقواعد الإعراب، ووضوحها، ولهذا يستطيع القارئ أن يفهمها فى شتى البقاع العربية، ولغة الحوار فى القصة كلها على هذا النمط.

ولكنا نلحظ على الحوار فى هذه القصة ميله إلى اللهجة الخطابية أحياناً، وطول بعض الفقرات أحياناً أخرى، خاصة الحوار الذى يجرى على لسان الشيخ (حسن)، ولعل السر فى ذلك يرجع إلى أن الكاتب اتخذ من شخصية الشيخ (حسن) إطاراً يعرض من خلاله آراءه فى الإسلام والاستعمار. وقد سبق القول بأن الخطابية وطول الفقرات من الأمور التى تضعف الحوار القصصى.

ومن الكتاب الذين مالوا إلى استخدام الفصحى، الكاتب الجزائرى عبد الحميد بن هدوقة، فقد اتخذ من الفصحى لغة لحواره فى أغلب أعماله القصصية، ومنها -مثلاً- قصة (بان الصبح).

ومن نماذج الحوار فى هذه القصة، هذا الحوار الذى دار بين الشيخ (علاوة) بطل القصة، وبين زوج ابنه:

"- الشهية تأتى مع الراحة، ومع السرور.

- وأنت مالك ياسيدى؟

---

(١) السهول البيض: ص١٨.

- لا شىء، أنا غير جائع!

- لا لا تقل هكذا، هل أكلت فى مكان آخر؟

- طبعاً لا.

- إذن يجب أن تأكل، أقسم لك.

- انصرفى، لا أستطيع أن آكل وأنت هنا أمامى![١]".

ومن الكتاب الذين مالوا إلى الفصحى، الكاتب التونسى مصطفى الفارسى فى قصته (المتعرج[٢]). ومنهم الكاتب اليمنى محمد أحمد عبد الولى فى قصتيه (صنعاء مدينة مفتوحة) و(يموتون غرباء)، ومنهم محمد عبد الحليم عبد الله، وثروت أباظة، وغيرهم.

وفى ختام هذا الاتجاه نرى -كما قلنا سابقاً- أنه يغلب على فننا القصصى الحديث، ربما لأن دعاة العامية كانت لهم أهداف أخرى غير الواقعية وهى أهداف معروفة للمشتغلين فى مجال الأدب والنقد، ولا داعى لتفصيل القول فيها هنا، فكان رد الفعل المناسب تمسك الكثير من النقاد والأدباء باللغة الفصحى، كلغة للأدب بعامة.

ويجدر أن نختم هذا الاتجاه برأى الأستاذ محمود تيمور فى اللغة التى ينبغى أن يكتب بها الحوار، ونحن نعرف أنه من أنصار كتابة الحوار باللغة الفصحى، لأنها اللغة التى يجب أن يكتب بها الأدب. فهو

---

(١) بان الصبح: ص٤٨.

(٢) انظر المتعرج: ص٤٢.

يقـول: "وقصـارى مأأقولـه اليـوم فـى لغـة القصـص قـول جهـرت بـه بالأمس، ذلك أنـه يجب أن يوضـع فـى الاعتبـار أن القصـة إذا كـانت بضاعة للتسويق الوقتى العجول، فلنكتب باللغة التى تأنس بهـا الأهـواء والأذواق على أوسع نطـاق، ولكـن متـى مـاأريد لها أن تدخـل الأدب المعترف به من أوسع أبوابه، وأن تأخذ مكانها بين ألوان الإنتـاج الفنـى الباقى، فلابد أن تستكمل عنصراً جوهريـاً لـه المقـام الأول بـين عنـاصر الثقافة وذلك هو التعبير الفصيح[1]". ولاشك أن اللغـة الفصحـى هـى أفضل لغة لكتابة الحوار القصصى، لأنهـا تتيـح للقـارئ -مهمـا كـانت بيئته- أن يفهمها، ولأنهـا تسـاعد علـى ترجمـة الأعمـال القصصيـة إلى اللغات الأجنبية المختلفة بسهولة، أمـا الحـوار المكتـوب باللغـة العاميـة، فإنه يحتاج إلى أن ينقـل إلى الفصحـى، ثـم يـترجم بعـد ذلـك إلى اللغـة الأجنبية.

"فسـبيلنا التـى ندعـو إليهـا مـن شـأنها أن تفسـح المجـال الأرحـب للقصة، فلا تحرمها ميدان الفصحى، حتى يتاح لها جمهور أكبر، ويتسـع مجالهـا الفنـى ويعمـق، كمـا تـؤدى رسـالتها الفنيـة والقوميـة، كعهدنـا بالقصص فى الآداب العالمية[2]".

---

(١) القصة فى الأدب العربى وبحوث أخرى: ص٣٠.

(٢) النقد الأدبى الحديث: د. محمد غنيمى هلال: ص٦٢٧.

٢- الاتجاه الوسيط:

هو اتجاه يميل أصحابه إلى استخدام لغة وسطى، أو لغة هى مزيج من الفصحى والعامية، وتسمى (العامية المفصحة) أو (الفصحى المبسطة[١]).

وأصحاب هذا الاتجاه أرادوا لقصصهم أن ترتبط ببيئتهم مع الحفاظ على قوميتهم العربية، أو أرادوا أن يقتربوا بلغة الحوار فى قصصهم من ذوق المثقف العادى، أو كأنهم أرادوا أن يخرجوا من دائرة الصراع بين أنصار الفصحى وأنصار العامية، وينهوا هذا الصراع باستخدام هذه اللغة التى يغلب عليها الفصحى مع الميل أحياناً إلى استخدام بعض الألفاظ العامية كلما دعت الحاجة، أو كلما كانت تكل الألفاظ مناسبة للشخصية والموقف والحدث. وهناك فريق من الكتاب مالوا إلى استخدام هذه اللغة، وآثروا "استعمال العامية المفصحة أو الفصحى المبسطة، ومنهم المازنى ونجيب محفوظ. وقد كانت محاولة نجيب فى هذا السبيل، الخطوة التالية بالنسبة إلى محاولة المازنى، فقد حرص على الواقع النفسى للشخصيات، كما حرص إلى حد كبير، على الواقع اللفظى، فى محاوراتها[٢]". ونطالع قصص نجيب محفوظ، فنجده يستخدم فى حواره لغة عربية فصحى مبسطة وسهلة، وأدخل عليها بعض المفردات العامية، لتعطى للشخصية القصصية بعض التميز، وليكون هناك بعض الفروق بين الشخصيات.

---

(١) فن القصة: ص١٢١.

(٢) السابق: ص١٢١، ص١٢٢.

إذا كانت هذه طبيعة اللغة الحوارية فى قصص نجيب محفوظ، فإنه يفاجئنا فى مجال التنظير حين يحدثنا عن رأيه فى قضية الفصحى والعامية، ونجده يدعو إلى استخدام الفصحى فى العمل القصصى، فهو يقول: "التزمت الفصحى لأنى وجدتها لغة الكتابة، ولم تتبلور المسألة كمشكلة إلا فى وقت حديث نسبياً، وكثيرون يعتبرونها مشكلة من الدرجة الأولى، وقد تكون كذلك فى المسرح أو السينما، أما فى الرواية والأقصوصة فالأمر أبسط من ذلك بكثير، والزمن وحده سيفصل فيها، والواقع أنى أشعر أن الاستهانة بلغة توحد بين مجموعة من البشر هو فى ذات الوقت استهانة بالفن نفسه، وبالعلاقة البشرية[(١)]".

يتبين من ذلك أن نجيب محفوظ يفضل الفصحى لغة للأدب، ومنه القصة، ولكن ذلك يقف عند حدود الجانب النظرى، بينما فى التطبيق يختلف الأمر، حيث نجده يمزج الفصحى ببعض المفردات العامية الدارجة، وهى تتفاوت عنده قلة وكثرة من قصة إلى أخرى.

ومن الكتاب الذين مالوا إلى استخدام اللغة الوسطى فى حوارهم القصصى الكاتب التونسى عبد الحميد عطية صاحب قصة (المنبت). فهو يرى أن يكتب الحوار القصصى باللغة الفصحى، مع المحافظة على الشكل الدارج الضامن لبقاء القوة التعبيرية[(٢)]. ولذلك راح فى قصصه

---

(١) فى الشعر والنثر: د. حسين محسن: ص١٥٤.

(٢) انظر: دراسة للكاتب فى نهاية قصة (المنبت): ص١١٥، ص١١٦.

يمزج بين الفصحى والعامية، ضماناً لبقاء القوة التعبيرية فى لغة الحوار عنده.

وأصحاب هذا الاتجاه قليلون، ويختلفون فيما بينهم، فبعضهم تقل استعانته بالمفردات العامية، وبعضهم يكثر من هذه المفردات، فيكون الحوار عندهم أقرب إلى اللغة العامية الدارجة.

ورؤية الناقد سيد قطب للغة القصة، تندرج تحت هذا الاتجاه، فهو يرى أن تتحدث كل شخصية بلغتها المناسبة لمستواها ووضعها، ويمكن تطويع اللغة الفصحى لتناسب ذلك بدون الخروج على طبيعتها، وهو بذلك يريد الفصحى المبسطة.

فهو يقول: "وكلما عبر كل شخص فى القصة بلغته حسب مستواه فيها ووضعه، كان ذلك أكمل، لأنه يساعد على نسياننا للمؤلف، وشعورنا بأن الحياة تجرى طبيعية أمامنا دون أن يعترضها تنسيقه المفتعل. وقد يجد المؤلفون فى اللغة العربية بعض الصعوبة لتطويعها لجميع المستويات الفكرية والشعورية، لأنه بطبيعتها لغة الخواص، ولكن هذا التطويع ممكن حسب المواقف بدون خروج على حسب طبيعة اللغة وأساليبها[١]".

ولكنا فى الواقع نرفض هذا الاتجاه، لأنه يميل إلى العامية فى كثير من الأحيان، وهذا فيه إضعاف للفصحى، وفيه أيضاً إفساد للذوق

---

(١) النقد الأدبى أصوله ومناهجه: ص٨٠.

العام، حين لا يحاول الكتاب الارتقاء به من خلال فنهم القصصى، كما أن جمع الفصحى والعامية فى سياق واحد قد يكون غير مستساغ.

ويبدو أن الناقد الدكتور محمد غنيمى هلال لم يعجبه هذا الاتجاه فى الحوار القصصى، فراح فى ثنايا مناقشته لقضية الفصحى والعامية، يرد على دعاة اللغة الوسطى، بما يبرز بطلان دعوتهم وعدم جدواها فى لغة القصة.

فهو يقول: "والخطر الفنى الحقيقى هو -فيما نرى- مجافاة القصة للغة الواقع فى المضمون والموقف، لا فى لغة الأداء. فلا ضير أن يحاور صبى أو عامى باللغة العربية -على ألا يكون فيها تكلف أو فيهقة- ولكن الضرر كل الضرر أن يجرى الكاتب على لسان صبى أو عامى آراء فلسفية أو أفكاراً اجتماعية، أو صوراً عميقة لا يبررها الواقع، ولا تتصل بالموقف.

على أنه لا ينبغى أن نغفل عن حقيقة أخرى لها خطورتها هنا، وهى أن إيراد بعض الألفاظ العامية أو الأجنبية فى التراكيب الفصيحة لا ينال من اللغة الفصحى، ولا يجعل منها لغة عامية أو أجنبية، فالألفاظ المفردة لا تخلق اللغة ولا تميزها، ذلك أن خاصة اللغة تتمثل فى تراكيبها، ومايتصل بالتراكيب من دلالات موضوعية أو جمالية وقد أفادت لغتنا الفصحى من مفردات اللغات الأخرى فى القديم، بخاصة الفارسية، فأخذت عنها كثيراً من مفرداتها، وأدخلتها فى تراكيبها فصارت المفردات معربة، وبعض هذه الألفاظ المعربة الأصل فى القرآن الكريم.

وتغيب هذه الحقيقة عن دعاة اللغة الوسطى من نقادنا وكتابنا، يقصدون اللغة التى تكتب على حسب الإملاء الفصيح بمفردات تتفق فيها العامية والعربية، لينطقها من يشاء بالعامية أو العربية، ولابد لهم فى هذه الحال من إغفال الدلالات الجمالية للتراكيب، ذلك أن تراكيب اللغة الفصيحة مرنة، بسبب وجود الإعراب فيها، وفى هذه المرونة تتمثل أكثر الخصائص الجمالية، وكثير من الدلالات الوضعية، على حين فقدت العامية هذه المرونة بإسقاط الإعراب، فأصبح لكل لفظ وضعه فى الجملة لا يتعداه، فمراعاة التوفيق بين العامية والفصحى فى المفردات يقتضى مراعاة التراكيب العامية، لتستطاع قراءتها بالعربية والعامية على سواء، وينتج عن ذلك إضعاف اللغة العربية فى أخص خصائصها، دون إغناء للعامية فى شىء، ومن اليسير تتبع الشواهد الكثيرة على ذلك فى الأعمال الأدبية التى قصد أصحابها إلى كتابتها بتلك اللغة الوسط، وقد دلت التجربة العملية أنها تقرأ بالعامية لا بالعربية(١)". وإذا كان هذا رداً على دعاة اللغة الوسطى بضعف اتجاههم وفساده، فإنه بالتالى رد على دعاة العامية الكاملة، وبيان لفساد وجهتهم.

٣- الاتجاه العامي:

وأصحاب هذا الاتجاه يستخدمون العامية فى لغة الحوار، كى يقتربوا بلغتهم من ذوق جمهور القراء، ويحققوا الواقعية لقصصهم، ويكونوا أكثر ارتباطاً ببيئاتهم.

---

(١) النقد الأدبى الحديث: ص٦٢٦، ص٦٢٧.

ولا ننسى أن وراء هذا الاتجاه -كما قلنا- دوافع وأسباباً لا تخفى على كثير من المشتغلين فى حقل الأدب والنقد، وليس هنا مجال تفصيل القول وتفنيدها، وهى أسباب تجعلنا نرفض رفضاً تاماً هذا الاتجاه.

وقد بدأت الدعوة إلى العامية تغزو المجتمعات العربية مع طلائع الاستعمار الذى هجم على بلادنا منذ القرن التاسع عشر الميلادى، وهذه الدعوة تنوعت طرقها ووسائلها، وكان من أهم أهدافها القضاء على اللغة الفصحى التى تجمع بين ملايين البشر.

وأخذ أصحاب هذه الدعوة يستخدمون العامية فى لغة الأدب، "فظهرت العامية فى الأدب المكتوب، فاستعملها كثير من كتاب القصة فى الحوار، بدءاً بما كتبه هيكل فى روايته (زينب)، حتى أصبحت اليوم هى الأصل فى كتابة القصة أو الرواية الأدبية، و لا يستعمل الكاتب من الفصحى إلا ما يأتى نادراً على استحياء[١]".

ويبدو من هذا النص أن ظهور العامية فى لغة الحوار القصصى، بدأ مع نشأة الفن القصصى العربى، فنحن نعرف أن قصة (زينب) لمحمد حسين هيكل، من أولى القصص الفنية التى ظهرت فى نتاجنا القصصى العربى، وكان حوارها باللغة العامية. ويبدو -من خلال استقراء النتاج القصصى العربى الحديث- أن الحوار العامى يشكل الجانب الأكبر فى لغة الحوار فى هذا النتاج.

---

(١) فى الفكر الإسلامى – مجموعة من الكتاب: مقال بقلم د. يحيى هاشم حسن فرغل: ص٥٤٥.

ويبدو كذلك أن الدافع الأساسى الذى دفع أصحاب هذا الاتجاه إلى العامية فى حوارهم، الوفاء بمطلب الواقعية، وتحقيقاً لهذه الواقعية فى قصصهم، وأن تعبر كل شخصية بلغتها الحقيقية فى الواقع، فالفلاح الأمى -مثلاً- تجرى على لسانه فى القصة لغته الحقيقية فى الحية، وهكذا مع بقية النماذج البشرية، لأن الأدب ينبغى أن يصور الحياة كما هى فى الواقع، ومن ضمن هذا الواقع حوار الشخصيات فيما بينها بلغتها الحقيقية.

"فمعظم الذين أيدوا عامية الحوار استندوا إلى الوفاء بمطلب الواقعية .. وإلى تقرير أن تكون اللغة هى لغة الأشخاص فصحى أو دارجة أن تتفق مع السياق العام للحدث[١]".

وقد انبرى كثير من النقاد للرد على دعاة هذه الاتجاه، وتفنيد حججهم التى استندوا إليها، وبخاصة دعوى الوفاء بمطلب الواقعية، مبينين المراد بالواقعية فى القصة، وفى رسم الشخصية.

فهذا محمود تيمور يدحض حجج الذين ينادون باستخدام العامية فى الحوار القصصى، لإضفاء صفة الواقعية على العمل القصصى، فيقول: "وهذا قصور فى تصور مفهوم الواقعية بمعناها الحديث! فإن الواقع عند الكاتب الفنى ليس مجرد نقل أصم لما هو فى الخارج من مسموع ومشهود كما تسمعه الآذان، وتراه العيون، بل هو فى الحق

(١) الفن القصصى بين جيلى طه حسين ونجيب محفوظ: د. يوسف نوفل: ص٢٥٣، ص٢٥٤.

الشعور بالواقع وتمثله والتعبير عنه بمخيلة المؤلف، وعلى ذلك فإن كاتب الحوار بالفصيح يستطيع أن يعبر عن الواقع بمفهومه الجديد تعبيراً صحيحاً، وإن كان هذا التعبير فى مظهره وصيغته بلغة غير اللغة الدائرة فى الخارج[1]".

ويرد عليهم أيضاً الناقد محمد غنيمى هلال، مبيناً فساد وجهتهم، ومعنى الواقعية الصحيح فى الأدب والقصة، فيقول:

"الذى نعارضه كل المعارضة هو أن نحكم على الفصحى -من حيث هى- بأنها تعجز عن أن تسهم فى هذا المجال، تعللاً بأن العامية ثرية بقرائن ألفاظها الحية فى الاستعمال، أو مراعاة لواقع الحال فى حديث الشخصيات التى تتكلم العامية، وينطقها الكاتب اللغة الفصيحة مما يسمونه: واقعية الأداء. ذلك أن الفرق شاسع بين معنى الواقعية الفنى وواقعية اللغة، والخلط بينهما لا يصدر إلا عن قصور شنيع فى فهم الواقعية، فالواقعية يقصد بها واقعية النفس البشرية، وواقعية الحياة والمجتمع. والكاتب لا يستنطق لسان المقال، بل لسان الحال، ولابد من عالم الأدب من الاختيار والتعمق، لا الاقتصار على نقل الواقع ..

وعندنا أن الذين يغالون فى الاهتمام بعبارات الواقع العامى -اعتدادا بحيويتها- يخطئون، ذلك أن الحوار يعتمد أولاً على الموقف، لا على عبارات المهاترة، والتلاعب بالألفاظ والتنابذ بالألقاب، توهماً أنه الواقعية .. ولن تخسر القصة كثيراً إذا تعذر نقل بعض العبارات ذات

(١) القصة فى الأدب العربى وبحوث أخرى: ص١٩، ص٢٠.

الخصائص الموضعية فى العامية إلى لغة الحوار بالفصحى، ولكنها تخسر كل شىء بضعف الموقف، ومجافاة الواقع فى الموقف ..

فالخطر الفنى الحقيقى هو -فيما نرى- مجافاة القصة للغة الواقع فى المضمون والموقف، لا فى لغة الأداء، فلا ضير أن يحاور صبى أو عامى باللغة العربية -على ألا يكون فيها تكلف أو فيهقة- ولكن الضرر كل الضرر أن يجرى الكاتب على لسان صبى أو عامى آراء فلسفية أو أفكار اجتماعية، أو صوراً عميقة لا يبررها الواقع، ولا تتصل بالموقف[1]".

ويرد الكاتب نجيب محفوظ على من ينادون باستخدام العامية لغة للحوار استجابة للواقعية، فيقول: "المهم فى الشخصية عناصرها الخُلقية، والمزاجية، والثقافية، والسلوكية، وآخر مانستعين به فى ذلك هو كيفية نطق الألفاظ[2]".

ويرد الناقد الدكتور شوقى ضيف عليهم أيضاً فيقول: "الحق إن التشبث فى القصة بفكرة الواقع إلى حد أن تفسد لغتها بإدخال الكلمات والصيغ العامية تشبث من شأنه أن يفقدها روعتها الأدبية، وينبغى أن نحتفظ لها بقيم هذه الروعة وأن يمرن القصاص الممتاز فصحانا على أداء مايظن أن العامية تسبقها فيه أو فى أدائه، والواقعية الحقيقية ليست فى الألفاظ، وإنما هى فى المضمون أو فى القضايا

---

(١) النقد الأدبى الحديث: ص٦٢٤ - ص٦٢٦.

(٢) الفن القصصى بين جيلى طه حسين ونجيب محفوظ: د. يوسف نوفل: ص١٠٨.

والأوضاع الاجتماعية، التي ينبغي أن يحسن أداءها القصاص، والتي لا يستطيع الناس أن يعبروا عنها على نحو مايعبر عنها في قصته، ونحن لا نريد منه التعبير فحسب، وإنما نريد تعبيراً جميلاً، له إيقاعه الموسيقى الذى يتميز به في كل مايكتب من قصص، هذا الإيقاع الذى تسقط نغماته من نفسه، فتستولى على النفوس وتأسر الألباب والعقول[١]".

ويقول الدكتور محمد يوسف نجم: "أكثر الكتاب يلجأون إلى العامية في الحوار، لتضفى عليه صدقاً وحيوية وواقعية. وهنالك كتاب يؤثرون أن ينطقوا الشخصيات، في مواقف الحوار والمناقشة، بلهجتهم الطبيعية الخاصة، ومنهم توفيق الحكيم في (عودة الروح) .. ويدخلون في حسابهم طبقات القراء وبيئاتهم، والذى يحملهم على ذلك، اختلاف اللهجات العامية في القطر الواحد، وفى الأقطار العربية عامة، واستعمال اللهجة العامية، التي يعرفها الكاتب أو يتصورها، يؤدى في مثل هذه الحالات، إلى بلبلة وسوء فهم[٢]".

ويقول الناقد الدكتور محمد السعدى فرهود حول هذه القضية، والرد على دعاة العامية: "يرى بعض النقاد إجراء الحوار بين الأشخاص كيفما اتفق لهم أن يعبروا في حياتهم العامة.

ونحن لا نتزمت، ولا نريد أن نشق على الناس. بيد أننا نرى في العربية الفصحى السهلة مايدينها من العامية، وفى العامية مايقربها من

---

(١) في النقد الأدبى: ص٢٣٣.

(٢) فن القصة: ص١٢١، ص١٢٢.

الفصحى السهلة الميسرة، وفى هذا متسع للجميع إن أرادوا الاحتفاظ بلغتهم الأصلية، والرقى بلهجات مجتمعاتهم إلى حيث تلتقى الأمة العربية على لغة سواء[١]".

ويتبين من خلال هذه المقولات التى تعكس آراء أصحابها فى دعوى تحقيق الواقعية عند كتابة الحوار القصصى بالعامية، أن الواقع لا يفرض على الكاتب القصصى استخدام اللغة العامية بحجة أن تتحدث الشخصية القصصية بلغتها فى حياتها العامة الواقعية، وأن الكاتب فى استطاعته -إن أراد- استخدام اللغة الفصحى المبسطة، والتى يفهمها جميع القراء فى مختلف البيئات العربية.

والحق إن واقع القصة العربية الحديثة يثبت أن هناك كتاباً كثيرين استخدموا اللغة العامية فى الحوار، ومن هؤلاء -مثلاً- الكاتب السودانى الطيب الصالح، حيث استخدم فى قصته (عرس الزين) لغة دارجة خاصة بأهل الشمال السودانى، فقد "جعل الحوار بين شخوص هذه الرواية فى لغة دارجة، بل دارجة خاصة بأهل الشمال من (بديرية وشايقية) ..[٢]".

ومن نماذج الحوار فى هذه القصة، قول (نعمة) الفتاة لابن عمها (الزين) بطل القصة: "ماتخلى الطرطشة والكلام الفارغ تمشى تشوف أشغالك[٣]".

---

(١) قضايا النقد الأدبى الحديث: ص١٥٩.

(٢) الطيب الصالح عبقرى الرواية العربية: عثمان حسن أحمد: ص١٨٠.

(٣) عرس الزين: ص٢٨.

وقولها: "يوم الخميس يعقدوا لك عليَّ أنا وأنت نبقى راحل ومره، نسكن سوا ونعيش سوا[(١)]".

وقول (الحنين) الصوفى المتحول للزين: "كل البنات دايراتك بالمبروك، بارك تعرس أحسن بت فى البلد دى[(٢)]".

ومن هؤلاء كذلك الكاتب الفلسطينى فيصل حورانى فى قصته (بير الشوم)، حيث طغت العامية على لغة الحوار فى هذه القصة، وهى عامية شامية فلسطينية، لا يكاد كثير من القراء العرب يفهمون منها شيئاً، كما هو الحال فى عامية (عرس الزين).

ومن نماذج الحوار فى (بير الشوم) قول الشيخ (حسن) إمام القرية: "إذا وعدتنى ماتعيدهاش، بدعى لا الله يسامحك[(٣)]".

وقوله: "أعطيه إشى يبيعه، أعطيه البيضات[(٤)]".

ومن الكتاب الذين "آثروا العامية لغة لحوارهم عبد الرحمن الشرقاوى، فقد كتب الحوار باللغة التى يتكلم بها أصحابها بالفعل فى مجتمع القرية، ببساطته، وسذاجته، وعفويته[(٥)]".

---

(١) السابق: ص٨٨.

(٢) السابق: ص٤٨، ص٣٩.

(٣) بير الشوم: ص١٥٧.

(٤) السابق: ص١٥٧.

(٥) بناء الرواية: د. عبد الفتاح عثمان: ص٢٥٥.

ففى قصته (الفلاح) -مثلاً- جاء الحوار بلهجة أبناء الريف فى الدلتا المصرية[١].

فهناك إذاً عامية مصرية، وعامية فلسطينية، وعامية سودانية، وهكذا، فكل بلد عربى له لغة عامية خاصة به، وداخل كل بلد لهجات عامية متنوعة، واستخدام اللغة الفصحى يوحد أصحاب هذه اللهجات، ويجعلهم يفهمون الحوار الذى يجريه القصاص على ألسنة شخصياتهم القصصية.

أما عيب اللغة العامية فيتمثل فى "عسر فهمها من عامة القراء نظراً لاختلاف اللهجات فى الأقطار العربية،، فيؤدى ذلك إلى البلبلة وتقليل الإفادة منها.

وقد وقف بعض الكتاب إلى استعمال لغة فصيحة سهلة، فحلوا المشكلة[٢]".

ففى الفصحى العلاج الأمثل للقضاء على عسر فهم اللغة العامية من قبل القراء العرب فى كل مكانن والقضاء على هذا التفتت الواضح فى النتاج القصصى عن طريق استخدام اللهجات العامية الدارجة، بالإضافة إلى أهمية الفصحى فى نقل القصص العالمية إلى اللغة العربية، والتى تلقى إقبالاً من الجمهور، وذلك لأن هذه القصص تترجم بالفصحى لا بالعامية، وترجمتها بالفصحى وإقبال الجمهور العربى عليها

---

(١) انظر: الفلاح: ص٤٥ - ص٤٧.

(٢) فى الأدب وفنونه: على بو ملحم: ص١٣١.

برغم فصاحة لغتها، يشجع على استخدام اللغة الفصحى فى الحوار القصصى، فكما نقرأ القصص المترجمة إلى العربية باللغة الفصحى، ونجد فيها متعة، كذلك نستطيع أن نجد هذه المتعة فى القصص العربية المكتوبة باللغة الفصحى.

هذا، وتجدر الإشارة هنا إلى أن قضية الفصحى والعامية لا تتصل اتصالاً مباشراً إلا بالحوار القصصى فقط، حيث "لا تدخل العامية فى الأسلوب القصصى، إلا فى المواقف الحوارية، فالكاتب الذى يلجأ إلى طريقة السرد المباشر، أو إلى الطرق الفنية الأخرى، لا يحتاج إلى أن يحدث قراءه بلغة عامية، ولا إلى أن يعرض قصته وأن يصف حوادثه بمثل هذه اللغة، ولكن أكثر الكتاب يلجأون إليها فى الحوار، لتضفى عليه صدقاً وحيوية وواقعية[١]".

ولهذا فقد درسنا هذه القضية وموقف النقاد والكتاب منها فى إطار دراسة الحوار القصصى، حيث تتصل به اتصالاً مباشراً.

(د) خصوصية اللغة:

الشخصية العربية له خصوصيتها المتميزة، فهى تحمل تراثاً ضخماً، وثقافة متنوعة، تتمثل فى المصطلحات الإسلامية، والقرآن الكريم، والحديث الشريف، والقيم والتقاليد التى مرت بها على مدى العصور، بالإضافة إلى اللغة التراثية التى تحملها، والتى تتمثل فى الشعر العربى على مر العصور، والأمثال والحكم والخطب والوصايا وغيرها.

---

(١) فن القصة: ص١٢١.

ولهذا ينبغى أن يراعى القاص فى حواره هذه الخصوصية، حين يجرى الحوار على ألسنة شخصياته، فيراعى ثقافتها وتراثها، فيربط الشخصية بتراثها عن طريق استخدام بعض الأمثال والحكم والأشعار والمصطلحات فى لغة الحوار، حتى يحقق للشخصية العربية خصوصيتها المميزة لها عن غيرها من الشخصيات، وبالتالى تتحقق للحوار القصصى خصوصية اللغة.

ولاشك أن هذا الجانب، فوق أنه يحقق للشخصية العربية خصوصيتها المميزة لها، وللحوار خصوصية اللغة. يعكس أيضاً ثقافة القاص نفسه، حين يمزج حواره بهذه الأشياء، لأن الحوار القصصى، من صنعه أصلاً، فإذا كان يحفظ القرآن الكريم والحديث الشريف، ويعرف المصطلحات الإسلامية، ولديه إلمام بلغة التراث على اختلاف موضوعاتها، فسوف يأتى حواره ممزوجاً بتلك الأمور، أما إذا كان جاهلاً بتلك الأمور فسوف يخلو حواره منه.

ولهذا يجب على الكاتب أن يجعل حواره متناسباً مع طبيعة الشخصية العربية بمراعاة تلك الجوانب المختلفة فى حواره، فيجرى على لسان شخصياته بعض المصطلحات الإسلامية، كالإيمان، والإسلام، والتقوى والفتوى، والكفر، والإلحاد، وغيرها. كذلك يستخدم بعض الآيات القرآنية فى لغة الحوار، لما لها من أثر قوى فى نفوس المسلمين، كما يحرص الكاتب على تصوير هذا الأثر فى قصته، كالصبر وزيادة الإيمان، والطمأنينة، والتفاؤل، والتثبت والصمود، وإزالة الخوف والتردد من النفوس، والخشوع، وصفاء القلوب والنفوس، والقوة والأمان.

كذلك يحرص الكاتب على مزج الحوار ببعض الأحاديث النبوية الشريفة، فالمسلمون فى حياتهم العامة كثيراً مايرددون الأحاديث، ويستشهدون بها فى المواقف المختلفة، لذلك ينبغى على القاص الذى يجرى حواراً على لسان الشخصية العربية المسلمة أن يمزج حوارها ببعض الأحاديث النبوية، وهذا الأمر تفرضه الواقعية والصدق الفنى.

كذلك على القاص أن يهتم فى حواره بالتراث العربى على مدى العصور التاريخية المتلاحقة، فهذا التراث من أبرز الأشياء التى تمنح الشخصية العربية خصوصيتها، وتحقق للحوار العربى خصوصيته كما أن هذا التراث يحمل فى طياته ثورة أدبية لها قيمتها الكبرى، مثل: الشعر، والأمثال، والحكم، والخطب، والوصايا، والرسائل، وغيرها. هذا التراث أيضاً هو خلاصة تجارب عاشتها الأجيال المتلاحقة، فكل جيل ينقل إلى الجيل الذى يليه ذلك التراث، ويضيف إليه تجارب جديدة، وينقلها إلى الجيل اللاحق.

وهذا التراث كذلك يجرى على ألسنة الناس فى الحياة العامة، لذلك لابد أن يمزج القاص حواره بنماذج من ذلك التراث، حتى يحقق الواقعية فى قصته، ومن ناحية أخرى يسهم فى نشر ذلك التراث بين جمهور القراء، فيتعرفوا على تراثهم بما يحوى من قيم ومثل، ويمكن أن يسهم أيضاً فى تعريف الأمم الأخرى التى تترجم لها بعض القصص العربية، فيتعرفوا على التراث العربى كذلك.

فيهتم الكاتب بإيراد بعض الأمثال فى حواره، لأنها تجرى على ألسنة الناس فى الحياة اليومية، والمثل قد يتقبس من آية قرآنية أو جزء

منها، أو حديث نبوى أو جزء منه، أو بيت من الشعر أو جزء منه، أو يكون قولاً نثرياً موجزاً، نطق به شخص بعد تجربة عاشها فأصبح يضرب فى الحالات المشابهة.

والمثل هو: "قول موجز، صائب المعنى، تُشبّه به حالة حادثة بحالة سالفة[١]".

ويستوى فى ذلك المثل العربى القديم، والمثل العامى الحديث، فلا غضاضة فى أن يستخدم القاص المثل العامى بلغته فى حواره، فإن ذلك لا يفسد لغة الحوار، ولا يؤثر فى فصاحتها.

كذلك يهتم الكاتب بإيراد بعض الحكم فى لغته الحوارية؛ لأنها تجرى على ألسنة الناس فى الحياة اليومية، وهذا مطلب من مطالب الواقعية فى القصة.

والحكمة هى: "تلك العبارة التجريدية التى تصيب المعنى الصحيح، وتعبر عن تجربة من تجارب الحياة، أو خبرة من خبراتها، ويكون هدفها عادة الموعظة والنصيحة[٢]".

وتصدر الحكمة "عن فئات خاصة من الناس هم أولئك الذين أوتوا قسطاً موفوراً من الذكاء، ونفاذ البصيرة، وفصاحة العبارة، وبلاغتها،

---

(١) الأمثال العربية - دراسة تاريخية تحليلية: د. عبد المجيد قطامش: ص١١.

(٢) الأمثال العربية: ص١٨.

كالأنبياء، والحكماء، والفلاسفة، والشعراء، وغيرهم[1]. كذلك يفضل التمثل ببعض الأبيات الشعرية العربية فى لغة الحوار، فالشعر من أحب الفنون الأدبية، وأقربها للنفوس، والشعر سريعاً مايعلق فى الأذهان، فتألفه النفوس وتكرره فى أحاديثها الخاصة والعامة، وكثيراً مانجد بعض الكتاب فى القصة العربية الحديثة يجرون على ألسنة شخصياتهم القصصية بعض الأبيات الشعرية؛ لأنهم حتماً يدركون أثر الشعر فى النفوس.

فاللغة الحوارية فى القصة العربية ينبغى أن يكون لها خصوصية تميزها، من حيث جريان بعض الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والمصطلحات الإسلامية على لسان الشخصيات، كذلك استخدام بعض الأمثال والأشعار والحكم العربية، وترديدها فى المواقف والأحداث المناسبة، فإن هذا يتناسب مع خصوصية الشخصية العربية القصصية، والتى تتطلب خصوصية لغوية، لتستقل القصة العربية ببعض الخصوصيات.

هذا، والذى يطالع القصص العربية الحديثة، لن يخطئه أن يطالع هذه الأشياء فى بعض أجزاء الحوار، الأمر الذى يعكس وعى الكتاب بخصوصية اللغة الحوارية فى القصة العربية.

وهذه بعض نماذج تمثل هذه الجوانب، فى لغة الحوار فى القصة العربية الحديثة.

---

(١) السابق: ص١٨.

فمن المصطلحات الإسلامية، مصطلح (الكفر) الذى جاء على لسان الشيخ (طلبة) إمام القرية ومعلم القرآن، فى قصة (الفلاح) لعبد الرحمن الشرقاوى، وذلك فى قوله (لرزق بلك): "إنت حاتمشى ورا كلام العيال المشاغبين الكفرة[١]"، وقوله: "بلد كفرة، حتى الذين قرأوا القرآن فيها كفرة[٢]".

ومصطلح (الفتوى) على لسان الشخصية نفسها فى قوله: "الناس تسألنى الرأى والفتوى[٣]".

ومن القرآن الكريم ماجاء على لسان (والد سامى) فى قصة (الخندق الغميق) للدكتور سهيل إدريس، يستشهد بقوله تعالى: ﴿...فأنكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ...﴾"[٤].

فيقول له ابنه (سامى) الذى يعترض على زواج والده من امرأة أخرى: "ولكنك بترت الآية: ﴿...فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة...﴾"[٥].

فيشير الأب لابنه بأنه سوف يعدل "اطمئن .. اطمئنوا جميعاً سأعرف كيف أعدل[٦]".

---

(١) الفلاح: ص٦٩.

(٢) السابق: ص٤٣.

(٣) السابق: ص١٤.

(٤) الخندق الغميق: ص١٥٣ – فى الآية رقم (٣) من سورة النساء.

(٥) الخندق الغميق: ص١٥٣.

(٦) السابق: ص١٣٥.

فأسرة (والد سامى) غضبت منه؛ لأنه تزوج، فحاول أن يقنعهم بأنه حق من الحقوق التى أحازها الله ﷻ للرجال، فاستشهد بهذه الآية.

ومن الحديث الشريف ما نجده فى قصة (دفنا الماضى) للكاتب المغربى عبد الكريم غلاب، حيث يستشد بطل القصة (الحاج محمد التهامى) كثيراً بالأحاديث النبوية التى كان يحفظها من كثيرة ترddه على مجالس الوعظ والإرشاد، "فكان حديثه دائماً ممزوجاً بالأحاديث والحكم، لا يلبث أن يستشهد بها، ولو أنه لا يقيم أود لغتها، ولم تستطع كثيرة استماعه لأحاديث الوعظ والإرشاد أن تثقف لسانه أو تثقف لغته، ولكنه لا يستنكف أن يلحن بها، أو يعبر عما فهمه منها بلغته العامية[1]".

ومن الأمثال ماجاء على لسان (الشيخ علاوة) فى قصة (بان الصبح) للكاتب الجزائرى عبد الحميد بن هدوقة، مستشهداً بالمثل العربى (ماهكذا تورد الإبل ياسعد[2]).

وهذا المثل هو عجز بيت شعرى ينسب (لمالك بن زيد بن تميم) وهو:

أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا تورد ياسعد الإبل

---

(١) دفنا الماضى: ص١٧.

(٢) بان الصبح: ص١٩٣.

"أى ماهكذا يكون القيام فى الأمور[١]".

ومن الحكم ماجاء فى قصة (السهول البيض) لعبد الحميد جودة السحار، على لسان (الشيخ حسن) عندما مات (سليمان) على فراشه بعد أن شارك بقوة فى حرب المستعمر، حيث ذكر قول خالد بن الوليد ﷺ عندما كان على فراش الموت، يقول الكاتب: "وأطرق الشيخ حسن، وإذا ماقاله خالد بن الوليد، وهو على فراش الموت ينبض على ضميره: مافى جسمى موضع إلا وفيه إصابة، وها أنا ذا أموت على فراشى كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء[٢]". هذه الحكمة أطلقها خالد بن الوليد وهو على فراش الموت، فوجدها (الشيخ حسن) ملائمة لموقف (سليمان) الذى مات على فراشه بعد مشاركته الفاعلة فى حرب المستعمر، فاستشهد بها.

ومن الشعر ماورد على لسان (سامى) بطل قصة (الخندق الغميق) للدكتور سهيل إدريس، والشاب الذى يدرس فى المعهد الدينى، رغبة فى أن يصبح شيخاً، فقد هتفت عليه امرأة من الشرفة: ياشيخ .. ياشيخ. نظر إليها، ثم تذكر قول عنترة بن شداد العبسى الشاعر الجاهلى:

وأغض طرفى مابدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مأواها

---

(١) جمهرة الأمثال: أبو هلال العسكرى: ج١، ص٧٩، ص٨٠.

(٢) السهول البيض: ص٥٢٣.

عندما تذكر (سامى) قول الشاعر غض بصره عنها[١].

الحوار بين القصة والمسرحية:

عرفنا أن الحوار عنصر مهم من عناصر الأسلوب القصصى، وأنه واحدة من طرق القص والحكاية فى القصة، بجانب السرد، والوصف وتيار الوعى أو (المونولوج الداخلى).

بينما الحوار فى المسرحية أهم عناصرها، فهو عمادها وأساسها، ولا قوام للمسرحية بدونه، فقد تستغنى القصة عن الحوار، ولكن المسرحية لا يمكنها ذلك أبداً، لأنها "مقيدة بطريقة تعبير واحدة هى الحوار، فى حين تملك القصة أن تكون حواراً فى بعض المواضع، ووصفاً فى بعضها، وتعليقاً على هذا الحوار يوضحه ويحلله[٢]".

ففى المسرحية حوار، وفى القصة حوار وسرد ووصف وتيار وعى. والكلمة الزائدة، أو الجملة الزائدة فى الحوار القصصى قد تستساغ، لأنها لا تمل القارئ، إذ هو يطالع القصة فى أى مكان، وفى أى زمان، وله أن يتوقف عن قراءتها لفترات ثم يعود إليها مرة أخرى، "لكن الجملة الزائدة فى الحوار المسرحى قد تطفئ الموقف، وتمل النظارة، لأنها تبطئ الحركة عن موعدها المناسب، والحركة أهم من العبارة فى المسرح، وكثير من الحوادث يستساغ حين يكون أوصافاً فى عبارات، ولكنه يمل ويستسخف

---

(١) الخندق الغميق: ص٣٨.

(٢) النقد الأدبى أصوله ومناهجه: ص٨٣.

حين يكون حوادث وحركات[١]". وماسبق أن قدمنا من شروط وخصائص فنية يجب توافرها فى الحوار القصصى، كل ذلك يجب توافره أيضاً فى الحوار المسرحى، وربما بصورة أعمق وأدق، لأنه أهم عنصر فى المسرحية.

والخطابية مرفوضة فى الحوار القصصى، وقد يلتمس العذر للكاتب القصصى إذا وقع فيها أحياناً، لأن قارئ القصة قد لا يشعر أحياناً بهذه الخطابية فى الحوار، بينما الخطابية فى الحوار المسرحى مرفوضة تماماً، لأن الشخصية عندئذ تبدو وكأنها تخطب فى جمهور النظارة، وهذا من أبرز عيوب المسرحية، "فالبراعة فى الحوار المسرحى تلك الجمل القصيرة التى قد تكون فى بعض الأحيان لفظاً واحداً[٢]"، بعيدة عن الطول والخطابية، لأن الخطابية حتماً تؤدى إلى الطول فى الحوار المسرحى، فيمل النظارة، وقد ينصرفون عن مشاهدة المسرحية. "فأخطر ماتتعرض له لغة المسرح أن تكون خطابية، وذلك حين يشعر القارئ أن الشخصية لا تتوجه للشخصيات المسرحية الأخرى، بل إلى المتفرجين، وكأن الكاتب ينسى عمله الفنى، ليعبر عن رأيه مباشرة لجمهوره، أو يستخلص مغزى لمسرحيته، يكره فيه الموقف على تقبل العبارة، فلا وجود للجمهور فى نظر الشخصيات المسرحية، وعلى قدر واقعية الشخصيات، يكون إحكام الحوار، دون توجه إلى مشاهدين، كما لو كانت الشخصيات تحيا حياتها فى الواقع، لا فى المسرح[٣]".

---

(١) النقد الأدبى أصوله ومناهجه: ص٨٥.

(٢) السابق: ص٨٥.

(٣) النقد الأدبى الحديث: ص٦١٣.

والحوار مهم للكاتب القصصى والكاتب المسرحى على السواء، إذ كل منهما يستخدمه فى عرض أفكاره وآرائه فى القضايا والمشكلات المختلفة، وبيان فلسفته فى الحياة، وذلك حين يجرى تلك الآراء والأفكار، ويعرض تلك الفلسفة على لسان الشخصيات فى أثناء حوارها.

فالكاتب القصصى -مثلاً- لا يستطيع أن يستخدم لغة الوصف فى عرض آرائه وأفكاره، فيلجأ إلى الحوار، لأن لغة الوصف حين يستخدمها القاص فى ذلك فإنها تكون مباشرة وصريحة، وقد يضعف هذا العمل القصصى.

والكاتب المسرحى ليس أمامه إلا وسيلة وحيدة يعرض بها آراءه وأفكاره، وهى الحوار بين شخصيات مسرحيته. وهنا يتبين مدى أهمية الحوار للكاتب القصصى والكاتب المسرحى على السواء.

قلنا سابقاً: إن الحوار القصصى ينبغى ألا يكون غنائياً، لأن ذلك يؤدى إلى المباشرة فى عرض جوانب الشخصية، ويؤدى إلى بطء المشهد أو الموقف أحياناً، وبالتالى تضعف القصة، وإذا جاء الحوار غنائياً أحياناً فى القصة، فقد يقبل هذا، لأن القارئ قد لا يتأثر بذلك كثيراً، وقد يفيده فى كشف بعض صفات الشخصية فى بعض الأحيان، كما أن القارئ قد لا يشعر ببطء المشهد أو الموقف، وعلى الجملة فإن الغنائية قد تقبل أحياناً فى الحوار القصصى، لأن القصة "تملك أن تستنفد

أربعمائة صفحة تصف لنا فيها خواطر فرد أو عدة أفـراد فقـط دون أن يأتى هذا الفرد بحركة ما[١]".

أما الحوار المسرحى فلا تقبل فيه الغنائية مطلقـاً، لا يمكـن أن يقبـل على المسرح حديث شخصية عن نفسها، عن خواطرها ومشاعرها، مـع شخصية أخرى، دون أن تأتى أى منهما بحركة، لأن المسرحية "لا تملك هذا، فلابد فيها من حركة، وحركة منظورة غالباً، والحركـة الشـعورية والذهنيـة إن لم تمثـل فـى حركـات محسوسـة تفقـد حرارتهـا، وتمـل النظارة[٢]".

"فمن الأخطار الفنية فى الحوار المسرحى كذلك أن تكـون العبـارة غنائيـة، تهبـط إلى وصـف المشـاعر الذاتيـة للشـخصية، فتفقـد القـوة الحركية، لأنها تصبح بمثابة وقف للحـدث، تنفصـل بـه الشـخصية عـن زميلاتهـا فـى الموقـف، وتفقـد الجمـل تأثيرهـا العملـى، أى وظيفتهـا الدرامية[٣]". وإذا كنـا قـد ارتضينـا الفصحـى فـى الحـوار القصصـى، ورفضنا العامية، فالحال كذلك فى الحوار المسرحى، بل يجب أن يكـون الحوار المسرحى فصيحاً، لا تتخلله ألفاظ عامية، لأنه يخـاطب الجمهـور مباشرة، ومن شأنه أن يؤثر فيهـم تأثـيراً قويـاً، فالنـاس يحفظـون الحـوار المسرحى ويرددونه كثيراً، وإذا حفظوه فصيحاً ورددوه، فإن ذلـك مـن

---

(١) النقد الأدبى أصوله ومناهجه: ص٨٥.

(٢) السابق: ص٨٥، ص٨٦.

(٣) النقد الأدبى الحديث: ص٦١٤.

شأنه أن يقوم ألسنتهم، ويهذب أذواقهم، ويجعل الفصحى تجرى على ألسنتهم سهلة، فتعود قوية كما كانت.

وإذا كنا قد اشترطنا على الكاتب القصصى أن يتميز حواره العربى بشىء من خصوصية اللغة، كالقرآن الكريم، والحديث الشريف، والمصطلحات الإسلامية، والشعر، والأمثال، والحكم، والوصايا، فالحال كذلك بالنسبة للحوار المسرحى، بل هو أكثر حاجة إلى هذه الخصوصية، لكونه يخاطب الجمهور مباشرة، فيربطه بتراثه القديم، وتراثه الحاضر، فتكون المسرحية عند ذلك أكثر تأثيراً فى الجمهور.

ومهم فى الحوار المسرحى تمايز الشخصيات، وتفرد كل منها بموقفها الخاص فى أثناء الحوار، وحالاتها الشعورية الخاصة؛ لأن الجمهور يشعر بذلك سريعاً، حيث يقف وجهاً لوجه أمام الشخصيات، ولذلك يسقط الحوار المسرحى إذا جعل الكاتب "حواره جملاً متتابعة لا تتميز بها شخصية عن أخرى، فلا تحدث أثراً، كغضب، أو إثارة، أو خصومة فكرية. وذلك أن الموقف هو الذى يجب أن يملى طبيعة الحوار، ولكل شخصية موقفها الخاص فى الموقف العام للمسرحية، فلها لغتها الخاصة التى بها تحيا فى حركة[1]".

أما فى الحوار القصصى فيختلف الأمر، إذ القارئ قد لا يشعر بانفعالات الشخصيات وحركاتها فى أثناء الحوار، ولذلك فالتمايز بين الشخصيات القصصية فى أثناء الحوار بالانفعالات المختلفة، قد يكون

---

(١) النقد الأدبى الحديث: ص٦١٣.

غير مرئى، أو غير محسوس، فلا يؤثر ذلك كثيراً فى الحوار القصصى، عكس الحوار المسرحى الذى يتأثر كثيراً بهذه الجوانب، إذ يحسها المشاهد سريعاً، والحوار القصصى وإن كان مطلوباً فيه هذا التمايز، لكنه عند غيابه قد لا يحس هذا الغياب، لأنه كلام مكتوب يقرأ لا تصاحبه انفعالات خاصة، إلا إذا أشار الكاتب إلى ذلك فى وصفه للموقف الذى دار فيه هذا الحوار، بينما الحوار المسرحى كلام ينطق ويصحب بالحركة الدالة على الحالة الشعورية للشخصية.

"فخاصة الجملة فى الحوار المسرحى أنها وضعت أصلاً لتقال، لا لتقرأ، ولهذا كانت للجملة المسرحية خصائصها المحددة بهذه الصفة، ولهذا عنى كبار كتاب المسرح العالميون بطابع صوتى تكتسب به الجمل المسرحية إيقاعاً من نوع ما، وطولاً وقصراً تتلاءم بهما فى موقعها، حتى فى المسرحيات النثرية، فليست حرية الكاتب فى خلق الجمل واسعة كسعة مؤلف القصة التى لا تنحصر وسائلها الفنية فى الحوار، بل يتدخل فيها المؤلف أحياناً بالوصف أو الحديث النفسى من غير حوار، كما أن الحوار فيها صيغ ليقرأ، لا ليقال[١]".

وفى الختام نشير إلى أننا قصدنا فى هذه العجالة التى وازنا فيها بين الحوار القصصى والحوار المسرحى، الحوار النثرى فى المسرحيات النثرية، لأنه الأقرب إلى طبيعة الحوار القصصى.

---

(١) النقد الأدبى الحديث: ص٦١٢.

المصادر والمراجع

١- الأدب وفنونه: د. عز الدين إسماعيل - دار الفكر العربى - القاهرة - الطبعة الثامنة - بدون تاريخ.

٢- الأسس الفنية للإبداع الأدبى: د. عبد العزيز شرف - الطبعة الأولى (١٤١٣هـ/١٩٩٣م) - دار الجيل - بيروت.

٣- الإسلامية والروحية فى أدب نجيب محفوظ: د. محمد حسن عبد الله - مكتبة مصر ١٩٧٨م.

٤- الأمثال العربية - دراسة تاريخية تحليلية: د. عبد المجيد قطامش - الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) - دار الفكر - دمشق - سورية.

٥- بانوراما الرواية العربية الحديثة: د. سيد حامد النساج - ط٢ - مكتبة غريب - القاهرة.

٦- البلاغة والتحليل الأدبى: أحمد أبو حاقة - دار العلم للملايين - بيروت - ط١ - ١٩٨٨م.

٧- بناء الرواية - (إدوين موير): ترجمة إبراهيم الصيرفى - مراجعة د. عبد القادر القط - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر - الدار المصرية للتأليف والترجمة - دار الجيل للطباعة.

٨- بناء الرواية: د. عبد الفتاح عثمان - مطبعة التقدم - القاهرة - (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).

٩- جمهرة الأمثال: أبو هلال العسكرى - ضبطه وكتب حواشيه وصنفه د. أحمد عبد السلام - ج١ - الطبعة الأولى ١٩٨٨م - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

١٠- دراسات فى القصة العربية الحديثة: د. محمد زغلول سلام - منشأة المعارف بالأسكندرية - ١٩٨٧م.

١١- دراسات نقدية فى الأدب المعاصر: مصطفى السحرتى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٩م.

١٢- الرحل والقمة - بحوث ودراسات: اختيار وتصنيف فاضل الأسود - ج١ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٩م.

١٣- الروائيون الثلاثة: يوسف الشارونى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٠م.

١٤- رحلتى مع الأدب الإسلامي: د. نجيب الكيلانى - بقلم د. ماهر حتحوت - مؤسسة الرسالة (١٤٠٦هـ/١٩٨٥م) - بقلم د. محمود صفى كساب - مجلة الأمة - قطر - العدد ٢٧ - يناير ١٩٨٣م - ربيع أول ١٤٠٣هـ.

١٥- الشخصية وأثرها فى البناء الفنى لروايات نجيّب محفوظ: د. نصر محمد عباس - عكاظ للنشر والتوزيع - الطبعة الأولى (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

١٦- الطيب الصالح عبقرى الرواية العربية: عثمان حسن أحمد - إعداد مجموعة من الكتاب العرب - طبع فى ١٩٨٤/١١/١.

١٧- عالم القصة (برناردى فوتو): ترجمة د. محمد مصطفى هدارة - عالم الكتب - القاهرة - مطبعة الاستقلال الكبرى - القاهرة - ١٩٦٩م.

١٨- فن القصة: د. محمد يوسف نجم - دار الثقافة - بيروت - لبنان.

١٩- الفن القصصى بين جيلى طه حسين ونجيب محفوظ: د. يوسف نوفل - دار القلم للنشر والتوزيع - دبى - الطبعة الأولى (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

٢٠- فن كتابة الرواية (ديان دوات فاير): ترجمة د. عبد الستار جواد - مراجعة عبد الوهاب الوكيل - دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد - الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

٢١- فن كتابة القصة: حسين القبانى - ط٣ ١٩٧٩م - دار الجيل - بيروت.

٢٢- فى الأدب العربى المعاصر: ج١ - د. إبراهيم عوضين - مطبعة السعادة القاهرة - الطبعة الأولى (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م).

٢٣- فى الأدب وفنونه: على بو ملحم - المطبعة العصرية للطباعة والنشر - صيدا - لبنان - ١٩٧٠م.

٢٤- فى الشعر والنثر: د. حسن محسن - مطبعة الأمانة بالقاهرة - نشر مكتبة الفلاح بالكويت - الطابعة الأولى (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

٢٥- فى الفكر الإسلامى: مجموعة من الكتاب (١٤١٢هـ/١٩٩١م).

٢٦- فى النقد الأدبى: د. شوقى ضيف - دار المعارف - الطبعة السابعة.

٢٧- القصة فى الأدب العربى وبحوث أخرى: محمود تيمور. منشورات المكتبة العصرية - لبنان.

٢٨- القصة من خلال تجاربى الذاتية: عبد الحميد جودة السحار - دار مصر للطباعة.

٢٩- القصة والرواية: د. عزيزة مريدن - دار الفكر - دمشق (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م).

٣٠- قضايا النقد الأدبى الحديث: د. محمد السعدى فرهود - مطبعة زهران - القاهرة - الطبعة الأولى (١٣٨٨هـ/١٩٦٨م).

٣١- النقد الأدبى أصوله ومناهجه: سيد قطب - الطبعة الرابعة (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) - دار الشروق - بيروت - القاهرة - الطبعة الخامسة (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) - دار الشروق - بيروت - القاهرة.

٣٢- النقد الأدبي الحديث: د. محمد غنيمى هلال - نهضة مصر - القاهرة.

٣٣- نماذج من الرواية المصرية: يوسف الشارونى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٧٧م.

القصص

١- الباحث عن الحقيقة: محمد عبد الحليم عبد الله - مكتبة مصر.

٢- بان الصبح: الكاتب الجزائرى عبد الحميد بن هدوقة - ط٣ - ١٩٩١م - دار الآداب - بيروت.

٣- بير الشوم: الكاتب الفلسطينى فيصل حورانى - ط١ - ١٩٧٩م - دار الكلمة للنشر - بيروت - لبنان.

٤- ثرثرة فوق النيل: نجيب محفوظ - مكتبة مصر - ط١ - ١٩٦٦م.

٥- الخندق الغميق: للكاتب اللبنانى سهيل إدريس - ط٣ - ١٩٧٧م - دار الآداب - بيروت.

٦- دفنا الماضى: للكاتب الغربى عبد الكريم غلاب - ط٢ - ١٩٧٤م - دار الثقافة - الرباط.

٧- السهول البيض: عبد الحميد جودة السحار: مكتبة مصر - الطبعة الأولى ١٩٦٥م.

٨- طريق العودة: يوسف السباعى - ط١ - ١٩٥٦م - مطبوعات لجنة النشر للجامعيين.

٩- عرس الزين: الكاتب السودانى الطيب الصالح - دار العودة - بيروت - ١٩٨٨م.

١٠- الفلاح: عبد الرحمن الشرقاوى - عالم الكتب - ط١ - ١٩٦٨م.

١١- قاتل حمزة: نجيب الكيلانى - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة التاسعة ١٤٠٥هـ.

١٢- اللص والكلاب: نجيب محفوظ - مكتبة مصر - ط١ - ١٩٦١م.

١٣- المنبت: الكاتب التونسى عبد المجيد عطية - الشركة التونسية للتوزيع ١٩٨٣م.

١٤- المنعرج: للكاتب التونسى مصطفى الفارسى - الدار التونسية للنشر - ط٨ - ١٩٨٦م.

علاج النفس

نظرات فنية ونقدية

للدكتور

عصام محمد علي إسماعيل ندا

مدرس الأدب والنقد بالكلية

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عــــلاج النفـــس ﴾ للمويلحى
نظرات فنية ونقدية

لم يقف محمد المويلحى (١) فى إبداعه الأدبى عند رواية (حديث عيسى بن هشام) التى شاعت وملأت الآفاق ، وإنما قدم العديد من المقالات الأدبية المتنوعة التى تناولت الكثير من شئون الحياة العربية والإسلامية ، مما يوجب علينا التعرف

(١) ولد محمد بن إبراهيم بن السيد عبد الخالق المويلحى فى القاهرة سنة ١٨٥٨ م ، وتربى فى كنف أسرة عريقة شريفة من أهل الثراء والعلم والدين .. وقد شمله أبوه برعايته الدينية والعلمية والأدبية ، ومكنه من الجمع بين العلوم الحديثة ، كالرياضيات والكيمياء ... وبين علوم الأزهر الشريف ، كاللغة العربية والشريعة الإسلامية . كما كان يختلف إلى دروس جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده ، فورث عنهما الروح الوطنية الإسلامية الثائرة ... مما أتاح له العديد من مصادر المعرفة والثقافة ، وأسهم فى تربية عقله ووجدانه إسلاميا وعربيا . وقد شهدت حياة الكاتب العديد من الصراعات المختلفة ، نتيجة ثوريته واعتزازه بنفسه ، مما دفعه إلى كتابة روايته (حديث عيسى بن هشام) فى حلقات متتابعة ، ثم جمعها وقدمها فى كتاب مستقل سنة ١٩٠٦م ، مواجها بها الكثير من العيوب الاجتماعية والمساوىء الأخلاقية التى شاعت فى المجتمع المصرى والإسلامى آنذاك ، والتى دفعته إلى العزلة ، متأثرا بأستاذه أبى العلاء المعرى .

ولم يقف المويلحى عند هذا الحد ، وإنما نشر العديد من المقالات ذات الأبعاد الإسلامية الأخلاقية المختلفة ، التي تحث الإنسان على تهذيب نفسه والارتقاء بها من النقائص ، وقد جمع منها ثمانى مقالات فى كتاب أسماه (علاج النفس) .

ومما تجدر الإشارة إليه أن حياة المويلحى شهدت العديد من الرحلات المختلفة خارج مصر ، مما أكسبه العديد من اللغات الأجنبية ، كالإيطالية ، والفرنسية ، والإنجليزية ، والتركية ... فتمكن من الاطلاع على الفكر الغربى وآدابه . ولكنه على الرغم من ذلك ظل محافظا شديد المحافظة على اللغة العربية والقيم الإسلامية التى نشأ فى كنفها ، مناهضا بمؤلفاته ومقالاته الغزو الاستعمارى الغربى على العربية والإسلام .

وظل الأديب الكبير يتأمل فى الحياة والأحياء ، ويعالج العديد من المشكلات الاجتماعية والعيوب الأخلاقية ، حتى توفى سنة ١٩٣٠ م

انظر ذلك بالتفصيل فى : الأدب العربى المعاصر فى مصر ، للدكتور شوقى ضيف ص ٢٣٤ ـ ٢٣٦ ، وأسرة المويلحى وأثرها فى الأدب العربى الحديث ، للدكتور يوسف راميتش ص ٩١ ـ ١٠٣ وتاريخ الأدب العربى فى العصر الحاضر، للدكتور / ابراهيم على أبو خشب ص ٢٧٧ ـ ٢٨٢ ، والمويلحى الصغير ـ حياته وأدبه ، للأستاذ عبد اللاه عبد المطلب أحمد ص ١٧ ـ ٤٩ .

عليها مضمونيا وفنيا ، لاسيما أنها لم تنل حقها من البحث والدراسة (١) .

أولا ـ عرض المحتوى المضمونى

الناظر فى المقالات التي جمعها الكاتب فى كتابه تحت عنوان : (علاج النفس) ، يتبين أنها جميعا مقالات أدبية ، أخلاقية ، تربوية ، إنسانية ، فلسفية ، تبرز تجاربه الذاتية فى هذه المناحى جميعها ، وتدور حول تهذيب النفس ورياضتها ، وحثها على استكمال حاجتها من الأخلاق الفاضلة والتربية القومية ، حتى تتسنى لها أسباب السعادة المنشودة .

وقد صدر المويلحى هذا الكتاب بمقدمة بليغية تكشف عن براعته الأدبية ، وتعلن عن نزعته الإنسانية الإصلاحية ، وتجسد كذلك اتساع ثقافته وكثرة تجاربه مع تواضعه الإسلامي ، وأمانته العلمية ، كما تبين مصادره فى هذه المقالات ، وغرضه من ورائها .. مما جعلنا نحرص على وضع تلك المقدمة بين يدى القارىء ... حيث قال :

« هذه رسالات فى الأخلاق ، لعلاج النفس ، وطيب العيش ، حتى تتسنى لها سعادة الحياة . لم ننشئها من لدنا إنشاء ، ولم نبتدعها من عندنا ابتداعا ، وإنما هى ضوء مقتبس اقتباس انقطاعنا إلى المطالعات فى كتب الأوائل والأواخر من شرقيين وغربيين ، وثمرة مجنية من مشاهدات الزمن ، وتجارب الأيام ، مما جعلناه لنفسنا درسا فى تقويم النفس ، عسى الله أن يكون قد نفعنا بها شيئا قليلا ، والقليل فى شفاء النفس كثير ، ولا فضل لنا فيها إلا مثل فضل النحل ، تجنى من أثمار الأشجار ، وأكمام الأزهار ، ما تحوله فى بطونها ، وتمجه للناس شهدا جنيا فيه شفاء للصدور ،

---

١ ـ لقد تناول بعض الدراسين هذه المقالات فى إيجاز غير كاف فى ميدان البحث ، ومن بينهم : الدكتور يوسف راميتش فى كتابه : (أسرة المويلحى وأثرها فى الأدب العربى الحديث) صـ ٢٧٦ ـ ٢٩٦ ، والدكتور محمد رجب البيومى فى كتابه : (دراسات أدبية) ص ٥ ـ ١٨ ، والاستاذ عبد اللاه عبد المطلب أحمد فى كتابه : (المويلحى الصغير ـ حياة وأدبه) ص ٣٣٩ ـ ٣٥٠ .

ونحن نعرضها اليوم على أعين الناس عسى أن ينتفعوا إن شاء الله منها بالشيء الكثير، وليس تقديمنا إياها لهم فى منزلة أوامر الطبيب للمريض ، بل فى منزلة دواء مجرب من مريض إلى مريض ، ومن عاجز مستزيد إلى طالب مستفيد) (١) .

والمتأمل فى الكتاب يلاحظ أن مضمون كل مقال قسم الكتاب فصولا ، يكمل بتمامها تصوير النفس البشرية في عللها ، ومنشأ هذه العلل ، والوسائل التى تقى الإنسان الوقوع فيها ، وتعالجه منها إذا أصيب بها ... وذلك على النحو التالى :

١ـ (بساطة الفلسفة) (٢):

فى مقاله (بساطة الفلسفة) ،صدر الكاتب كلامه بمقدمة تحدث فيها عما حدث للفلسفة من غموض وتعقيد ، والتواء ، أدى إلى سوء الظن بها، فاستغلها أصحاب الأهواء فى تزييف الأمور وقلب الحقائق .. فقال :

« وقع للحكمة والفلسفة بيننا ما وقع لسائر العلوم من الغموض والإبهام ، والحشو والتعقيد ، والزيادة والنقصان ، واختفاء المتون تحت كثافة الشروح ، فإذا جرى ذكر الفلسفة بين الناس يوما عدوها من العلوم الزائدة التى يشتغل بها بعض أفراد يختصون بها دون عامة الناس ، ثم اختلفوا فى ماهيتها ، فمنهم من يراها أصلا يتفرع عنه الإلحاد والزندقة ، ومنهم من يعتبرها آلة للشك وطريقة عوجاء سوفسطائية ، يقلب المشتغلون بها الحق باطلا ، والباطل حقا ، كما يشتهون ، بسعة احتيالهم فى صناعة البرهان) (٣) .

ثم نهض يبرىء الفلسفة مما وقع عليها ، مبينا أنها بمنأى عن هذه الآراء ، وأنها تهدى الإنسان إلى سعادته المنشودة إذا سلك نظامها ، ومشيرا إلى أنها ليست مقصورة على

---

(١) علاج النفس ص ٧ .
(٢) السابق ص ٨ ـ ٣٠ .
(٣) السابق صـ ٨ .

إنسان دون آخر ، لأنها متواجدة فى داخل كل إنسان ... فقال :

« والحقيقة أنها ليست فى شيء مما قرت عليه ظنون الناس وأوهامهم فيها ، وأنها هى العلم الواضح والنور الساطع ، الذى يهتدى به الإنسان إلى سعادته ويسترشد إلى جمال النظام فى العمران، وهو علم عام لا تختص به فئة دون فئة ، وفى قدرة كل إنسان أن يتناوله ويأخذ بأحكامه ، وإن فى نفس كل امرىء لقبسا من الفلسفة وإن لم يكن فيلسوفا ، كما إن فى نفس كل إنسان خيالا من الشعر ، وإن لم يكن شاعرا [١]) .

وانتقل المويلحى بعد ذلك يقسم الفلسفة إلى ثلاثة اتجاهات رئيسية ، هى : علم الآلهيات ، وعلم الطبيعيات والرياضيات ، وعلم الأخلاق .. مبينا أن علم الآلهيات خاص بالدين ، وأن علم الطبيعيات والرياضيات شائع ومعروف ... ثم جعل يفصل القول فى الحديث عن علم الأخلاق ، مبينا أنه أهم هذه الأقسام ، لأنه سياسة النفس ورياضتها على الفضيلة .

ثم استدل على ما ذهب إليه بعرض جانب من حياة شيخ الفلاسفة سقراط ، وضرب لنا أمثلة تدل على عدله وشجاعته وثباته فى الدفاع عن الحق ، فلم يهتز أمام الضغوط والمصاعب ، ومبنيا أنه ما كان كذلك إلا لأنه قصر همه على علم الأخلاق ، مما جعله متوازنا مع نفسه فى كافة أمور حياته ، حتى أصبح مصدرا يشع بالفضيلة للإنسانية جمعاء ، واستقى من فكره العديد من الفلاسفة والمفكرين .

وراح بعد ذلك يتتبع آراء بعض الفلاسفة الذين تأثروا بسقراط ... مبينا أنهم جميعا ذهبوا مذاهب شتي حول أسباب سعادة الإنسان ، ولكنهم اجتمعوا ـ فى أغلبهم ـ على أن الفضيلة هى التى تؤدى إلى هذه الغاية .

ويخلص الكاتب من ذلك ليبين أن الفلسفة على هذا النحو هى التى تهدى إلى

---

(١) علاج النفس ص ٨ .

السعادة واليقين فى بساطة ووضوح ، دون تعقيد وإبهام وشوائب الجدل ، التى عمد إليها المشتغلون بعلم المنطق ، واعتبروه أساسا لها ، .. مبينا أن المنطق لا يعدو كونه آلة من بعض آلات الفلسفة لميزان القول والفكر ، كما يصنع النحو فى اللغة .. ثم أخذ يتحدث عن المنطق، ليؤكد أنه لا يفيد الغرض المقصود من الفلسفة ، وهو تثقيف الأخلاق وتهذيب الطباع ، ليصل الإنسان إلى السعادة المنشودة فى حياته وموته .

وأخذ الكاتب بعد ذلك يتحدث عن الفضيلة ودعائمها الأربعة ، : العقل ، والعفة ، والشجاعة ، والعدالة ... مشيرا إلى مفاهيم كل منها ، ومبينا أن الله سبحانه وتعالى وضع بذورها فى فطرة كل إنسان ، ولكن الإنسان هو الذى انحرف عن فطرته واستسلم لأسباب الرذيلة .

ثم ختم مقاله موجزا ما قدمه ، ومذكرا بأن علم الأخلاق هو بذاته المقصود من الفلسفة ، وأن أصول هذا العلم قديمة فى العالم ، اهتدت إليه منذ الزمن الأول فلاسفة الهند ، والصين ، واليونان ، والرومان . ثم أشار إلى أنه اختص فلاسفة اليونان بالذكر ، لأنهم المصدر الأول الذى استقى منه فلاسفة الرومان ، ومن بعدهم فلاسفة أوربا فى العصور المتأخرة إلى يومنا هذا . ثم بين إجماع الفلاسفة على أن من محاسن الأخلاق لا تأتى إلا من طريق الفضيلة ، وأن السعادة لا تنال إلا برياضة النفس وتهذيبها ، وأنه لابد على الإنسان أن يرتد إلى حكم الطبيعة ـ التى انحرف عنها ـ وأن يبحث ويفكر ، ويحكم عقله ، ويشحذ إرادته ، ويقلب القوة الحاكمة على القوة الواهمة ، ويروض نفسه على أحكام الفضيلة ، ويوطن نفسه على مصارعة الخطوب ، ومنازلة النوازل .. مما يجعله على حال واحد وموقف واحد تجاه المتغيرات والمتناقضات .

وفى خاتمته أخذ يبصر بكفيه معالجة النفس ، مبينا ضرورة تعرفها على حقيقة الأشياء ، حتى تميز بين الفضائل والرزائل ، ومشيرا إلى أن الأسلوب التصويرى في

معالجة النفس أجدى من الأسلوب التقريرى الوعظى .. حيث قال موجها :

« فالذى يتعين علينا إذن أن نرفع عن النفس أوهامها وأباطيلها ، وأن نبين لها حقيقة الأشياء ، وأن نرفع عنها غشاء الأهواء وندفع عنها عدوان الرغبات والشهوات ، ونكشف عن عوامل الرذيلة التى عارضت الفضيلة ، فنشرح أسواءها وأدواءها ، ونصور بشاعتها وفظاعتها ، ونبسط أضرارها وشرورها ، حتى تعافها النفس وتستنكفها وتبتعد عنها ، وتنفر منها ، فتطهر من الأدناس والأرجاس وتبدو بذور الفضيلة ، ويربو غرسها .. وهذه الطريقة فى رأينا أدخل على النفس ، وأفعل بها من طريقة مدح الفضيلة وتزيينها وتبيين محاسنها كما جرى عليه السلف ، فلو أنك كررت على الإنسان فى كل يوم أن الخير أحسن من الشر ، والحلم أفضل من الغضب ، والصدق خير من الكذب ، لأقرك على ذلك كله ، ولكن طول التكرار لهذه الألفاظ ، لا يترك فى نفسه إلا صورها مجردة دون معانيها ، مثل ألفاظ الوعظ فى خطب المنابر يسمعها ولا يدرك العمل بها .... (١) » .

والكاتب بذلك المنهج التعبيرى ينبه إلى أنه يسلك المسلك القرآنى الذى يؤثر لكل موقف ما يناسبه من أسلوب البيان ، على الحد الذى أبرزه الباحثون البلاغيون فى قولهم : لكل مقام مقال . ويؤكد أن الموضوع فى ذاته لا يملى على الأديب لون الأسلوب ، ولكن الذى يملى لون الأسلوب هو المخاطب بذلك الموضوع . وهذا هو منهج الأديب الإنسان الذى يرعى الإنسان فيما يكتب ، وليس هو المستلم لسلطان العقل وحده ، الخاضع لما سبق إليه من مناهج بيانية ... كما وقع فيه كثيرون فمن تعرضوا للموضوعات الفكرية ، فلم يتنبهوا إلى الغاية منها ـ وهو الإنسان ـ ولكنهم أسلسوا القياد لما يفرضه العقل وجدله .

---

(١) علاج النفس صـ ٢٩ ، ٣٠ .

فالكاتب يريد من الفلسفة تعمق الباحث فى الموضوع ، مع تقديمه فى هيئة فنية تقوم على التصوير المشخص ، والبيان المجسم ، بحيث ينهض المتلقى للأخذ به والتمرس عليه .

* * *

٢ـ (الغضب)[٢] :

وفى مقالة (الغضب) ، استهل المويلحى كلامه بحديث عام يوضح مدى خطورة الغضب على الفرد والمجتمع ، ويبين أنه أصل الرزائل ، ومصدر النوائب ، وقد استدل على ذلك بالعديد من الأخبار والأقوال المأثورة المختلفة ...

ثم أخذ يبين ـ بأسلوب منطقى ـ أن الغضب ليس من لوازم الطبيعة البشرية ، كما أن الحكمة تقتضى أن الغضب لا يستعان به فى أى أمر من أمور الحياة ... وراح يتعقب العديد من الآراء الفلسفية ـ فى أكثر من موضوع ـ التى ذهبت إلى أن الغضب له مواضع يجب أن يستعمل جزء منه فيها ، وأن صاحب الفضيلة يغضب للرذيلة ، وأن فى الغضب ارتياحا لمقابلة الشر ، وأن من الغضب ما يدل على الشهامة وعظم النفس

.ثم نهض يفند تلك الآراء ـ على اختلاف مواضعها ـ مستعينا بآراء بعض الفلاسفة ، ومبنيا أن الغضب شر ، وأن الفرار من الشر أيسر من القدرة عليه بعد الوقوع فيه ، وأنه ليس من الفضائل أن تستعين بالرزائل ، أو تستند عليها ..وذلك قوله :

« وإن قلت إن للغضب ضرورة فى ساحة القتال ، قلت لك إن جاز أن تستند إليه الضرورة ، فضرورته أبعد ما تكون عن القتال ، لأنه لا يلزم للقتال حدة عمياء ، بل الذى يلزم له شجاعة مهذبة بالنظام والتثقيف . أليس الغضب هو الذى يجعل المحاربين المتوحشين ، أولى القوة فى الجسم ، والصبر على النزال ، أحط درجات فى ميدان الحرب ، أمام الجيوش المنظمة المدربة ، وأكثر إلقاء بأيديهم إلى التهلكة ، وثقافة

---

(١) علاج النفس صـ ٣١ ـ ٩٨

لمصارع تقيه ، وغضبه يرديه ، فما ضرورة الغضب إذن لأمر ينال بالعقل والتدبير ؟! أترى أن القانص الذى يرصد قنيصته ليصيبها ، أو يعدو وراءها ليصيدها ، يكون به شئ من الغضب عليها يساعده على اقتناصها ؟! كلا ـ كذلك المقاتل لا يحتاج إلى شئ من الغضب يساعده على القتال ، فالعقل وحده هو الذى يهديه ، والغضب بعيد عن الهدى .... (١)) .

وقد علق الأستاذ الدكتور رجب البيومى على هذا الرأى مخالفا ما ذهب إليه المويلحى ـ فقال :

« وهذا كلام له وجاهته دون شك ، وكنى أميل إلى مخالفته ، لأن المفروض فى الحرب المشروعة التى تؤيدها قوانين الأخلاق الفاضلة ، أن تكون مدعاة لإصلاح فساد ، وسببا فى ردع الاعتداء فإذا غضب المحارب الشريف لانتهاك الحرمات ، كان ذلك داعيا له إلى الاستبسال ، وكان مبدؤه الخلقى مثار حمية نبيلة وغضبة شريفة ، ولعلى قرأت فى بعض الآثار هذه الحكمة التى تقول :،« من استغضب فلم يغضب فهو جبان »، فالغضب مشروع فى مواقف الاستبسال ورد العدوان ، وإذا اعتل المويلحى بأن نداء الواجب وحده يقوم أكبر مقام فى إثارة الاستبسال ، فإن نقول له : إن النفس البشرية ذات آلات دقيقة تفرز المشاعر والأحاسيس تلقائيا ، فإذا بعثت هذه المشاعر ثوائر الغضب فى موقفه الصادق ، فقد ساعدت صاحبها على الجرأة والاقتحام ، والمؤمنون يستعيذون بالله من غضبه وانتقامه ، فإذا جاز أن يسند الغضب للرءوف الرحيم فهو مما يجوز أن يسند لقوم يتخلقون بأخلاق الله وهم المؤمنون (٢)) .

والمتأمل فى موقف الكاتبين الكبيرين يتبين أن الفارق بين المثالية والواقعية ، هو مصدر الاختلاف بينهما ، إذا إن كل منهما له رؤيته الخاصة فى طبيعة الأمور

---

(١) علاج النفس صـ ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) دراسات أدبية ص ١٥ .

والأحوال الإنسانية ـ فالمويلحى يعالج الإنسان من منظوره المثالى ، الذى ينشد الكمال ، والذى قد يصعب تحققه ، على الرغم من الحاحه فى تأكيد إمكانية حدوثه .
أما الدكتور رجب البيومى ، فيرى سلوكيات الإنسان ويلمس مشاعره وانفعلاته من المنظور الواقعى ، المتلائم مع محدوديته ، دون أن يتعارض ذلك مع ضرورة تمسك الإنسان بأسباب الفضيلة .

ومن هذا المنطلق يواصل المويلحى كلامه مبينا أن الإنسان الكامل لا يستفزه الغضب ولا يتأثر بالإساءة ، ولا يشعر بالانتقام .. ثم يسترسل فى عرض بعض الرذائل والشرور التى تعم البشرية ، مما يعنى استحالة أن يغضب العاقل على قدرها ، وإلا تحولت حياته إلى شقاء وجحيم ، مما يتنافى مع لوازم الفضيلة ، التى من أخصها سعادة الإنسانية ، وداوم ارتياحها ، بعيدا عن الصراعات والاضطرابات ... فيقول فى ذلك :

(والنفس العظيمة التى تعرف قدرها وتدرك كرامتها ، لا تتأثر من الإساءة ولا تكاد تحسها ، فالانتقام مفقود لديها ، لأن ما لا يحس لا ينتقم له . والنفس العظيمة تشبه الصخرة الصماء ، لا يؤثر فيها ما ترميها به من الحصباء ، وكالمجن يرد السهم مكسورا والسيف مفلولا . والحوادث وإن هى عظمت ، لا تحرك النفوس العظيمة ، لأنها فوق الحوادث والخطوب ، فما أبعدها عن ملامستها ، وأنآها عن تأثيرها. وما يتأثر إلا النفوس الضعيفة [1] .....) .

وهنا يعقب الدكتور رجب البيومى على ذلك تعقيبا موفقا ، يؤكد فيه واقعيته ، ويبرز مثالية المويلحى الأخلاقية ، التى يصعب تحقيقها عند عامة البشر ، بقوله :

(كدت أقول للمويلحى أن ما يطلبه يفوق طبيعة البشر جميعا ، ولكننى وجدت أن إطلاقه العام هنا يدعو إلى الشطط . ففى النفوس أفذاذ سمت عن شهوة

---

(١) علاج النفس صـ ٩٠ .

لانتقام ، فارتقت إلى ما يريد الكاتب الأخلاقى الكبير ، بدليل أن الله عز وجل ند نظر إلى العامة حين قال : « ولمن انتصر بعد ظلمة ، فأولئك ما عليهم من سبيل [١] » ثم نظر الى الخاصة حين قال : « ولمن صبر وغفر ، إن ذلك لمن عزم لأمــور [٢] » . فالمويلحى هنا فى قوله الكلامى وفى سلوكه الفعلى من ذوى العزم ([٣]) .

ويعمل الكاتب على إقناع متلقيه بما يرى ، فيذكر أن الغضب يحدث فى النفس بإرادتها ، وأنه ليس من الحركات الطبعية القسرية ، التى هى فوق إرادة الإنسان ، مثل حمرة الخجل ، وصفرة الوجل ، وإنما الغضب يصدر عن باعث من الفكر حصلت به الإرادة ، مما يمكن العقل من تلطيفه أو صرفه .

ثم جعل يرد ـ فى مواضع مختلفة ـ على من يرى أن الإنسان ليس فى طاقته أن يدفع الغضب عن نفسه ، ويطهرها منه تطهيرا ... مبينا أن الإنسان ـ أى إنسان ، يتساوى فى ذلك العقلاء والحكماء وسواهم من بنى البشر ـ فى مقدرته بقوة إرادته وثبات عزيمته ، أن يتغلب على الغضب بمداومة تهذيب نفسه وتثقيفها ، مشيرا إلى أن الإنسان قد تغلب على العديد من التحديات الصعبة ، التى جعلها اختبارا لقوة إرادته .وذلك مثل من يمتنع عن الطعام الأيام والأسابيع ، ومثل من يحمل الأثقال التى تنوء بها العصبة ، أو القوة ، ومثل من يطوى البسيطة مشياً على الأقدام ، ومثل من يغوص إلى قاع البحر فيبقى ممتنعا عن التنفس تحت اللجة زمنا يبحث عن الأصداف ... إلى غير ذلك من الأعمال التى يطول الاستشهاد بها فى قوة الإرادة ، وثبات العزيمة ، مع طول الممارسة ، ودوام الرياضة .

ويأخذ الكاتب ـ من جهة أخرى ـ فى تبيان أن الغضب يرجع إلى عوارض طارئة ، مثل المرض ، وضعف البنية ، والانهماك فى العمل ، ومداومة السهر ، والشعور

---

(١)، (٢) سورة الشورى ، الآية ٤١ ، ٤٢ . (٤) دراسات أدبية ص ١٢ .

بالإهانة ، واشتغال البال بالمطامع والمطالب ... إلى غير ذلك مما ينشىء فى الأعماق صراعا بين الجسم والنفس ، ويكون كالبذور للغضب . ثم يأتى بعد ذلك استعداد الإنسان وتعوده على الغضب ، مما يساعد على نمو تلك البذور .

ولا يقف المويلحى عند تلك الحدود ، ولكنه يؤكد أنه لم ينشغل عن غايته من الكتابة ، وأن مقاصده التهذيبية ماثلة أمام عينيه . فينتقل من ذلك إلى تقديم كيفية مواجهة الغضب ومعالجة النفس من آثاره ـ فى مواضع متباينة ذات صفحات عديدة ـ مبينا ضرورة إصلاح الجسم مما أفسده أولا . ثم يكشف عن حاجة الإنسان إلى التأنى فى الحكم على الأشياء ، سواء كانت منقولة أو مسموعة أو مرئية ، وألا يكون شديد التطلع إلى ما يقال عنه ، وأن ينأى بنفسه عن سوء الظن والتوهم ، وأن يبادر فى التماس الأعذار لمن أساء إليه ، ويتذكر له يدا فى المعروف ، وأن يترفع عن الانتقام ، وألا ينسى ما يعقب العفو والحلم من حسن السمعة وجميل الشهرة ، وأن ينظر إلى الأمور نظرة الإنصاف فى نفسه ، وألا ينفعل أمام ما لا يستحق من الأمور التافهة الواهية ، أو مما ليس من شأنه أن تصدر عنه الإهانة ، لخلوه من الارادة ، مثل الأطفال ، والحيوانات ، والجماد . وأن يتحمل الإساءة من ذوى السلطان بالصبر والقبول ، وألا يغرق نفسه فى مساعى الحياة ويقتحم بها مجاهل المطامع وفيا فى الأمانى والآمال ، مما يكثر همها ويكدر صفوها ، فيجد الغضب وقودا لضرامة فى الصدر ، وإنما عليه حسن الاكتفاء فى المعيشة ، والرضا والقناعة بالواقع ، وعليه أن ينتقى صاحبه وقرينه ، وأن يخفف عن نفسه من الاشتغال بالعلوم المجردة ، وأن يجنب التنازع والتخاصم ، وأن يتصور ما تكون عليه هيئة الغضبان من صفات قبيحة ومنفرة ، وأن يتعهد بدنه بالعناية والراحة والنظافة والرياضة ، وأن لا يقدم على أمر ما فى غضبه ، وإنما عليه أن ينتظر حتى يسكن الغضب ، مما يمكنه من تمييز الصواب من الخطأ ، وأن

يصرف همه كله إلى رياضة نفسه على مصارعة غضبه ومغالبته عند أول نشأته قبل أن يشب ويضطرم ، فيستعصى علاجه .

وبعد أن يقدم الكاتب العديد من الوسائل التى تمكن الإنسان من معالجة نفسه وإبرائها من الغضب وأسبابه وآثاره . يأخذ فى الكشف عن النفوس التى يستهويها الحدث إلى دائرة الغضب المشتط ، فيذكر أن النفوس الضعيفة هى التى تتأثر بالمواقف والحوادث ، مستدلا فى ذلك على ما تراه فى وجوه بعض الصائمين فى شهر رمضان من التقطيب والعبوس ، وسرعة الانفعال ، مما أضاع عليهم شرف تلك العبادة ، وبدد أسبابها - ثم فند الرأى القائل بحدة طباع أهل البيت الشريف ، مستدلا على ذلك بأن النبى صلى الله عليه وسلم تحمل من الأذى ما لم يتحمله بشر ، دون أن يتملكه من الغضب ما يطيش معه حلمه .

ثم ختم المويلحى مقاله المستفيض موجزا ما قدمه فى تحذيره من خطورة الغضب ، وكيفية مواجهته ، ومبينا أنه ينبغى على الإنسان أن يسعى إلى أسباب السعادة ، المتمثلة فى تهذيب النفس ، وأن ينأى بنفسه عن أسباب الشقاء المتمثلة فى الغضب والحقد والكراهية والانتقام ، فيحافظ بذلك على عمره الذى وهبه الله له ، إذا إن زمن العمر لا يقاس بالأيام والسنين ، وإنما بالسعادة المنشودة فى عالم الفضيلة .

* * *

٣- (ساعات الحياة)[١] :

استهل الكاتب مقاله (ساعات الحياة) ، بمقدمة طويلة ، تناول فيها ضرورة استغلال الحياة وزمن العمر فيما ينفع ، بعيدا عن الشقاء والعبث ، والنزاع والخصام ، والحسد والطمع ، حتى لا يحمل نفسه على الأسف والندم ... وأشار إلى أن الحياة تصبح ممتدة طويلة إذا استغل الإنسان أوقات عمره فيما ينبغى . أما إذا أضاعها فى الرذائل ، ناسيا الموت ، فإنها تصبح قصيرة سريعة الزوال ، لا قيمة لها ... ثم ...

---

(١) علاج النفس ص ٩٩ - ١٢٨ .

يتعجب ، من حرص الإنسان على الأشياء التافهة الفانية ، التي يمكن تعويضها إذا فقدها ، وفي الوقت نفسه يبدد الزمن الذي لا يمكن تعويضه دون أن يعرف قيمته إلا عند دنو الأجل ... فقال في ذلك متهكما ومتعجبا :

« ... وأغرب كل غريب في أعمال الإنسان ، أنه يحرص على الأشياء التفهة التي يقدر على تعويضها إذا فقدها ، ويقوم بشكر من يحتفظ له بها ، ولا يعتني بالزمن الذي لا يعوضه شيء في الدنيا ، بل ربما شكر من أضاعه معه ، ثم نراه كالأسد يكاد يفترس من تعدى على بعض ما يملكه ، ونراه يرضى عمن تعدى على أوقاته بالسلب .

ولن تجد إنسانا يقدر أن يقول لك أنه استعمل جميع أوقاته فيما ينبغي ، وأنه لم يخسر في حياته وقتا ما ، وأحزم الناس من يدرك أنه يخسر أوقاته ، لأن السواد الأعظم منهم يخسرون أوقاتهم ، ويدركون أنهم يخسرونها ، ولا يحسون هذه الخسارة ، إلا وقت الحاجة إليها عند دنو الأجل ...) [١] .

وينتقل الكاتب من ذلك ليقدم مثالا لمن يغفلون عن قيمة الحياة ويبددونها مقابل أغراض فانية ، ويوضح هذا من سلوك ذوي السلطان والثراء والمناصب ، ليقرر أنهم أشقى أهل الدنيا ، نظرا لانغماسهم في الأعمال الجادة أو اللاهية ، دون أن يتدبروا حقيقة الحياة وحتمية الموت ، إلا إذا اعتراهم المرض ، وشعروا بدنو أجلهم ... مما يجعل البائس الفقير هو المتنعم المغبوط دونهم ، لخلو حياته من الصراعات والاضطرابات ... يبرز ذلك قوله :

(... ولقد أنطقت متاعب العلاء ومشاق المناصب ، أعاظم الملوك والقياصرة ، الذين يحكم لهم بالسعد وطيب العيش في هياكل العظمة والجبروت بكلمات ، لو علم

---

(١) علاج النفس صـ ١٠٥ .

اليائس الفقير بما وراءها من الهموم والغموم ، لاستصغر ما استعظم من أمرهم ، ولأيقن أنه هو المتنعم المضبوط دونهم ...

وإذا تأمل حديد النظر في هؤلاء الذين يحسدهم الناس من أرباب المناصب والمعالى ، والرتب العوالى ، ممن إذا تنزلوا ونظروا إلى الناس ، نظروا إليهم بمؤخر عيونهم ، وإذا منوا بالتسليم عليهم ، سلموا بأطراف أناملهم ... وجدهم كلهم أجراء قد أجروا أنفسهم ، وقدروا لأعمالهم ثمنا يستوفونه ، ولم يقدروا لأوقاتهم قيمة أو ثمنا ، فتراهم يدا ملأى بالدراهم ، وأخرى فارغة من الزمن ، فإذا اعتراهم المرض يوما من الأيام ، أدركوا فيه قيمة الزمن ، وعرفوا مقدار الحياة ، فتنحط تلك الأنوف الشوامخ على يد الطبيب لتقبيلها ، عساه أن ينقذهم من مخالب الموت ، ويرد عليهم بعض ذلك الزمن الذى لم يكن لديهم من قبل المرض شيئا مذكورا ...) (١) .

وبعد أن يعرض المويلحى أطرافا من الأحوال والمواقف التى تنطوى على شقاء أصحاب العلاء والمناصب ... يذكر أن الوقوف على حقيقة الحياة ووجوه الإنتفاع بها من أصعب العلوم استيعابا ، مقررا أن الاشتغال بمعرفة الحياة ، والاستعداد ليوم الممات ، هما الغايتان المقصودتان من الفلسفة والحكمة .. وينطلق من ذلك إلى تبيان كيفية الانتفاع بالحياة ، معلقا ذلك على تمكن الإنسان من المحافظة على أوقاته من الضياع ، وإدراك قيمتها ، والإنتفاع بوقت حاضره ، دون أن يحيل على المستقبل بلوغ الأمانى والآمال .

ومن هنا يأخذ فى تصوير موقف الإنسان من الحياة ، فيذكر أن الحياة تنقسم ثلاثة مراحل : الماضى ، والحاضر ، والمستقبل ... ويبين علاقة الإنسان بكل مرحلة ، موضحا أن الماضى لا ينتفع به أكثر الناس ، لانصرافهم نحو المستقبل ، دون التدبر في الماضى ، إلا من كانت أعماله الماضية متوازنة مع النفس ، وصادرة عن شرف الأخلاق

---

(١) السابق ص ١١٠ ، ١١٦.

على الرغم من أن الماضى هو الكنز الوحيد الذى يملكه الإنسان ، مما يحتم عليه دوام فيه للانتفاع به ، سواء أكان ممتلئا بصور الحسنات ، أم مشحونا بصور السيئات . أما الحاضر ، فهو قصير وجيز لا يمكن أن تثبت وجوده من سرعة حركته ، لا يكاد يعيشه الإنسان ، لانشغاله عنه بتطلعه الدائم إلى المستقبل . وأما المستقبل ، فهو خارج عن يد الإنسان ، وعلى الرغم من ذلك ، ترى الإنسان ينسى الماضى ، ويذهل عن الحاضر ، ويصرف همه كل إلى هذا المستقبل المجهول ، فيعيش فى الوهم الباطل حتى تدركه منيته .

* * *

٤ـ (السمعة والشرف[1]) :

وفى مقالة (السمعة والشرف) ، صدر الكاتب كلامه برأى الحكيم الألمانى (شوبنهاور) ، الذى تناول الأسباب التى تؤدى إلى ارتفاع قدر الإنسان وعلو مكانته ، مبينا أنها تكون عن طريق أربع جهات ، وهى : شرف المنصب ، وشرف الرتبة ، وشرف السيرة ، وشرف الفضل ـ ومنبها إلى أن لهذه الصفات فى اعتبار الناس وجه صحيح ووجه باطل .

ثم يتناول الكاتب كلا من هذه الصفات بالتفصيل ، فيذهب إلى أن شرف المنصب يرجع إلى قيام صاحب المنصب بعمله على أكمل وجه من الكفاية والإتقان ، مما يمكنه من إخضاع النفوس لاحترامه ، وهذا يكون هو الوجه الصحيح فى المنصب . أما الوجه الباطل ، فيكون إذا ارتقى المنصب من لم يحسن القيام فيه بواجب عمله ، وهنا يتحول احترام الناس فى تقديرهم له إلى احترام المنصب وتقديره فى ذاته .

وذهب إلى أن شرف الرتبة من الألقاب التى ليس لها فى ذاتها قيمة ، وإنما قيمتها اصطلاحية بين الناس ، لمنح صاحبها الاحترام والتقدير ، فكلما كان محل ثقة ، زاد مقدار احترامه وتقديره ، وهذا هوالوجه الصحيح فيها . أما إذا نالها من

---

(١) علاج النفس صـ ١٢٩ ـ ١٥٢ .

لم يستحقها زالت قيمتها ، ولم يأخذ الرجل من النفوس إلا الاحترام الظاهرى الذى يخفى الازدراء الباطن ، وهذا هو الوجه الباطل فيها .

ثم تحدث عن شرف السيرة ، مبينا أنها تتوقف على مدى حسن المعاملة للناس ، واحترام حقوقهم ، وموضحا أن هذا الشرف مهدد دائما بالزوال ، إذا ما صدر عن الإنسان عمل واحد يعيبه ، فيمحو ما تقدم من محاسن سيرته .

وجعل يبين أن شرف الفضل ـ فى مواضع متباينة وصفحات عديدة ـ هو الذى ينتج عنه حسن الذكر وجمال الصيت ، مما يجعله قريبا من شرف السيرة ... ثم أخذ يفرق بينهما ، فذهب إلى أن شرف السيرة من السهل الحصول على اعتراف الناس به ، نظرا إلى كثرة اشتراكهم فيه ، فلا يكون محلا للتحاسد والتنافر ، ولكنه مع ذلك يزول ويفنى عند ارتكاب أى معيبة . أما شرف الفضل ، فليس بالأمر السهل أن يحققه كل إنسان ، وكذلك من الصعب الحصول على الاعتراف به ، لأنه يكون اعترافا بأفضلية الغير وتميزه ، مما يؤدى إلى الغضاضة والكراهة ، ومع ذلك فإنه لا يمكن زواله ، حتى لو اقتصر صاحبه على هذا الأثر وحده .

وبعد تلك الموازنة بين شرف السيرة وشرف الفضل ، أخذ الكاتب يبين أن شرف الفضل يرجع إلى وجهتين : وجهة الآثار الأدبية ، ووجهة الأعمال المادية . وتحدث عن كل منهما بالتفصيل ، مفرقا بينهما ، فذهب إلى أن الآثار الأدبية ـ مثل مؤلفات العلماء والحكماء ـ لا تتأثر بالظروف والحوادث ، وإنما تبقى بنفسها على أصلها خالدة مع الدهر . أما الأعمال المادية ـ مثل الفتوحات والانتصارات ـ فتتأثر بالزمن ولا يبقى منها إلا الذكرى .

ثم انتقل يتحدث عن اختلاف الناس فى تقديرهم فضل أحدهم ، مبينا أن هذا يتوقف على مدى اتساع مداركهم وأفكارهم ، وعلى مدى نقاء نفوسهم من النقائص ، وموضحا أن صاحب الفضل لن يضيع حقه وتقديره مع الأيام ، فإذا لم

يعطه أهل زمانه حقه ، لسوء تقديرهم ، أو لما يكون من الحقد والحسد ، فإنه سينال تقديره فى الزمن اللاحق من أناس أخرين ، اتسعت قرائحهم للإحاطة بفضله ، وصفت نفوسهم من الأهواء والأغراض .

وأخذ الكاتب يوازن بين الذكر الباطل ، والذكر الحق ، فذهب إلى أن الذكر الباطل ، هو الذى لم يستحقه صاحبه بفضل فى ذاته ، وإنما ناله من جهل الناس وسوء تقديرهم ، ولذلك يكون عمره قصيرا ، وينمحى أثره من الوجود . أما حسن الذكر ، فهو يمثل صدى الفضل وظله ، ونرى صاحب الفضل لا يعنيه الاستحسان بين الناس ، وإنما يعنيه الفضل فى ذاته .

ثم ذهب يتحدث عن السبيل التى توصل إلى حسن الذكر الخالد عن طريق العلوم ، مبينا أنها تنقسم قسمين : القسم الأول ينصرف إلى العلوم الخاصة ، كالكيمياء ، والرياضيات ، وهذا القسم يكون صاحبه محدود الذكر فى طائفته . والقسم الثانى ينصرف إلى العلوم العامة الشائعة ، مثل علم النفس والفلسفة ، وهذا القسم يكون صاحبه شائع الذكر ، شريطة أن يتميز عن أهل طائفته ، وهذا يحتاج إلى جهد عظيم .

وراح الكاتب بعد ذلك يبين ـ فى إسهاب واستفاضة ـ أن صاحب الفضل الدائم الذى ينتهى بحسن الذكر ، لا بد أن يكون فى موضع حسد وبغض من الناس ، ولا غرو فى ذلك ، فأشد أنواع الحسد يكون على الفاضل ، لأنه يملك أعلى المزايا ... وفى الوقت نفسه يشعر الحاسد أمامه بضآلته ، ومن هنا وجب على الفاضل أن يتواضع بفضله بين الناس ، ويوارى ذكاءه وتميزه عنهم ، حتى لا يشعل فى صدورهم نار الحقد والكراهية .

ثم استطرد الكاتب مبينا أنه إذا كان من شأن أصحاب الفضل والذكاء عدم المبالاة بحسد الحاسدين ، وأنهم دائما ينظرون إليهم بعين الشفقة والرأفة ، فإن هذا يؤجج العداء والكراهية فى صدور أهل الحسد والنقص .

واستخلص الكاتب ما نتج عن ذلك ، مبينا أن أصحاب الفضل فى كل زمان ومكان لا ينالون حظهم فى المقامات والمناصب ، لأنهم لا يسلكون سبل التزلف والتملق ، وغير ذلك ، مما أدى إلى اعتلاء أصحاب الجهل والنقص ما لايستحقونه من تلك المناصب ، نظرا لمقدرتهم على استعمال التملق والخضوع والخداع ، وقوة استعدادهم فى اجتذاب القلوب ، مما لا يقدر عليه أصحاب الفضل .

وبعد أن يفرغ المويلحى من تبيانه ما يصيب صاحب الفضل من الحسد والبغض ، وتوجيهه إياه إلى ما ينبغى أن يفعله إزاء الحاسدين ، واستخلاصه ما نجم عن ذلك الصراع الدائم بين أهل الفضل وبين أصحاب النقص من نتائج ومظاهر وآثار .... يختم مقاله موجزا ما قدمه حول تقدير الناس لصاحب الفضل ، بقوله :

(وجملة القول فى هذا الباب أن الإنسان لا يمكنه أن يدرك ما هو فوق طاقته ، وما هو خارج عن قدرة تصوره ، والحكم على الشىء فرع عن تصوره . بمعنى أن الرجل لا يستطيع معرفة الفضل فى صاحبه ، إذا لم يكن له نصيب ظاهر فى الفضل ، ولا يقدر له قيمة ، إلا على نسبة اتساع فكره أو ضيقه فى هذا الباب . فاذا كانت دائرة ذكائه ضيقة ، ومنزلته من الفضل ضعيفة ، لم يؤثر فيه ولم يفعل فيه كل ما يمكن أن يجتمع للرجل الفاضل من صفات الفضل والكمال ، ولم يحس به أدنى إحساس ، ولم يبصر فيه إلا ما عساه أن يكون به من التهاون والإفراط فى بعض الصفات الشخصية التى تكون كالنقائص والمعايب ، فى أنظار الجهلاء ، فيقفون عند حدها ، ولا يدركون فيه ما سواها ، من أجل المزايا النفسية فى الفضل والعقل ، والنباهة والذكاء ، بل تكون أمام أنظارهم كألوان أمام العميان ، ولا يبصر نور الفضل إلا من استنار منه فكره ، وعظم فيه نصيبه ، ولا يعرف الفضل إلا ذووه) (١) .

* * *

---

(١) علاج النفس صـ ١٥١ ، ١٥٢ .

٥ (كــدر النفــس[١]) :

جسد الكاتب فى مقدمة مقاله (كدر النفس) مدى خطورة الحزن والغم على الإنسان ، مبينا كيفية مواجهة هذا الداء الفاتك ، ومؤكدا على ضرورة التزام الإنسان بالمواظبة على التدبر والتفكر فى حقائق الأمور ، حتى يسرى العلاج فى النفس ، ومشيرا إلى أن هذا ليس بالأمر الصعب ، حتى يصل الإنسان إلى السعادة المنشودة المستمدة من الفضيلة .. فقال فى ذلك موجها ومحذرا :

(لا جدال فى أن الكدر والغم من أشد أدواء النفس ، وأعظم أمراضها ، فهو إذا أنشب أظفاره فيها ، لم يلبث أن يمزقها تمزيقا ، ويشتتها تشتيتا ، فترتبك على الإنسان معيشته ، وتضطرب عليه حياته ، حتى يرى الدنيا فى عينه أظلم من الدجى ، وأضيق من سم الخياط ، وتصبح نفسه وكأنها سمكة الحبر تسود بما تمجه من جوفها كل ما حولها ، أو كأنها تلبس شارة السواد ، كما يلبث الجسم ثوب الحداد .

ولما كان هذا الداء عصى العلاج أبى المراس ، وجب أن يعمد الحكيم فى علاجه إلى أقوى ما يكون لديه من الأدوية المختلفة ، فللمرض الشديد الدواء الشديد ، وأول شرط فى نفع الدواء للبدن أن يواظب المريض على تناوله ليكمل سريانه فيه ، ولاتنفع لما نعرضه عليك هنا من علاج الأكدار ، إن لم تأخذ فيه أولا بطول المواظبة على التدبير والتفكير ، وشدة الإمعان ، وتكرار النظر ، وكثرة التمرن والتدرب ، حتى يسرى العلاج فى النفس ، فتتغذى به .... [٢]) .

---

(١)علاج النفس صــ ١٥٣ ـ ١٨٧ .. ويذكر أن مصطفى المنفلوطى قد نشر هذا المقال فى مختاراته ـ التى جمعها سنة ١٩١٢ م ـ تحت عنوان (أيها المحزون) مع بعض الاختلافات اللفظية مما يعنى أن المويلحى قام ببعض التعديلات الشكلية فى بعض مقالاته قبل أن يجمعها فى كتابه . انظر مختارات المنفلوطى صــ ٢٥٨ ـ ٢٨١ .

(٢) علاج النفس صــ ١٥٣ ، ١٥٤ .

ثم أخذ بعد ذلك يبين قوة العلاقة بين البدن والنفس ، مما يجعل مرض النفس يؤثر فى البدن حتى يمرض ، ومرض البدن يؤثر في النفس حتى تمرض .. واستطرد يفصل الكلام حول صحة الجسم وكيفية الحفاظ عليها ، مبينا أنه ينبغى على الإنسان أن يجتنب الإفراط فى الشهوات ، وفى كل ما من شأنه أن يورث اضطرابا فى الجسم ، وأن يتعهد بدنه بما يصلحه من الغذاء ، والنظافة ، والحركة .

وكذلك صنع إزاء صحة النفس ، وكيفية المحافظة عليها صحيحة ، وكيفية معالجتها من أكدارها ، مشيرا إلى أن ذلك يكون من خلال معرفة حقائق الأشياء فى ذاتها ، ومعرفة ما تلبس بالأذهان من الأوهام الباطلة التى تغشى الحقيقة وتشوهها ، فتوقعنا فى الشقاء والضلال ، ومبينا أن اختلال صحة الفكر مبعثه الخطأ فى الحكم على حقائق الأشياء ، وعدم التمييز بين الصحيح والفاسد ، إذا إن توازن الفكر وصحة التمييز ، أحد أركان الفضيلة التى تؤدى إلى الراحة والسعادة .

وانتقل الكاتب من ذلك لبيان اختلاف الفلاسفة والحكماء حول مفهوم السعادة ، وقد أجمل هذه الاختلافات فى رأيين : الأول يرى أن السعادة هى ذات الفضيلة ، سواء اتصل بها الإنسان عن طريق الألم ، أو عن طريق اللذة ، وبذلك تكون الفضيلة هنا غاية . والثانى يرى أن السعادة فى اللذة ، ويبلغها الإنسان عن طريق الفضيلة ، وهنا تكون الفضيلة وسيلة . وقد رجح الكاتب الرأى الثانى ، من منطلق أنه الأقرب إلى الطبيعة البشرية ، والفطرة الإنسانية ، التى تأنس إلى اللذة ، وتنفر من الألم ، مبينا أن اللذة المقصودة هنا ليست هى المعنى المشهور بين الناس ، بل هى ما يلائم الجسم والنفس معا ، ويصل بهما إلى السعادة المنشودة المستمدة من طريق الفضيلة .

ثم تحدث بعد ذلك عن هوية اللذة أو الراحة ، المستمدة من طريق الفضيلة ، مبينا أنها تكون الحالة التى يكون عليها الجسم أو النفس قبل حدوث الألم

والاضطراب ، أو بعد زواله تماما ، وموضحا أن الإنسان يخطىء فى معرفة تلك اللذة ، ظنا منه أنها تتمثل فى أثناء زوال الألم ، مما يجعله لا يدرك السعادة أو الراحة إلا بعد زوالها عنه ، ويجعله كذلك يخطىء فى حكمه على الأشياء وتقديره للأمور . فقرر أن الراحة أو اللذة هي التى يطلب الإنسان الفضيلة من أجلها ...

وراح يستخلص من حقيقة اللذة أو الراحة معنى الحكمة ، مبينا أنه ليست مرغوبة فى ذاتها ، وإنما يقصدها الإنسان ، لتهديه إلى الطريق القويم ، وتحميه من الآراء الفاسدة ، وترفع عنه غشاء الأوهام والأباطيل ، وتنزع من صدره الطمع والحقد وأسباب الشقاء ... فقال فى ذلك :

(... والحكمة التى هى صناعة الحياة ، إذا لم يكن منها راحة للإنسان فى حياته ، فهى غير مرغوب فيها ولا مطلوبة لذاتها . هذا هو تعريف اللذة التى يخطىء الناس فى معرفتها ، ولا يدركون حقيقتها ، ولا وصول إليها إلا بالحكمة التى تكشف غطاء الأوهام ، وتمكن الإنسان من الحكم الصحيح على الأشياء ، وترفع عنه غشاوة الغباوة التى استحكمت فيه ، وضللته حتى صار يتخوف مما لا خوف منه ، ويحزن مما لا حزن فيه ، وهى التى ترشده إلى تقليل الرغبات ... وتنزع منه الاعتداد بأحكام الناس وآرائهم الفاسدة المتولدة فيهم من جهلهم بالحقائق ، والتقليد على العمى ، فتنطفىء منه نار الطمع والشره ، التى طالما أودت بالأفراد والجماعات والشعوب بما أورثتهم من الأحقاد والأضغان ، وما أضرمته من ميزان الفتن والحروب ، وجعلت الناس فى شقاء دائم ، وألم مقيم .... (١)) .

ثم انتقل الكاتب من ذلك متحدثا عن خوف الناس من الموت ، على الرغم من أنه رافع الأسقام ،ومزيل الآلام ، وأنه حقيقة مؤكدة . ولكن الإنسان يوقن بالأوهام الأباطيل ، ولا يوقن إلى الحقائق ، مما جعله فى شقاء دائم .. فقال فى ذلك متهكما

---

(١) علاج النفس صـ ١٦٥ ، ١٦٦ .

وموجها :

(فمن منتهى غباوة الإنسان وجهله أن يتخذ فى كل منبت شعرة من جسمه ، حبلا من الأمل يعلقه بالبقاء فى الحياة الدنيا ، ويمحو من ذاكرته كل سبب يربطه بصفائح القبر (١)) .

وجعل يقسم موقف الناس من تذكر الموت إلى قسمين : القسم الأول ، لا يتذكر الموت ، ولا يجرى له على خاطر ، ولا يفكر فى هذه الحقيقة إلا عند المشاهدة والعيان ، ولكن سرعان ما يعود إلى ذهوله وضلاله . أما فيما عدا ذلك فإنهم يعملون ما فى وسعهم لصرف أفكارهم عن عن ذكرى الموت . ويبين الكاتب أن هؤلاء الغافلين عن حقيقة عن حقيقة الموت ، تراهم فى أشد الجزع والفزع إذا ماطرأ على حياتهم ما يذكرهم به .

ثم تحدث عن أصحاب القسم الثانى ، موضحا أنهم هؤلاء الذين يذكرون الموت دائما ، لخشيتهم من وقوعه ، فيتولاهم الرعب والفزع ، لأنهم يعتبرونه هادم اللذات .. ثم يبين أن أشد ما يكون عذابهم فى ذكرى الموت ، هم هؤلاء الذين أردف الله عليهم النعمة فى أثر النعمة ، إذ إنهم يخشون زوال هذه النعم برحيلهم ، مما يجعل حياتهم فى هم دائم ، وشقاء مقيم ، على أثر محاولاتهم التوقى من الأخطار ، والتحرز من أسباب الهلاك ، فى مغالاة ومبالغة ، تؤدى إلى الاختلال والاضطراب .. ثم نبه إلى مدى خطورة وهم الإنسان وتخوفه من الموت ، مستعرضا العديد من الأخبار والمواقف التى تؤكد أن هذا يفسد صحة الإنسان ، يحول حياته إلى شقاء وعذاب (١) .

* * *

---

(١) السابق صـ ١٦٩ .

(٢) تجدر الاشارة إلى أن محمد المويلحى قد تناول ـ أيضا ـ موقف الناس من الموت بالتفصيل والتصوير فى كتابه (حديث عيسى بن هشام) ،ص ٩٢ وما بعدها .

وأخيرا ختم المويلحى مقاله موجزا ما قدمه ، وموجها إلى ضرورة عناية الإنسان بجسمه ، وحمل نفسه على دقة النظر ، وحسن التبصر ، ومعرفة حقائق الأشياء ، حتى يسلم من الأمراض والهموم ، ويقضى حياته فى سعادة إلى أن يحل أجله .

* * *

٦ـ (المعـــروف [١]) :

وفى مقاله(المعروف) ، استهل الكاتب كلامه بمقدمة جسم فيها أثر نكران الجميل ، وضياع المعروف فى النفوس ، موضحا أن تلك الرذيلة هى من أشد الرذائل انتشارا بين الناس ، ومن أكثر الأسباب التى تؤدى إلى الألم والشكوى .

ثم أخذ يتحدث عن أسباب كفران النعمة ، ومقابلة الإحسان بالإساءة ، مبينا أنه يرجع إلى سوء التبصر فى اختيار من نضع معروفنا عنده ، كما يرجع إلى سوء طريقة الإعطاء من كبرياء وامتصاص وتكره ، وكثرة الوعد ، والمماطلة عند صنع المعروف .

ثم تناول ما ينبغى أن يكون عليه صاحب المعروف من آداب وسلوكيات ، منبها إلى أنه يجب أن يفعل الخير لمجرد حب الخير ، فلا ينتظر الجزاء والمكافأة على معروفه ، ولا يمتنع عن المعروف إذا تكرر معه نكران الجميل ، لأن باب المعروف ليس من باب التجارة ، كما إنه ليس أقتل للكفران فى النفوس من استمرارية الإحسان . وينبغى على من يسدى معروفا أن يسدل سترا من النسيان على ما يعطيه ، وألا يخطىء مواقع الهدية التى يهديها ، وأن يكون الإعطاء مشفوعا بما يدل على المبادرة ، وطيب الخاطر ، ورضا النفس .

وانتقل بعد ذلك متحدثا عن ماهية المعروف ، وتقدير قيمته ، مبينا أنه من الخطأ الشائع أن يكون الشكر على مقدار ما يقدمه صاحب المعروف ، أو أن تكون

---

(١) علاج النفس صـ ١٨٨ ـ ٢١٠ .

بمة المعروف هى قيمة العطية ، وذلك لأن العطايا ، والهدايا ، والمساعى ... إنما ى علامات ظاهرة تدل على المعروف ، وليس هى المعروف بذاته ، إذن إن المعروف س من الماديات التى تحس ، وإنما هو ما يدخل فى القلب ، ولا يقدر قيمته إلا مير الإنسان . كما هو الفعل الذى يصدر من تلقاء النفس لمجرد الرغبة في لخير ، ويستمد مسديه لذته من اللذة التى يشعر بها المسدى إليه .

ثم تناول كيفية الإعطاء ، فقسم المعروف من حيث درجة الأهمية والأولوية ، وجه المسدى إلى أن يبدأ بإعطاء الضرورى ، ثم النافع ، ثم التجميلى لترفيهى .. وجعل يعرف بكل قسم منها ويذكر ماهيته ... حيث قال فى تحديد نطقى وفلسفى ، مبينا أقسام الضروريات :

(أما الضرورى ، فهو الذى يقوم بحفظ الحياة ، وموقعه فى القلوب أعظم ما يأتى للنفع والتجميل ... والضروريات تنقسم إلى ثلاثة أقسام : أولها ما لا يقدر الإنسان أن يعيش بدونه ، وثانيها ما لا ينبغى للإنسان أن يعيش بدونه ، ثالثها ما لا يرضى الإنسان أن يعيش بدونه . فيدخل فيه الإنقاذ من المهالك ...

والقسم الثانى يدخل فيه كل ما يمكن الإنسان أن يحيا بدونها حياة يفضلها لموت ، وهو فقدان الحرية والشرف والفضيلة .

والقسم الثالث يدخل فيه شهوة النفس فى زينة الحياة الدنيا ، من الأموال والمقتنيات ، وكل ما تتطلع إليه النفس ويعز عليها فقده ..... (١)) .

وإذا ما فرغ الكاتب من حديثه عن كيفية الإعطاء وأولوياته ، وما ينبغى أن يكون عليه المسدى من أخلاقيات . ختم مقاله مقسما إسداء المعروف قسمين :

---

(١) علاج النفس صـ ١٩٩ ، ٢٠٠

الأول ، قسم عام ، يقتضى الجهر والإعلان له ، ومنه ما يدخل فى إعلان المجد والشرف ، مثل صدقات الفرائض ، وغنائم الجيوش ، ومكافأت الملوك على الأعمال الصالحة ... والثانى ، قسم خاص ، لا ينبغى له غير الإخفاء والكتمان ، وهو الذى لا تكون العطايا فيه من شأنها ارتفاع القدر ، بل من شأنها سد الحاجة ، ومداركة الافتضاح .

* * *

٧ـ(فضيلة الشفقة[٢]):

وفى مقاله (فضيلة الشفقة) ، صدر المويلحى كلامه بمقدمة عرف فيها الشفقة ، وبين مظاهرها ، وحدد عوامل نموها فى النفس ، وفرق بين الشفقة المتأصلة فى النفس ، وبين الشفقة الطارئة ... حيث قال محللا :

(الشفقة شكل من انجذاب النفس إلى النفس عند حدوث الألم لها . أو هى عبارة عن مشاركة الغير فى الإحساس لألمه ، وأثر من آثار الانفعالات الطبعية التى تثيرها مشاهدة التألم فى الغير . ومن مظاهرها المادية ، فيض العيون بالدموع ، إلا أنها لا تلبث أن تخمد وتنطفىء إن لم يثبتها الإنسان فى نفسه بالتصور والفكر ، ولذلك ترى بعض الناس الذين تنقصهم قوة التصور ، وتدبر الفكر ، يشاهدون حلول الألم بإخوانهم ولا يتألمون لهم . فلا بد لاستكمال هذه الفضيلة فى النفوس حينئذ من شرطين : حدة التصور وكثرة التجارب .. أما حدة التصور ، فإنها تجعل الإنسان أهلا لأن يدرك انفعال الغير ويحس ألمه ، بل يحل محله ، فى الإحساس للألم ، وهو نوع من وحى النفوس بعضها إلى بعض ، حتى يصير قلب الإنسان كالمرآة ينطبع فيه ما ينزل

---

(٢) علاج النفس صـ

تلب صاحبه . وأما التجارب ، فلأنها تمكن الإنسان من الإحاطة بمقدار الألم فى
غير ، ومعرفته له بما كابد من أمثاله وقاساه ، ولا تتم المشاركة فى التألم إلا بتذكر ما
قع للإنسان من أمثاله ، ولذلك نجد أن من كان أقل الناس آلاما وأحزانا ، يكون أبعد
ن سواه عن التوجع لأحزان الغير ، ولا يعظم إدراك الإنسان لآلام أخيه إلا بما جربه
نها فى نفسه . وقصارى القول ، أن نمو الشفقة فى النفس لا يكون إلا بمقدار قوة
لحافظة ، لأن التجارب ليست إلا عبارة عن مجموعة من آثار ما مر على النفس
دخرا فى حافظتها ....

والفرق بين هذه الشفقة المستكملة بالفكر والبحث ، وبين تلك الشفقة الطارئة
لتى تنشأ عن مجرد الإنفعال النفسانى لوقوع الغير فى الألم ، كالفرق ما بين
لعقل والعزيزة ، وما بين الإرادة والشهوة ، وما بين القياس والشعور (١) ....)

ثم أخذ فى بيان دوافع الشفقة ، فذكر أنها قد ترجع إلى الأثرة وحب النفس ،
لأن النفس تفزع وتخشى أن تقع فيما وقع فيه الغير من الآلام ، فتكون الشفقة هنا
ناشئة عن توقع حلول المكروه بها ، كما وقع لغيرها ... وأنها قد تنشأ من مشاعر
الإيثار ، والاشتغال بهموم الآخرين ، فذكر أن الشفقة قد تتغلب على الأثرة
وحب النفس ، لكونها تدفع الإنسان إلى تحمل آلام غيره ، دون النظر إلى الغرض
لذاتى ، مما يجعلها تعلو سائر الفضائل ، لتنزهها عن طلب المنفعة ... فقال فى ذلك :

(والشفقة وإن كان من أسبابها الأثرة وحب النفس ... إلا أنها فى واقع
الأمر تتغلب عليهما بما تدفع الإنسان إليه من وضع نفسه فى موضع المتألم ،
ورضاه بقبول الألم الذى هو سالم منه وبعيدا عنه ، ومساواته نفسه بالمتألم ،
ومشاركته فى التأثر بما يتأثر به سواه . وهى على هذه الصفة لتجردها عن الغرض
الذاتى واجتلاب الألم إلى النفس ، حيث لا حاجة إليه ، تعلوا على بقية الأخلاق
الفاضلة ، التى ترجع فى الأصل إلى طلب الإنسان لمنفعته ، فيرتفع قدرها على
سائر الفضائل بمقدار تنزهها عند طلب المنفعة (٢) ....) .

ثم يختم الكاتب مقاله بعرض البراهين التى تدل على علو منزلة تلك الفضيلة على سائر الفضائل ، وتبين أنها مصدر الكثير من الفضائل ، كالعدل ، والاحسان ، والتآخى ، وتشير إلى شموليتها التى تتجاوز بالإنسان خير العمل بها فى الإنسانية ، إلى نطاق العمل بها فى الحيوانية .

* * *

٨ـ(الصيت والذكر) [١]:

لم يقدم المويلحى مضمونا جديدا فى مقاله (الصيت والذكر) ، يمكن أن يضاف إلى ما قدمه من آراء وأفكار فى مقالاته السابقة . إذ إن مقاله هذا تكرار لبعض ما ذكره فى مقاله (السمعة والشرف) ، من حيث تناوله أسباب رفعة القدر وعلو الشأن .. وتبيانه الفرق بين الآثار الأدبية ، والأعمال المادية ..، وتمييزه بين رفعة القدر الناشئة عن طرق الفضل القائم فى النفس ، كما هو حال العلماء والحكماء ، وبين رفعة القدر الناشئة عن طريق الاتفاق فى واقائع الأحوال ، كذوى المناصب ، والفتوحات ، والثروات .. وكشفه الأسباب التى وراء ما يعانيه أصحاب الفضل من حسد وبغض يحجب حقوقهم من التقدير .. وتوضيحه ما يميز الوجه الصحيح من الوجه الباطل .

هذه كانت المحاور المضمونية التى أقام عليها المويلحى مقالاته فى علاج النفس ، وهى ـ كما تبين لنا ـ تدور جميعها حول بث القيم الأخلاقية فى النفوس ، والارتقاء بها من أسباب العذاب والشقاء إلى أسباب الراحة والسعادة .

* * *

---

(١) علاج النفس صـ ٢١٧ ـ ٢٢٢ .

ثانيا ـ التحليل النقدى

فإذا ما انتقلنا من النظر التحليلى فى تلكم المقالات إلى النظر الناقد ، بحثا عن أهم السمات الفنية التي اتسمت بها ، وجدنا التالى :

١ـ تكرار الأفكار وتشتتها :

لقد ترتب على نزوع الكاتب الإصلاحى الأخلاقى ، ميله إلى الحرص على إبراز الداء إبرازاً شاملا ، مما قاده إلى تكرار الأفكار ، فى غير نظام منطقى ، بحيث ترك لعينه المستقرئة المجال لتقديم ما تراه فى طوايا كل داء ، دون أن يخضع عينه تلك للقوانين المنطقية ، وأسلمها للانفعالات النفسية .

فتراه مثلا حين يتحدث فى مقدمة مقاله (الغضب) عن مدى خطورة الغضب على النفس والحياة ، يقول : (اعلم ـ وفقنا الله وإياك إلى الرشد ـ أن ما نسميه بصروف الدهر ، وإحن الزمن ، ومحن الحياة ، ومصائب الدنيا ، وأكدر العيش ، وسوء الحظ ، يتولد كله من رذيلة الغضب .... فالغضب أبشع أمراض النفس ، كما إن الجذام أبشع أمراض الجسم ..... [١])

وبعد أن يتناول الكاتب العديد من الأفكار والمعانى الجزئية المختلفة ، نحو حديثه عن درجات الغضب وأنواعه ، وعلاقته بالطبيعة البشرية ، واختلاف الآراء حول مدى نفعه فى بعض الأحايين ، ووسائل دفعه عن النفس ... إلى غير ذلك من الأفكار ... يعود فيستأنف حديثه عن خطورة الغضب على النفس ... فيقول :

(واعلم أن الأهواء النفسية تدخل فى النفس تدريجيا إلا الغضب ، فإنه يدخلها دفعة واحدة ،، فيتغلب على بقية الأهواء ، ويتسلط عليها ويبقى وحده قائما فيها يتصرف كما يريد ، فهو لذلك أعظمها شرا ، وأكثرها ضررا .... [٢]) .

---

(١) علاج النفس صـ٣١ ، ٣٢ .

(٢) السابق ص ٧١ ـ ٧٤ .

وفى حديثه عن معالجة الغضب وكيفية دفعه ، يذكر أنه ينبغى على الإنسان أن لا يغضب من الأمور التافهة الواهية التى لا تستحق ، أو من الأفعال الخالية من إرادة الأضرار ... فيقول :

(... أضف إلى ذلك كثيرا من الأمور التفاهة الواهية التى يغضب منها الإنسان من غير حق ولا تمييز ، مثل أن يغضب من بطء الخادم فى حركته ، أو من خلل فى نظام مائدته ، أو موضع شىء من أشيائه فى غير موضعه المعين له .... وقد شاهدنا منهم من يتجاوز به الغضب على نوع الإنسان إلى البهائم التى لا تعقل ، وإلى الأوانى التى لا تحس .... [١]) .

وبعد أن تناول الكاتب العديد من أسباب الغضب ، وبين كيفية مواجهته ، عاد يكرر المعنى نفسه بقوله :

(.... ومن الناس من يغضب فى بيته على خدمه إذا رأى إناء وضع فى غير محله ، أو عثر على شئ من الغبار فوق بساطه ... أو ينزعج من مواء هر ، أو هرير كلب ، أو صياح ديك ، أو من ضوضاء الخدم فيما بينهم ، فيهب بالسب والشتم ويهم بالصفع واللكم ، كأنه يريد أن يكون بيته فى سكون كالصحراء لا أنيس بها .... [٢]) .

وحين يريد الكاتب أن يبين مدى شقاء ذوى السلطان والمناصب والأعمال فى الحياة الدنيا ، لحرصهم على مكانتهم الفانية ، مما جعلهم يكتنزون الأموال ، ويفتقرون إلى راحة البال ، ويجهلون قيمة الزمن الذى يحتويهم ... نراه يقول فى مقاله (ساعات الحياة) :

---

(١) علاج النفس صـ ٥٤ ـ ٥٦ .

(٣) السابق صـ ٩٢ ، ٩٣ .

(... ولقد أنطقت متاعب العلاء ومشاق المناصب ، أعاظم الملوك والقياصرة ، الذين يحكم لهم بالسعد وطيب العيش فى هياكل العظمة والجبروت ، بكلمات ، لو علم البائس الفقير بما وراءها من الهموم والغموم ، لاستصغر ما استعظم من أمرهم ، ولأيقن أنه هو المتنعم المغبوط دونهم .... [1])

وبعد أن يعرض سلسلة من الحوادث والأخبار التى تؤكد هذا المعنى ، وتبين مدى ذهول أصحاب المناصب والأعمال عن الاستمتاع بحياتهم ، مشيرا إلى كيفية الانتفاع بالحياة .. نراه يعود إلى تكرار المعنى نفسه ... فيقول :

(.... وإذا تأمل حديد النظر فى هؤلاء الذين يحسدهم الناس من أرباب المناصب والمعالى ، والرتب العوالى ، ممن إذا تنزلوا ونظروا إلى الناس ، نظروا إليهم بمؤخر عيونهم ، وإذا منوا بالتسليم عليهم ، سلموا بأطراف أناملهم ، وجدهم كلهم أجراء قد أجروا أنفسهم ، وقدروا لأعمالهم ثمنا يستوفونه ، ولم يقدروا لأوقاتهم قيمة أو ثمنا ، فتراهم يدا ملآى بالدرهم ، وأخرى فارغة من الزمن ، فإذا اعتراهم المرض يوما من الأيام ، أدركوا فيه قيمة الزمن ، وعرفوا مقدار الحياة ، فتنحط تلك الأنوف الشوامخ على يد الطبيب لتقبيلها ، عساه أن ينقذهم من مخالب الموت .... [2])

ونرى الكاتب حين يتحدث عن السبل التى توصل إلى شرف الفضل يقول فى مقاله (السمعة والشرف) :

« .... وهذا الشرف يتكون لصاحبه من وجهتين ، من وجهة الآثار الأدبية ، ووجهه الأعمال المادية ، ولكل منها منافع وفوائد ... [3]) .

---

(١) علاج النفس صـ ١١٠
(٢) السابق صـ ١٦٦
(٣) السابق صـ ١٣٢ .

وبعد انقطاع تحدث فيه عن هوية كل من الآثار الأدبية ، والأعمال المادية ، وبين الفرق بينهما ، وتناول إنكار الناس حق صاحب الفضل من التقدير ، معللا لذلك ، ومشيرا إلى العديد من التوجهات التى تتصل بهذه المسألة ... يعود إلى الحديث عن أسباب شرف الفضل ... فيقول :

« .... بقى علينا أن ننظر فى الطريق التى توصل إلى حسن الذكر الخالد من جهة العلوم ، وهو ينقسم إلى قسمين ، قسم ينصرف إلى العلوم الخاصة ، وقسم ينصرف إلى العلوم الشائعة .... (١) » .

وحين يبين المويلحى مدى سيطرة الخوف والوهم على النفس والجسم معا ، مما يؤدى إلى مرض الإنسان وضياعه ... يقول فى مقاله (كدر النفس) :

« ... أجمع جلة العلماء من أطباء العصر الحاضر ، بعد كشفهم وبحثهم ، على أن مجرد التوهم والتخوف ، يحدث أمراضا فى البدن لم يكن لها من سبب سواه فى الباطن والظاهر ..... (٢) » .

وأخذ الكاتب فى استعراض أطراف من الأخبار والحوادث تؤكد ذلك . ولكنه يقطع حديثه عما يسببه الوهم من الأمراض ، متناولا ما قد يسببه من شفاء ... فيقول متمثلا ببعض الأخبار :

« وكما يمرض المصاب بالوهم ، فإنه يشفى أحيانا بالوهم ... دعى الطبيب لمعالجة أحد المصابين بالكلب بعد أن يئس منه جميع الأطباء وحكموا بموته ، فأخذ يقلب

---

(١) السابق صـ ١٢٤

(٢) السابق ص ١٧٨ .

جسمه تقليبا دقيقا ، ثم مال عليه بعد ذلك ولثم فمه ، فما لبث المريض أن شفى بفضل تلك القبلة التى اعتقد بها أن الطبيب لم يقبله إلا وهو آمن على نفسه من عدوى ذلك المرض ، وأنه خلو منه (١)) .

ثم يعود إلى حديثه السابق عما يسببه الوهم أو الخوف من الأمراض .. فيقول متمثلا ببعض الأخبار أيضا :

« وأكثر ما يفتك الخوف بالناس فى أيام الأوبئة والطواعين ، والذى يعظم خوفه ، يكون أكثر عرضة من سواه ، وقد يكفى الخوف وحده ليسبب أعراض الوباء ولو كانت جراثيمه منعدمة بتاتاً ... ومما يحكى أن إحدى النساء بلغها وفاة أخت لها بالوباء فى بلاد بعيدة ، فجزعت جزعا شديدا ، وخيل لها أن سيصيبها ما أصاب أختها ، وأستولى على فكرها هذا الوهم ، فأضاع منها شهوة الطعام وأحدث لها إسهالا ، ولم يستطع الأطباء إنقاذها إلا بعد أن أثبتوا لها بالبراهين القاطعة أنه يستحيل إصابتها بتلك العدوى ، لبعد الشقة بينها وبين أختها ، وأن ما أصابها إنما أصابها من أثر الخوف (٢)) .

وبعد أن يعرض طائفة من المواقف والحوادث التى تؤكد ذلك ، يعود ثانية فيتحدث عما قد يسببه الوهم من الشفاء .... فقال مستشهدا :

(وكما يمرض الجسم بالوهم ، كذلك يصح بالوهم ، ومن آية صحة ذلك ....(٣)) .

على هذا النحو أدى تكرار الكاتب أفكاره وتجزيئها بين الأفكار المختلفة فى

---

(١) السابق صـ ١٨٠ .
(٢) السابق صـ ١٨٠ ، ١٨١ .
(٣) السابق صـ ١٨٤ .

المقالة الواحدة إلى الإطالة ، كما عمل على تشتيت ذهن المتلقى فى المتابعة والاسترسال ، وأدى إلى تفكك وحدة المقالة البنائية ، فبدت مهلهلة ، تفتقد إلى الدقة المنهجية .

وتجدر الإشارة إلى أن ظاهرة التكرار عند المويلحى لم تكن شائعة فى تضاعيف المقالة الواحدة فحسب ، وإنما كثيرا ما رأينا الفكرة الواحدة تتكرر فى أكثر من مقالة ، مما يحتم على المتلقى أن يكثف تركيزه حتى لا يقع فريسة الخلط والاضطراب .

ومن ذلك قوله حينما أخذ يفند زعم من ذهب إلى أن ليس فى طاقة الإنسان أن يدفع الغضب بتاتا عن نفسه ، وأن طبيعة البشرية لا تقوى عليه ... مبينا أن طاقة الإنسان تمكنه من دفع الغضب عن نفسه إذا عزم على ذلك بطول الرياضة والممارسة ، ودوام التثقيف والتهذيب ، لا سيما أنه اجتاز الكثير من التحديات الصعبة التى صنعها لنفسه ، ليختبر قدرته على التحمل والإرادة ... حيث قال فى مقاله (الغضب) :

« لا يوجد فى الدنيا شىء من المصاعب والمشاق إلا وفى قدرة الإنسان أن يتغلب عليه بطول الرياضة والممارسة ، ودوام التثقيف والتهذيب ، فيلين له كل صلب ، ويسهل لديه كل صعب ، وليس من هوى من الأهواء النفسية ، وإن اشتد وتعاصى إلا وفى الطاقة إخضاعه على طول الزمن ، بالدأب على المعالجة ، والتدريب ، وقوة الإرادة ، وثبات العزيمة ، لا يتعاصى عليهما أمر ، ولا يعجزهما بلوغ غاية ، وقد وصل الناس بهما إلا ما لا يكاد يصدقه العقل . فمن الناس من حكم على نفسه أن لا يضحك طول حياته ، فبقى عابسا ما عاش ، ومنهم من امتنع عن الطعام الأيام والأسابيع ، ومنهم من حاول الوقوف على رجل واحدة فوقف عليها ليالى وأياما .... ومنهم من نراه يمشى على الحبل الممدود فى الهواء كما يمشى على بسيط الأرض ... إلى غير ذلك من الأعمال التى يطول الاستشهاد بها فى قوة الإرادة وثبات العزيمة ، مع

طول الممارسة ، ودوام الرياضة . مع أن الفائدة العائدة منها قليلة ضئيلة لا تذكر فى جانب ما تحمله صاحبه من المشقة فى مزاولتها . فكيف لا يمكن الإنسان بعد ذلك أن يستعمل قوته هذه فى التغلب على الغضب ، فيدفعه ويذلله ؟! ..... (١))

ثم كرر الكاتب المعنى نفسه فى مقاله (كدر النفس) ، فى صدد حديثه عن كيفية مواجهة ما يعكر صفو الإنسان .... وذلك قوله :

« إذا كان الإنسان يقدر بقوة التمرن والتكرار ، أن يصدر عنه من الأفعال العجيبة الجسمانية والنفسانية ما يدهش الألباب ، مثل ذلك الذى كان يحمل ثوار ويعدو به أميالا فى أعياد أثينا القديمة ، ومثل الذى يلعب فى ثمانى رقاع للشطرنج فى آن واحد ، وهو غائب عنها ، مشتغل بلعب آخر من ألعاب الورق فى الدنيا الجديدة ... فما أولاه بأن يروض فكره ، ويمرن نفسه على الأخذ بأحكام الفضيلة ، حتى يصل إلى الغاية المقصودة منها ، وهى السعادة . ولكنك إذا قرأت ولم تتدبر ، ونظرت ولم تتبصر ، وحفظت ولم تعتبر ، لم تنتفع بكثرة المطالعات ، وطول المعالجات (٢)) .

وحينما تحدث المويلحى فى مقاله (الغضب) أيضا عن وسائل دفع الغضب عن النفس ، حث على ضرورة القناعة والرضا ، ونبه إلى أهمية الابتعاد عن المطامع ... فقال :

« ويجب لدفع الغضب عن النفس أن تبعد بها عما يجهزها لحوله ، فلا تزاول من مساعى الحياة ، ومطالب الدنيا ، ما يزحمها ويكثر همها ، ولا تقتحم بها مجاهل المطامع ، وفيا فى الآمال والأمانى ، ولا تحملها ما لا تطيقه ....ومن دواء النفس

---

(١) علاج النفس صـ٤٨ ، ٤٩ .
(٢) السابق صـ ١٥٤ .

لتطهيرها من الغضب ، حسن الاكتفاء فى المعيشة ، والرضا بالحالة التى أنت فيها ..... (١))

ولكننا نراه يعيد المعني نفسه فى مقاله (كدر النفس) ، فى صدد حديثه عن أسباب شقاء الناس .... فيقول :

(.... فالعاقل هو الذى ينفى عن أسباب المخاوف ، ويقلل من الرغبات ، ويرضى بالكفاف ، ويقصر همه على ما تقتضى به الحاجة الضرورية والطبيعية ، التى ليس من ورائها طمع أو شره ، فإنها مجلبة الأحزان والآلام .... (٢)) .

والمتأمل فى مقاله (الصيت والذكر) ، يتبين أن الكاتب أعاد فيه ما ذكره فى مقاله (السمعة والشرف) . حتى يمكننا أن نقرر أنه لم يقدم فيه جديدا ، سوى تغيير العنوان ..فمثلا حين أراد الكاتب أن يتناول شرف الفضل بنوعيه ، قال فى مقاله (السمعه والشرف) :

(... وهذا الشرف يتكون لصاحبه من وجهتين ، من وجهة الآثار الأدبية ، ووجهة الأعمال المادية ... والفرق الكلى بينهما أن الآثار الأدبية تبقى نفسها على أصلها خالدة عن الدهر ، وأن من الأعمال المادية لا يبقى منها إلا ذكرها وحده ، مهما كان العمل عظيما ، وشأنه رفيعا ، ثم تتضاءل وتضمحل ، ويمحوها الزمن من الوجود بمروره عليها ، إن لم يقيدها التاريخ ... كما نرى ذلك واضحا بين أهل الفتوحات من القواد والملوك، وبين أهل التأليف والتصنيف من العلماء والحكماء ، ولا بقاء على الدهر مثل بقاء الصحف المكتوبة ، والكتب المسطورة ... (٣))

---

(١) علاج النفس صـ ٧٤ ، ٨٦ ، ٨٧ .
(٢) السابق صـ ١٦٦ .
(٣) السابق صـ ١٣٢ ، ١٣٣ .

ثم ردد المعنى نفسه فى مقاله (الصيت والذكر) ، فى صدد حديثه عن أسباب علو القدر .. فقال :

« والأعمال والآثار التى تقوم عليها رفعة القدر ، وعلو الشأن ، تجرى فى طريقين : طريقة الخلود والبقاء ، وطريق الزوال والفناء . وقد يبقى الذكر مع بقاء الأثر ، وقد يزول الأثر مع بقاء الذكر .

فالأعمال الخالدة مع بقاء الذكر، هى آثار المؤلفين والمصنفين من العلماء والحكماء ... والأعمال البائدة مع الذكرى الباقية ، هى مثل فتوحات الاسكندر .... [١] » .

هذه كانت بعض الأفكار والمعانى التى رددها الكاتب فى أكثر من مقالة .. وليس من شك فى أن هذا يرجع إلى أن مقالات علاج النفس جميعها يأخذ بعضها من بعض ويتحرك فى دائرة أخلاقية واحدة ، تدور حول تهذيب النفس والارتقاء بها نحو السعادة المنشودة .

ويبدو أن شدة حرص الكاتب على استعراض الأدواء النفسية ، وتقدم الأدوية الشافية ، قد أسبغت عليه من الحماسة والانفعال ما شغله عن ترتيب الأفكار . على الرغم من أن هذا الترتيب يكون أقرب فى الوصول إلى نفس المتلقى ، والتأثير فى عقله ووجدانه .

ولو إن هذا الكاتب الكبير ، والمصلح المخلص ، عاد بالنظر فيما كتب ، قبل أن يدفع به إلى النشر ، لقدمه أكثر دقة وتهذيبا ، ولكن الواضح البادى من هذه المقالات

---

(١) السابق صـ ٢١٧ ، ٢١٨ .

أنه لم يكن بالذى يحرص على تنقيح ما يكتب ، إما لمزيد من الثقة بالنفس ، وإما لعجلة فى إسداء النصح والإصلاح ، وإما لاشتغال بجوانب أخرى من الحياة .

***

٢ـنزوعه إلى الاستطراد:

إذا كان حرص الكاتب على إيضاح أفكاره ، وعرضها من كافة وجوهها ، قد دفعه إلى التكرار فى كثير من الأحيان ، فرأينا الفكرة الواحدة تقدم فى أكثر من معرض فى المقالة الواحدة ، ورأيناها تقدم بذاتها فى أكثر من مقالة ، مما نشأ عنه من خلط فى بعض الأحيان ، وتشتيت لذهن المتلقى فى أحيان أخرى .

إذا كان الحرص على تقديم الأفكار واستيفائها نشأ عنه ذلك ، فإن هذا الحرص دفع الكاتب إلى ظاهرة أسلوبية أخرى ، هى ظاهرة الاستطراد ، وذلك لأنه فى إلحاحه على إيضاح أفكاره ، كان يحاول أن يشفع ذلك بذكر الأمثلة ، وتقديم الأدلة التى تجذب المتلقى إلى الأخذ بأفكاره ، والاقتناع بها . مقتربا بذلك من استطرادات كثير من أدبائنا السابقين أمثال الجاحظ والمبرد والتوحيدى .

بيد إن هذه الاستطرادات فى كتابات المويلحى كانت فى كثير من الأحيان وراء ما يجده المتلقى من تفكك فى الوحدة البنائية للمقالة ، حتى ليخيل إليه أن المقالة ضمنت عدة موضوعات .

فنراه مثلا فى صدد مناقشته بعض الآراء التى ترى ضرورة الغضب فى بعض المواضع ، يبين أن الإنسان العاقل صاحب الفضيلة لا يمكن أن يغضب للرذيلة ، ويستطرد فى عرض الأمثلة التوضيحية التى تؤكد ما ذهب إليه ... فيقول :

(وهل يخلو العاقل ، إذا خرج من بيته أن يصادف فى طريقه كثيرا من أنواع الرذائل التى يتصف بها البخيل ، والسفيه ، والأحمق ، والكذوب ، والمنافق ، والسارق ، وكل راض برذيلة متجمع بها ؟ وهل يفتح عينه أو يغمضها على غير الاستقباح والاستنكار ؟ فهو على ذلك لا يخلو من الغضب طرفة عين ، وكيف يكون حاله لو توجه فى صباحه إلى دار القضاء فوجد المئات من المتقاضين ، هذا يشكو أباه ، وهذا يتهم أخاه ، وهذا ينازع أمه ، وذاك يشهد الزور ، وسواه يدعى الباطل ، والمحامى ينتصر بمهارته لدعواه ، والقاضى يحكم بالعقوبات على ذنوب ربما كان هو أيضا منغمسا فى مثلها ؟!

وكيف تكون حاله إذا شاهد فى المعاملات أن لاربح لأحد إلا بخسارة آخر ، ورأى المجدود بين الناس محسودا مكروها ، والمنكود محتقرا مرذولا ، والقوى يدوس الضعيف ، والضعيف يدوس الأضعف ، وكل ميال إلى ضرر أخيه ، يعتبر الهفوة منه ذنبا عظيما ، والزلة جرما كبيرا ..... [١]) .

فإذا ما فرغ الكاتب من استرساله فى عرض ما يعم البشرية من رذائل وموبيقات .. قال مؤكدا ما ذهب إليه فى صدر كلامه :

« ... فهل تريد أن يغضب العاقل ويسترسل فى غضبه على قدر ما شرحناه لك من الرذائل والكبائر والجرائم والمعايب ؟! لاجرم أنه يكون حينئذ على حالة لايفى التعبير عنها بكلمة مجنون ..... [٢] » .

وحين يريد الكاتب أن يتحدث عن وسائل معالجة الغضب .... يقول :

---

(١) علاج النفس صـ ٤٥ ، ٤٦ .. ومما تجدر الإشارة إليه أن الكاتب قد تناول - أيضا - هذه المساوئ ، والمفاسد التى أصابت مجتمعنا الإسلامى فى مختلف طبقاته ، بالتفصيل والتصوير التهكمى الساخر ، فى أكثر من موضع فى كتابه (حديث عيسى بن هشام) ، أنظر من ذلك ص ٢٠ وما بعدها .

(٢) السابق صـ ٤٧ .

(فينبغى للإنسان ألا يتسرع فى تصديق كل ما ينقل إليه قبل التثبت منه ، والتغابى فى كثير من الأمور خير من إعلانه خيانة الناس له ... وليبعد ما استطاع بنفسه عن سوء الظن والتوهم .... [١]) .

ثم يستطرد فى عرض الأمثلة التوضيحية .... فيقول :

(.... فإذا رأى أن صاحبه مثلا قابله بتحية لا تليق به ، أو أن وجه صديقه لم يكن باشا عند لقائه ، أو أن جليسه قطع عليه الحديث ، أو أن خليله لم يدعه إلى وليمة ، أو أنه أعرض عنه عند مقابلته ، فليبادر إلى التماس العذر له ، لا إلى سرعة الغضب منه ... [٢]) .

فإذا ما انتهى الكاتب من سرد أمثلته التوضيحية ، التى تحث على ضرورة عدم التعجل فى الحكم على الأشياء ، وعدم الغضب مما ليس من شأنه أن تصدر عنه إهانة ، لخلوه من الإرادة ، والابتعاد عن سوء الظن والتوهم ... عقب مكررا ومذكرا بما قاله فى هذا الصدد .

وهنا نلمح من أسلوب المويلحى أنه شعر بما أحدثه الاستطراد من خلط ، ولذلك يلجأ إلى لفظة يوقف بها المتلقى عن الاندفاع مع سيل الاستطراد ، ويلفته إلى أصل الموضوع ، مثل لفظة (ولنرجع إلى ما كنا فيه) فى قوله بعد ذلك :

(ولنرجع إلى ما كنا فيه ، فإذا قيل لك إن فلانا تكلم فيك بسوء ، فلا تعجل فى الحكم ، بل ابحث فى الأمر ، بحث الرجل المنصف .... [٣]) .

---

١) السابق صـ ٥٣ ، ٥٤ .
(٢) السابق صـ ٥٤ .
(٣) السابق صـ ٥٩ .

والصيت وأكثرهم ، على الرغم من أن انتصارهم قد يكون خارجا عن إرادتهم ، وبعيدا عن قدرتهم ... ثم يستطرد بالإشارة إلى العديد من الأسباب التى قد تؤدى إلى الانتصار ، بعيدا عن كفاءة القائدومهارته .... نحو قوله :

« ... ولذلك ترى أن أكثر من ينال رفعة القدر وشهرة الذكر ، بين الناس فى أسرع وقت وأقرب مدة ، واتفاق الإجماع عليهم ، هم قواد الجند ، بقطع النظر عن كل فضيلة ومزية فيهم ، إذا انتصروا يوما فى واقعة من الوقائع ، وفازوا فى معركة من المعارك التى ربما لم يكن لهم فيها أقل أثر من العمل سوى وجودهم فى قيادة العسكر ، ولم يقع الانتصار فيها إلا بحكم الاتفاق وتقدير القضاء ، مما هو خارج عن قدرتهم ، بعيدا عن تصرفهم ، وكم انتصر القائد بأدنى سبب وأوهى علة ، وكم تبلج له الفوز والانتصار وهو فى ظلمات اليأس وعند انقطاع الرجاء ، بهفوة من عدوه وزلة من محاربه ، لم تخطرله بالخاطر ، ولم تجر فى الحسبان . وكم تولد الانتصار أيضا بعدة أمور لا دخل لها فى مهارة القائد ، ولا فى حسن تدبيره ، مثل جهل العدو وسوء اغتراره وقلة عدده ونقصان عدته ، أو لبعض العوارض الطبعية فى رداءة الموقع ، ونزول الأمطار ، واتجاه الشمس ، واكفهرار الجو ، ونحو ذلك من الأسباب التى لا تعد ولا تحصى ولا تحصر ولا تستقصى ، فما هو إلا أن تجود المقادير على أحد القواد بسبب من هذه الأسباب ، حتى ينتصر بها على عدوه ، فترى الناس كلهم أنصاره وأحزابه ، ينوهون بذكره ، ويتباهون بعمله ، ويشيدون باسمه ، ويضعونه فوق الرءوس ، لا لأنه قد علم ما لا يعلمه سواه من فنون الحرب ، أو أنه ابتكر طريقة فى اللقاء لم يهتد إليها غيره . ولكن لمجرد كونه نال الفوز على عدوه بأى طريقة كانت ، فهو يشخص فى أعينهم صورة الانتصار ، وكفى بها فضلا لديهم ، وكفى بها مجدا له وفخرا ، وصيتا وذكرا [١] » .

---

(١) علاج النفس صـ ٢٢١ ، ٢٢٢ .

وفى صدد حديثه عن ضرورة مراعاة الإنسان بصحة بدنه ، حتى تسلم نفسه من الأمراض والنقائص ... استطرد فى تبيان وظائف الأمعاء والأعضاء التى تدور داخل الجسم فى حركات منتظمة متكافئة ، مما يحتم على الإنسان التعهد بما يصلح بدنه ، حماية له من الاختلال ، حتي يكاد بذلك الحديث العلمى المفصل ينسى المتلقى الغاية من وراء ذكر ذلك .. كما نراه فى قوله :

(وإنك إن نظرت إلى البدن من داخله ، وجدت ما فيه من الأحشاء والأعضاء فى حركة مستديمة ، فترى القلب يقذف مجموع ما فى الجسم من الدم إلى الأوعية الكبيرة والصغيرة فى ثمان وعشرين ضربة من ضرباته ، وتجد الرئة تعلو وتنخفض بحركة سريعة دونها حركة آلة البخار ، وتشاهد الأمعاء فى انبساط وانقباض ، وفى الجسم أعضاء وظيفتها الامتصاص والإفراز فى آن واحد على الدوام ، وللمخ حركتان عند كل ضربة من ضربات القلب ، وعند كل استنشاق للنفس . فإذا قلت حركة البدن من ظاهره كما هى الحال عند الذين يعيشون عيشة الرفاهية والسكون ، لم يتم التوازن بينها ، وبين الحركات التى فى باطنه ، فيقع الجسم كله فى اختلال ، لأن حركة الباطن تحتاج إلى المعاونة بحركة الظاهر ، وتتطلبها ليستقيم الوزن ، ولا يختل نظام الجسم والنفس معا (١)) .

وحين يتحدث الكاتب عن السبب وراء اتساع الشهرة وعلو الشأن من جهة الأعمال المادية التى لا يكون لصاحبها فضل فيها لذاته ، معللا لذلك بقصور المدراك ، وانحطاط الأفكار ، وعدم توافر الحقد والغبن الذى يصيب الحكماء والعلماء ..... راح يمثل لذلك بقواد الجند ، مبينا أنهم أسرع من ينال الشهرة

---

(١) السابق صـ ١٥٥ ، ١٥٦ .

على هذا النحو تجلت ظاهرة الاستطراد عند المويلحى فى معالجة الموضعات ، مما كاد يفقد المقالة وحدتها ، وجعل المتلقى فى كثير من الأحايين ينقطع عن استرساله فى متابعة الفكرة أو القضية الرئيسية التى يتناولها الكاتب فى مقاله ، وأحوجه إلى كد الذهن ، أو معاودة نظر وتأن فى القراءة ، حتى يقف على غاية الكاتب ومقصده .

* * *

٣ـ كثرة استشهاداته الاستدلالية :

وعلى الطريق نفسه ، طريق حرص الكاتب على الإلمام بأطراف القضايا والأفكار التى يتناولها ، وترسيخها فى ذهن المتلقى ، نتبين كثرة ما قامت عليه كتابات المويلحى من الاستشهادات بالأمثلة المتنوعة التى جمعت بين الخبر ، والقول المأثور ، والنص القرآنى ، والنص النبوى ، والنص الشعرى ... كما جمعت بين النصوص اليونانية والغربية ، والنصوص الإسلامية والعربية ... مما يؤكد اتساع ثقافة الكاتب وشمولية فكره .

فنراه مثلا فى أثناء تناوله جانبامن حياة شيخ الفلاسفة سقراط ـ فى مقاله (بساطة الفلاسفة) ، ليبين مدى قوة فضله ، ذكر نصا يحث فيه على الفضائل التى تؤدى إلى السعادة الإنسانية ، وينهى عن الرذائل المتمثلة فى الشهوات والجهل والوهم ، مما يضعف النفس ويذلها ... حيث نقل خطبة سقراط على أسماع العامة ، التى يقول فيها :

(اعلموا أنكم إذا رضيتم أت تكونوا عبيداً للشهوات ، فلا سبيل لكم إلى الفضيلة التى تصعد بكم إلى معارج السعادة ، ولا تأثير لصوت العقل والحكمة ، إلا فى النفوس الطاهرة ، التى تسعى جهدها للتخلص من قيود الشهوات ، ولا وصول إلى ذلك إلا بإطراح فضول العيش بما لا حاجة إليه فى الفطرة الطبعية ،فإذا بلغتم ذلك من أنفسكم بطول التفكر والتمرن ، انجلت عنكم ظلمات الجهل ، وانقشعت سحب الأضاليل ، وليس قوة الشهوات هى التى تتغلب على النفس ، ولكن الجهل هو الذى يضعف النفوس ويذلها ويغلها فى تلك القيود ، فعليكم التغلب على سلطان الشهوات الذى يسلطه عليكم الوهم والجهل لتخرجوا من الظلمات إلى النور ،وتذوقوا حلاوة الفضيلة التى بها تمام السعادة)[١] .

وفى صدد حديثه عن أسباب الفضيلة ـ فى مقاله (بساطة الفلسفة) ـ بين أنه يجب على الإنسان أن يبحث ويفكر ، ويحكم عقله ، ويغلب القوة الحاكمة على القوة الواهمة ، ويوطن نفسه ويؤهلها لمصارعة الخطوب ، ومنازلة النوازل ، فلا يصيبه شىء منها إلا وقد أعد له عدته ، حتى لا تباغته الأيام بحادث إلا وقد اتخذ لنفسه موئلامن الحكمة يأوى إليه ، ويتدرع بحصنه ، فيكون ثابتاأمام صروف الدهر وبلائه .... ثم استدل بقول الشاعر [٢] :

وحالات الزمان عليك شتى وحالك واحد على كل حال

وحينما يتحدث عن خطورة الغضب ـ فى مقاله (الغضب) ـ وما ينبغى على العاقل من ضبط نفسه عند شعوره بالغضب ، يعرض الكاتب هذا الخبر :

---

(١) علاج النفس صـ ١٤ ، ١٥ .
(٢) السابق صـ ٢٩ .

(.... وقد دخل رجل على أفلاطون الفيلسوف ، فرآه منحنيا وبيده سوط ، وأمامه خادم ، كان شرع فى تأديبه . فلما أدرك الحالة التى يكون عليها الغضبان فى غضبه ، أمسك عن ضرب الغلام وكظم غيظه ، وبقى منحنيا ذلك الانحناء ، فسأله الرجل عن هذه الوقفة ، فقال له الحكيم : أردت أن أضرب هذا الخادم ، فلما رأيت نفسى على هذه الهيئة ، قصدت تأديبها بالبقاء عليها حتى تثوب عن غيها [١])

ثم أضاف الكاتب مستدلا بقول النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الصدد [٢] :

(ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب)

ويرى المويلحى أنه من الأسباب التى تقى الإنسان من الغضب ، عدم تعجله فى الحكم على الأشياء ، وأن يقف غضبه حتى تتبين له الحقيقة الكاملة ، لأن الانتقام إذا تأخر يمكن استدراكه ، ولكنه إذا وقع تعذر تداركه ....ثم استعرض العديد من القصص والأخبار التى تدعم ما ذهب إليه .... فذكر منها :

(.... يحكى أن أحد اليونانيين تآمر على ملك ظالم ،فاستكشف المؤامرة أعوان الملك ، وأخذوا فى تعذيب الرجل ،ليدل على شركائه ، فشرع يسمى للملك واحد بعد واحد من خاصة الملك وبطانته ، والملك يغضب ، فيأمر بقتل كل واحد ممن ساهم ، وما زال الرجل يسمى ، والملك يثور به الغضب ، فيأمر بالقتل، حتى أتى على جميع المخلصين له ، ثم سأله : هل بقى أحد ؟ فقال له الرجل : لم يبق إلا أنت وحدك ، لأنى لم أترك لك شخصا أمينا تعز عليه حياتك .

---

(١) ، (٢) السابق صـ ٣٢ .

فكانت سرعة الحكم فى حدة الغضب ، معينة الرجل على الملك حتى جعله يفنى بيده جميع من يثق بهم ، وبقى من بعدهم وحيدا بغير معين ....)[١] .

وفى المقال نفسه يبين الكاتب أنه ينبغى على العاقل تحمل الإساءة من ذوى السلطان بالصبر والارتياح ، ويؤكد أن دفع الغضب عن النفس لا يقتصر على الحكماء والعقلاء فحسب ، وإنما فى قدرة كل إنسان أن يكظم غيظه ، ويدفع غضبه، إذا اجتهد فى تمكين القوة الحاكمة من نفسه ..... فيقول مستشهداً ببعض الأخبار :

(يحكى عن أحد الظالمين من قياصرة الرومان أنه امتعض من تكلف أحد الشبان من أولاد الكبراء لزيه وشكله ، وشارته وزينته ، فأمر بسجنه ، فجاء أبوه يلتمس العفو عنه ، فقال له القيصر : قد قتلته ـ وأوعز فى الحال بقتله ـ ثم أراد أن يخفف عن الوالد من مصيبته ، فدعاه إلى شرف الطعام على مائدته فى مساء ذلك اليوم ، فحضر الرجل وليس على وجهه أثر من الحزن والغضب ، فناوله القيصر بيده كأسا من الخمر ، فشربها ، وكأنما يناوله دم ابنه ، ثم أمر القيصر بتضميخه وتعطيرة وتتويجه بالزهور ، كما هى العادة فى مجالس أنسهم ، ووكل به من يراقبه ، فتقبل الوالد كل ذلك بالطلاقة والبشاشة ، ثم أخذ مجلسه من مائدة القيصر مع تسعة وتسعين من الكبراءوالعظماء ، وظل فى مساء اليوم الذى قتل فيه ابنه يتفانى معهم فى لعبهم ، مع ضعفه وشيخوخته ، كأنما جاءته البشرى بمولود [٢]) .

ثم يعلق الكاتب مبررا موقف هذا الرجل العاجز ، ومجيبا على الرفض الإنسانى له فيقول :

---

(١) علاج النفس صـ٥٢ ، ٥٣

(٢) السابق صـ ٦٧ ، ٦٨ .

(وكأنى بك تقول : ما سبب هذه المذلة والمسكنة ؟ فأقول لك : كان للرجل بن ثان يريد أن يحفظ حياته ، من هذه اليد المطلقة فى الظلم ، وما كان الرجل يتأخر عن مصادمة ذلك الجبار ، لو كان ما يخشاه متعلقا بشخصه وحده ، ولكن لمحبة الأبوية تغلبت على كل تأثر وانفعال، ولولا كتمانه ما يغلى فى صدره من لحزن ، وإظهاره ما تكلفه فى حضرة الملك من البشاشة والمجاراة فى اللهو واللعب ، كان الابن الثانى لحق بالابن الأول ....[١]).

وإذاأرادالكاتب أن يبين أن من وسائل تسكين الغضب،أن يتذكر الغاضب لمغضوب عليه يوافى المعروف أسداها إليه ، وألاينسى مايعقب العفو والحلم من حسن لسمعة...[٢] استدل بقوله تعالى : (... ادفع بالتى هى أحسن ،فإذا الذى بينك وبينه عداوة ،كأنه ولى حميم [٣]). وقوله أيضا : (.... ويدرءون بالحسنة السيئة .... [٤]) .

وحين يقرر المويلحى أن من وسائل مواجهة الغضب ، أن تبتعد النفس عما جهزها لحلوله ، مثل كثرة مطالب الدنيا ، ومجاهل المطامع ، وأنه ينبغى على العاقل حسن الاكتفاء فى المعيشة ، وألا يتطلع إلى ما فى يد الغير .... استشهد بقول لحكيم (أبقراط) :

(إذا أردت أن تعيش هادىء البال هنىء العيش ، فلا تزحم نفسك بكثرة لمطالب ، وتعدد الأعمال خاصة كانت أو عامة ، ولا تقصد منها إلا ما كان

---

(١) علاج النفس صـ ٦٨ .
(٢) السابق صـ ٦٩ .
(٣) سورة فصلت ، الآية ٣٤ .
(٤) سورة الرعد ، الآية ٢٢ .

مناسبا لقواك ، حتى لا يثقل عليك حمله [١].

وأضاف الكاتب مستشهدا ـ فى موضع آخر من المقال نفسه ـ بقول الشاعر [٢] :

وأتعب خلق الله من بات حاسدا   لمن بات فى نعمائه يتقلب

ويواصل الكاتب استشهاده حول المعنى نفسه ـ ولكن فى مقاله (كدر النفس) ـ مؤكدا أن السعادة والراحة النفسية ،التى يطلب الإنسان الفضيلة من أجلها ، ويرغب فيها للوصول إليها ...تتجلى فى أن ينفى الإنسان العاقل عن نفسه أسباب المخاوف والصراعات ، وأن يقلل من المطالب والرغبات ،ويرضى بالكفاف ، وأن يقصر همه على ما تقتضى به الحاجة الضرورية والطبعية ، التى ليس من ورائها طمع ... مستدلا بقول الشاعر [٣] :

مرحبابالكفاف يأتى عفيفا   وعلى المتعبات ذيل العفاء

ضلة لامرئ يشمر فى الجمـ   ـع لعيش مشمر للفناء

يحسب الحظ كله فى يديه   وهو منه على مدى الجوزاء

ليس فى آجل النعيم له حـ   ـظ وما ذاق عاجل النعماء

ذلك الخائب الشقى وإن كا   ن يرى أنه من السعداء

حسب ذى إربة ورأى جلى   نظرت عينه بلاغلواء

صحة الجسم والجوارح والعر   ض وإحراز مسكة الحوباء

(١) علاج النفس صـ ٧٥ .

(٢) السابق صـ ٨٧ . والبيت للمتنبى ـانظر ديوانه ١ / ١٨٥مع اختلاف الرواية .

(٣) علاج النفس صـ١٦٦ ، ١٦٧ ، والأبيات لابن الرومى . انظر ديوانه صـ ٤١ ، ٤٢ . مع اختلاف الرواية

وفى أثناء حديثه عن شقاء ذوى السلطان ، والعلماء ، وأصحاب الأعمال ـ فى مقاله (ساعات الحياة) ـ من حيث ذهولهم عن الاستمتاع بالحياة ، استعرض المويلحى عدة أخبار وحوادث تؤكد ذلك ، من بينهما هذا الخبر :

(... ومنهم من يصل نسيانه لنفسه إلى ما بعد ذلك أيضا ، فقد حدث أن اللورد « بيكسفيلد » وزير انكلترا ، تقدم ليركب مركبته مع زوجته ، فلما دخلت المركبة بعده وأقفلت بابها ، أصابها فى أصبع من أصابعها ، فلم تتقزز لذلك الألم الشديد، وكتمته وضبطت نفسها مخافة أن يظهر عليهاعلامة من علامات التوجع فى مسافة الطريق ، حتى أوصلت زوجهاإلى وزارة الخارجية ، وعادت فاستدعت الطبيب، فلما رجع زوجها وجد الطبيب مع أهلها بجانبها وعلم بما جرى ، فأخذ يعتب عليها فى تحملها للألم وكتمانها الأمر عنه ، فقالت : خشيت إيقاظك من الاستغراق فى الفكر ، واشتغالك بتدبير أمور الدولة [١]) .

وفى مقالة (السمعة والشرف) ، أراد الكاتب أن يبين أنه لابد أن ينال صاحب الفضل تقديره ، فإذا لم ينله فى عصره ، ناله فى الأعصر اللاحقة ، مؤكدا ملازمة حسن الذكر للفضل. ثم ذكر عن أحد الحكماء القدماء ما يدعم ذلك ، فى قوله :

(إن حسن الذكر لا يفتر عن ملازمة الفضل ، ملازمة الظلال للأجسام ، وهو مثلها فى حركتها وسيرها ، فتارة يكون من أمامه ، وتارة يكون من ورائه ، فإذا سكت عنك أهل عصرك ولم ينصفوك ، ولم يشهدوا لك بما أوتيته من الفضل ، لما يكون بهم من الحسد والبغض ، أنصفك من يأتى من بعدهم ، وردوا إليك حقك ، بخلوهم من كل هوى وغرض [٢]) .

---

(١) علاج النفس ص١١١ ، ١١٢

(٢) السابق صـ ١٣٤ ، ١٣٥ .

وحول الفكرة نفسها ـ وفى المقال نفسه ـ تناول الكاتب إنكار الناس ما ينفعهم من الفضل ، والانتصار لما يضرهم من الجهل ، وعدم إنصاف صاحب الفضل من أهل زمانه ، لجهلهم ونقصهم ... ثم استدل فى ذلك بقول الشاعر (جيلبير) :

« كم رأينا من صفات حميدة ، وآثار مجيدة ، لا يحلها الناس فيما بينهم محل ا لاستحسان ، ولاينظرون إليها بعين القبول ، وكم اجتمعوا على نبذ الحسن ، وأخذ القبيح ، لافرق فى الزمان والمكان ، فترى ذلك واقعا فى كل أمة ، وفى كل موطن ، وسواء فيه حديث الزمن وقديمه . فهل لهذا الداء يوما من دواء يشفى الناس منه ، ويرفع البلاء عنهم ؟! ما أظن أن لهم غير علاج واحد ، وهو أن ينقلب الأغنياء فى العالم أذكياء ، ويصبح الجهلاء حكماء . ولكن كيف يتيسر الانقلاب إلا بانقلاب الخلقة ، وتغير الفطرة ، وذلك غير ممكن الحدوث ، فلم يبق إلا الصبر والاحتمال لأولئك الذين لايحيطون بالأمور إلا من جهة النظر واللمس ، لا من جهة الفكروالعقل ، وهم لصغر نفوسهم لايزالون يرفعون كل جاهل سافل على كل عالم فاضل [١]) .

وفى المقال نفسه ـ كذلك ـ وفى صدد توجيه صاحب الفضل إلى التواضع، وعدم المباهاة بفضله بين الناس ، حتى لا ينأى بنفسه عن حقدهم وكراهيتهم إزاءه ... استشهدالمويلحى بقول (براشيان) :

(إذا أراد الإنسان أن يعيش فى راحة وسكون بين الناس ، فالطريقة الوحيدة لذلك ، هي أن يظهر فيهم مرتديا بجلد أضعف الحيوانات فطرة ، وأبسطها إدراكا [٢])

---

(١) علاج النفس صـ ١٣٦، ١٣٧

(٢) السابق صـ ١٤٦

ويصنف الكاتب الناس من حيث موقفهم ،من ذكرى الموت صنفين ـ في مقاله (كدر النفس) ـ منهم هؤلاء الذين يتذكرون الموت دائما ، لخشيتهم من وقوعه ، وخوفهم من نزوله ، فيتولاهم الرعب والفزع والهلع ... ثم يستدل بقوله تعالى : (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله . بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمى فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد ، وبرق ، يجعلون أصابعهم فى أذانهم من الصواعق حذر الموت .... [١]) .

وفى المقال نفسه ، وفى أثناء حديثه عن مدى تأثير سلطان الخوف والوهم فى النفس ، حتى يصل بها إلى الهلاك .. ثم استعرض المويلحى العديد من الأخبار والمواقف المؤيدة لذلك من بينها :

(... ما حكاه أحد المعلمين فى مستشفيات « لوندرة » من أن جماعة من طلبة المدارس أرادوا أن يسخروا من رجل كانوا يبغضونه فى المدرسة ، فعمدوا إلى حجرة مظلمة فى المدرسة ، ووضعوافى ركن منها حطباللوقود ، ووضعوا بجانبه فأسا محددة ، وجلس فى صدرها بعض الطلبة متشحين بالأردية السوداء التى تلبس فى مجالس القضاء ، ثم أدخلوا الرجل إلى الحجرة ، وأخبروه أنهم اجتمعوا لمحاكمته ، وأنهم أعدوا الحطب للإحراق ، والفأس للإعدام ، فظن الرجل فى أول الأمر أنهم يمزحون معه ، ولكن ما زالوا يؤكدون له أن الأمر جد ، وأن القضاة يبحثون الآن فيما يستحق من العقاب ، فوجل الرجل وجلا شديدا ، ونطق القضاة

---

(١) السابق صـ ١٧٤ .. وانظر سورة البقرة ، الآيات / ١٦ ـ ١٨ .

بحكم الإعدام ، وبتنفيذه فى الحال ، وتقدم الجلاد والفأس فى يده ، وباشر آخر عصب عينيه بعصابة ، ثم كتفوه وأركعوه إلى الأرض ، وعندصدور الأمر بالتنفيذ، لف أحد الطلبة قطعة من النسيج مبتلة بالماء ولمس بها قفاه ، يحاكى بها لمسة الفأس ، فتوهم الرجل أن القتل وقع عليه ، فارتمى على الأرض لا حراك به ، فكشفوا عن عينيه الغطاء وأخذوا بيده ليرفعوا ،فإذا به قد مات فعلا من شدة الرعب والخوف (١) .

وإذا تحدث المويلحى عن هؤلاء أصحاب النفوس العظيمة، التى تقدم المعروف حبا فى الخير ـ فى مقاله (المعروف) ـ تذكر قوله تعالى : (إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا (٢)) .

ثم يعرف الكاتب (الكريم) ـ فى المقال نفسه ـ بأنه الذى لا يمل السعى إلى الإعطاء فى كل وقت ، وأنه يرى نفسه كأنه الآخذ ، والآخذ منه كأنه المعطى ... متذكرا قول الشاعر (٣) :

تراه إذا ما جئته متهللا   كأنك تعطيه الذى أنت سائله

وحين يتناول الكاتب آداب الإعطاء ـ فى المقال نفسه ـ ويبين أن الإجابة قبل السؤال أولى وأفضل فى باب المعروف ، لأن ذلك يحمى صاحب الحاجة من ذل السؤال ، وكراهة الرجاء ... تمثل بقول الشاعر (٤) :

---

(١) علاج النفس صـ ١٨٢، ١٨٣ .

(٢) السابق صـ ١٩٢ ... وانظر سورة الإنسان ، الآية / ٩

(٣) علاج النفس صـ ١٩٨ . والبيت لزهير بن أبى سلمى ـ انظر ديوانه صـ ٥٧ .

(٤) علاج النفس صـ ٢٠٢, والأبيات لأبى العتاهية ـ انظر ديوانه صـ ٣٣١ ، مع اختلاف الرواية .

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله بدلا وإن نال الغنى بسؤال

وإذا السؤال مع النوال وزنته رجح السؤال وخف كل نوال

ويواصل المويلحى توجيهه أصحاب المعروف ، وترسيخه آداب الإعطاء ، فإذا ما تحدث عن هؤلاء الذين يتبعون المعروف بطول المن والتذكير به ، وبين أنهم أسوا أهل المعروف والإحسان عملا وأقبحهم فعلا ، لما فى ذلك من إثارة المهانة والحقد والكراهية ... تذكر قوله تعالى : (الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى ، لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . قول معروف خير من صدقة يتبعها أذى ، والله غنى حليم . يأيها الذين أمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كالذى ينفق ماله رئاء الناس ، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا ، لا يقدرون على شىء مما كسبوا ، والله لايهدى القوم الكافرين [١]).

هذه كانت طائفة من الأمثلة والاستشهادات الاستدلاية المتنوعة ، التى حشدها المويلحى فى كتاباته ، تأييدا لآرائه ، ودعما لحججه ، مما يدل على غزارة ثقافته وموسوعية فكره ، ويشير إلى مدى إلحاحه فى تأكيد المعنى وتجسيده فى صورمختلفة ـ شعرية أو نثرية ـ عملا على إقناع المتلقى والتأثير فى وجدانه .

ولكن ينبغى الإشارة إلى أن حشد الكاتب العديد من النصوص المختلفة ، الدائرة حول المعنى الواحد فى تضاعيف المقالة الواحدة ، قد يفكك وحدة المقالة البنائية على طريق الموضوع العام ، مما يفرض على المتلقى معاودة النظر وكد الذهن ، حتى يتمكن من الإلمام بأطراف المقالة ، والوصول إلى غاية الكاتب التى قصد إبرازها .

---

١٥) علاج النفس صـ ٢٠٨.. وانظر سورة البقرة ، الآيات / ٢٦١ ـ ٢٦٣ .

٤ ـ قوة حجته القياسية والاستقصائية :

كان المويلحى فى كثير من الموضوعات والقضايا التى تناولها ـ عرضا أو مناقشة ـ واضح التأثير بما شملها من جوانب فكرية فلسفية ، مما ألجأه إلى الأسلوب المنطقى ، فنراه فى عرض بعض الأفكار حريصا على بناء المقدمات الصحيحة ، التي تؤدى إلى حتمية النتائج من وجهة نظره .

بيد إنه كان ذا نزعة استقصائية فى معالجة الموضوعات من شتى جوانبها الواقعة أو المفترضة .

ومن ذلك ما نراه حين يريد أن يثبت أن الغضب ليس من لوازم الطبيعة البشرية ، مما يسهل على الإنسان مواجهته .. فيعرض ما يؤكد التناقض والتنافى بين الطبيعة البشرية ، وبين الغضب... فيقول :

« إن الإنسان من بين سائر الحيوانات ، أطبعها على اللطف، وأميلها إلى الرفق ، ما دام باقيا على فطرته وغريزته ، ومن كانت هذه حقيقته فلا قسوة فيه، والغضب قسوة ، ولا نرى محبة أكمل من محبة الإنسان للإنسان والعداوة كل العداوة فى الغضب، والإنسان حريص على السعى فى بقاء نوعه ، وفناؤه فى الغضب ، والإنسان ميال بطبعه إلى التجمع ، والغضب يشقه عن الجماعة ، والإنسان يرغب فى نفع غيره حتى يكاد يرمى بنفسه فى الأخطار لخلاص من يعرفه ومن لا يعرفه ، والغضبان يرضى أن يقع فى النيران إذا جر معه غيره ... فلا يكون الغضب حينئذ من لوازم الطبيعة البشرية [١]) .

---

(١) علاج النفس صـ ٣٤ ، ٣٥ .

ثم يقول فى موضع آخر مؤكدا ما ذهب إليه ، من أن الإنسان يستطيع مواجهة الغضب والتغلب عليه :

(...على أن الغضب ليس بالأمر الطبعى فى النفوس البشرية ، لأن ما هو طبعى لابد أن يبقى على الزمن ، والغضب يمحوه مرور الزمن عليه ، فهو ليس بطبعى ، وما لم يكن بطبعى ففى قدرة الإنسان التغلب عليه ، وما يمحوه الزمن بمروره يمحوه العقل بنور برهانه ...... (١)) .

كما تتجلى قوة حجة الكاتب المنطقية والفلسفية فى ردوده ومناقشاته ... من ذلك ما تراه فى صدد إثباته أن الغضب لا يمكن الاستعانة به فى بعض الأمور ... فيقول :

(الاستعانة بالغضب فى بعض الأمور ، مما لا تقتضيه الحكمة ، لأن الغضب شر ، ولا نفع يخرج من الشر ..... (٢)) .

ثم أخذ يفرق بين التقويم والتثقيف ، وبين الإيذاء . ويعرض بعض الآراء التى ذهبت إلى ضرورة الاستعانة بالغضب فى بعض الأمور ، ويناقشها مناقشة منطقية .

وذلك مثل قوله : قال بعض الحكماء : « إن للغضب مواضع يجب استعمال جزء منه فيها ،لأنه ينبه من النفوس حميتها ،ويدفع بالمرء إلى اقتحام الأخطارفى ميادين الحروب . وإذا لم يكن ثمة غضب ، فلايكون لشجاعة الأبطال فى المعارك من شأن يذكر ، وإن فى قدرة العاقل أن يقف منه عند الحد الذى يستعمله فيما يجب استعماله فيه (٣)) .

---

(١) السابق صـ ٩٦ .
(٢) السابق صـ ٣٥ ، ٣٦ .
(٣) السابق صـ ٣٦ ، ٣٧ .

وهنا يفند الكاتب هذا الرأى تفنيدا منطقيا ، بقوله :

« وهذا قول باطل ، لأن الغضب شر ، والفرار من الشر أيسر من القدرة عليه بعد الوقوع فيه ، والوقوع فى جزء منه عبارة عن الوقوع فى الكل ، لأن من لم يقدر على حماية نفسه من الوقوع فيه ، وهو خلو منه ، لا يقدر على وقفه عند حد محدود ، فإنه إذا خالط النفس أصبح أمراً لا مأموراً ، وحاكما لا محكوماً ، والعقل الذى ألقت إليه النفس مقاليدها ، وأسلمته زمامها ، ليهديها سواء السبيل ، لا يقوم بوظيفته إلا إذا تغلب على الأهواء النفسية ، أما إذا اختلطت به ، فلا يقدر على قيادة النفس فى طريق الحكمة ، لوجود مشارك مناقض له فى قيادتها (١)) .

فإذا ما فرغ الكاتب من تفنيده من الرأى السابق ، استعرض رأى أرسطو المخالف فى هذا الصدد ، وذكر مقاييسه .... فقال :

« وقال أرسطو : أى انتصار ينال فى الحرب بلا غضب ، وهو المحرك للحمية، المولد للشجاعة ؟! ولكن يجب أن يستعمل كاستعمال الجندى الذى يقاد لدى الرئيس الذى يقوده ...... (٢)) .

ثم دفع هذا الرأى ، وأخذ فى إبطاله ، فذكر ردود بعض الفلاسفة .. فى قوله (... فرد عليه بعض الفلاسفة بأن دعواه باطلة ، لأنه إذا كان الغضب يمتثل للعقل ويقاد به ، فليس هو بغضب ، لأن الغضب يعصى العقل ولا يتبعه ، والغضب من شأنه المقاومة ، فإذا اندفع بشدته ، فلا يمكن صده مطلقا ، ويكون بالنسبة للعقل

(١) علاج النفس صـ ٣٧ .
(٢) السابق صـ ٣٨ .

الجندى العاصى الذى لا يطيع إشارة قائده بالتقهقر ، فإما أن يكون الغضب قابلا لما يأمره به العقل من الاعتدال والوقوف عند الحد المطلوب ، وحينئذ لايسمى غضباً ، بل يجب أن يسمى اسماً آخر ، لأنه بهذه الحالة يخرج عن تعريف الغضب ، وهو من الأهواء النفسية التى لايمكن العقل كبح جماحها . وإما أن يكون خارجا عن سلطان العقل غير قابل لسلطته عليه ، فيكون شرا عظيما ، لا مساعدا معينا ، يرتجى منه أى نفع ، ولا وجه للتمثيل بالجندى ، لأن الجندى النافع يعرف كيف يطيع قائده ، باعتباره أعلى نظرا ، وأوسع منه علما ، والهوى النفسى لا يعرف كيف يطيع ، كما إنه لا يعرف كيف يحكم ، والعقل لا يقبل مساعدا له ، خارجا عن سلطته ، يكون من شأنه التهور والاندفاع بغير روية .... (١) .

ويستخلص المويلحى مما سبق بعض الافتراضات القائلة بمنفعة الغضب فى بعض الأحايين ، كما يستأنس بآراء الآخرين فى الرد على تلك الافتراضات ، مؤكدا عدم ضرورة الغضب ومنفعته فى جميع الأحوال ... فيقول :

« .... فإن ذهبت إلى أن الغضب ينفع إذا كان ملطفا محددا ، فكأنك اعترفت بأن فى ماهيته نفعا ، ولكن كيف يكون ملطفا وهو خارج عن سلطة العقل ؟ ولو فرضنا إمكان تلطيفه ، فما هو النفع المرتجى منه ، سوى أن يقال شر أخف من شر ! وكل هوى نفسى يمكن تلطيفه لا يقال عنه إلا أنه شر ملطف ـ وإن قلت إن للغضب ضرورة فى ساحة القتال ، قلت لك إن جازأن تستند إليه الضرورة ، فضرورته أبعد ما تكون عن القتال ، لأنه لا يلزم للقتال حدة عمياء ، بل الذى يلزم له شجاعة مهذبة بالنظام والتثقيف . أليس الغضب هو الذى يجعل المحاربين

---

(١) علاج النفسى صـ ٣٨ ، ٣٩

المتوحشين ، أولى القوة فى الجسم . والصبر على النزال ، أحط درجات فى ميدان الحرب ، أمام الجيوش المنظمة المدربة ؟! ... فما ضرورة الغضب إذن لأمر ينال بالعقل والتدبير ؟! .... (١)) .

ثم يفترض الكاتب سؤالا ويرد عليه ، فى قوله :

(فإن قيل لنا : ألا يغضب العاقل إذا رأى أباه قتيلا ، أو ابنه جريحا ، أو امرأته سبية ؟! قلنا إن الدفاع عن الأهل والاقتصاص لهم واجب ، والواجب لا يقبل شيئا يزيد فى وجوبه ، وإذا بلغ الواجب حده ، فلا مزيد عليه .

وكل الذين قالوا بمنفعة الغضب ، اعتقدوا أن الغضب يشحذ الحمية ، لأداء مثل هذا الواجب ، والعاقل يعرف الواجب عليه ، وكيف يقوم بأدائه ، وإلا فإنه إذا احتاج فى القيام به إلى محرك مثير أو محرض ، كانت معرفته به ناقصة ، وهذا مناف لصفة العاقل .

والأحكم ، والأقوم ، والأجدر ، بمن يقوم بأداء الواجب فى الدفاع عن أقاربه وأولاده وأصحابه ، وأهل وطنه ، أو الاقتصاص لهم ، أن يباشر ذلك ، بالتبصر ، والتروى ، وصحة الحكم ، لا بالتهور ، والتهيج ، والثوران ، وما شابه ذلك من لوازم الغضب . وكم أضل الغضب صاحبه عن نيل غرضه .... (٢)) .

ونقل المويلحى رأيا آخر لبعض الفلاسفة ، فى قوله :

(وقال أحد الفلاسفة : لا يستطيع الرجل الفاضل أن يمتنع من الغضب على الرجل الشرير ..... (٣)) .

---

(١) علاج النفسى صـ ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) السابق ص ٤٠ ، ٤١ .

(٣) السابق ص ٤٢ .

ثم فند هذا الرأى تفنيدامنطقيا وفلسفيا ... فقال :

(وعلى هذا القول يتعين ، أنه كلماازداد الإنسان فضلا ، ازداد غضبا ، وأى داع يدعو ذا الفضيلة إلى الغضب على فاعل الشر ، إذا علم أن الدافع له إلى ارتكاب الشر هو الخطأ ، ومن البعيد أن يرتكب الإنسان الشر لمجرد الشر حتى ولو كان بقصد سيىء ، إذ لا بد من غاية يقصد بها فاعل الشر جلب منفعة لنفسه ، والساخط على مرتكب الخطأ ، أولى به أن يسخط على نفسه أولا ، لأنه غير معصوم منه، ولو انتصف الإنسان من نفسه وحاسبها ، لوجد له أفعالا تستحق اللوم والتعزير، والعادل من يحكم على نفسه ، كما يحكم على غيره ، والأليق بالمحبة الإنسانية أن يظهر المرء عطفاعلى المذنب فيرشده الإرشاد الأبوى إلى سواء السبيل ، لا أن يتعقبه بالسوء والأذى . والواجب أن نمحض ذا الشر النصيحة ليكون النفع عائدا منه على نفسه وعلى غيره ، لا أن نقابل شرا بشر مثله ، فلا نفع فى مقابلة الشر بالشر .... (١)) .

وهكذا يندفع الكاتب إلى هذا الإلحاح فى عرض الموضوع من شتى جوانبه ، واستعراض ما قيل فيه ، مع الحرص على تفنيد الآراء القائلة بمنفعة الغضب ، وعدم تعارضه مع أصحاب الفضيلة ... فيقول :

(والإنسان الكامل لا يستفزه الغضب ، ولا ينفعل بأثر الحوادث فى نفسه ، ولا فى غيره . فإذا قلت : إن الكمال يقتضى الفضيلة ، وصاحب الفضيلة يغضب للرذيلة. قلنا : إن ذلك مدفوع بأن من أخص لوازم الفضيلة سعادة النفس، ودوام ارتياحها ، فهى بعيدة عن الغضب ، بعدها عن الحزن، وإذا كان نصيب العاقل أن يغضب لكل شر

---

(١)علاج النفس ص ٤٢ ، ٤٣ .

يراه ، فكلما ازداد الشر ازداد غضبه ، فينتج من ذلك أن تكون حياة العاقل غضبا وحزنا كلها ، فيصبح من أتعس الناس حظاً فى هذه الدنيا ، وذلك منافٍ لأخص لوازم الفضيلة (١)) .

ثم إذا عرض له بعد ذلك ما قد ينال من حججه ، عاد إلى عرضه فى هيئة اعتراض ، ليجيب عليه بما يقرر مقصده ... فقال :

(فإن قال قائل : إن فى الغضب ارتياحا ، وفى مقابلة الشر بالشر لذة . أنكرنا عليه ذلك كل الإنكار ، وقلنا له : إذا كان فى مقابلة الخير بالخير لذة ، وكان وجه المعروف والجميل جميلا ، فإن مقابلة الشر بالشر على النقيض من ذلك ، والكريم من يخجل من الانهزام فى ميدان الخير ، كما يخجل من الانتصار فى ميدان الشر [٢])

حتى إذا اطمأن المويلحى إلى أنه قد أتى على كل الاحتمالات المعارضة لوجهته ، ختم مناقشته حول هذه القضية بقوله :

« ولقد يتوهم بعض الناس أن من الغضب ما يدل على الشهامة والأنفة وعظم النفس ، وليس الأمر على ما يتوهمون ، لأن تأثر النفس بإساءة المسيء يحط من قيمتها ، وينزل بقدرها عن قدر المسيء ، والنفس العظيمة التى تعرف قدرها وتدرك كرامتها ، لا تتأثر من الإساءة ولا تكاد تحسها ، فالانتقام مفقود لديها ، لأن ما لا يحس لا ينتقم له ... (٣)) .

---

(١) علاج النفس ص ٤٥ .
(٢) السابق ص ٦٥
(٣) السابق ص ٨٩ ، ٩٠ .

على هذا النحو الأخلاقى الاستقصائى الفلسفى والمنطقى ، أخذ الكاتب يبين أن الغضب لا ينفع فى أى وجه من وجوه الحياة ، ويؤكد أنه يتعارض مع الفضيلة .... وكان ذلك من خلال تتبعه الآراء المتشابهة والمتكاملة ، بالرد والتفنيد .

والذى يؤخذ على الكاتب فى ذلك أنه لم يتناول هذه الآراء المتشابهة فى موضع واحد ، وإنما ناقشها فى مواضع شتى ، تخللها الكثير من الأفكار الجزئية الدائرة حول الموضوع العام ، فكان يستأنف ثم يقطع ، وهكذا .... دون أن يراعى الدقة المنهجية فى نقل الآراء أو فى الرد عليها ، على الرغم من قوة حجته المنطقية أو الفلسفية فى معالجة القضايا .

* * *

٥- براعته فى الاستنباط والتعليل :

لم يقف الكاتب فى معالجته القضايا والموضوعات عند حد رصد الظاهرة وتجسيدها أمام المتلقى ، ولا عند حد الاعتماد على الأسلوب المنطقى فى الإقناع بها أو الاقتناع برفضها . وإنما تجاوز ذلك إلى تعليلها وكشف أبعادها ، واستنتاج ما وراءها من آثار ودلالات .

من ذلك تناوله السبب وراء كتمان الناس فضل الفاضل ، وعدم إنصافهم إياه ، لا سيما من أهل زمانه ... مبينا أن ذلك يرجع إلى تباين أفكار الناس ، واختلاف ثقافاتهم ، وتفاوت أذهانهم ضيقا واتساعا ، كما يرجع إلى الجهل والحقد ... حيث يقول فى مقاله (السمعة والشرف) :

(والسبب فى ذلك أن الإنسان لا يمكنه أن يحيط من الأشياء إلا بما يناسب قريحته ويجانسها . ويكون وفق درجتها فى المعلومات ، فلا يناسب أرباب القرائح ذات الجمود إلا الأشياء الساقطة ، ولا تتسع أذهان العامة إلا للأمور التفهة . ولا يوافق أهل الغباوة إلا حديث الخرافة ، ولا يطيق الفكر القاصر العاجز ، أن يتصور ما يصدر عن الفكر الواسع الكامل ، وإنما تأخذ القرائح والفهوم ، ما تتسع له من المعارف والعلوم ، والقول الصحيح لا يستوى فى الفهم السقيم .....

وزد على ذلك أن انتشار الذكر بين الناس بفضل الرجل الفاضل يحط من قدرمعاصريه ، ويحط من شأنهم ، فهم يسعون ما استطاعوا فى كتمان فضله ، وانتقاص منزلته حتى لا تعلو على منزلتهم ، ولا تغلب على شهوتهم ، ولا يروق لمن كان حاصلا منهم على شيء من حسن الذكر أن يشاركه فيه خلافه ويزاحمه فيه نده (١))

وحول القضية نفسها أخذ الكاتب يبين ما نتج عن ضعف نفس أهل النقص ، وعداوتهم أهل الفضيلة (الحكماء والعلماء) ... مشيرا إلى أن ذلك أدى إلى تأخر أهل الفضل فى اعتلاء المناصب ، وضياع حقوقهم .... فقال فى ذلك :

(ولهذا السبب ترى أهل الفضل فى كل زمان لا ينالون حظهم ، ولا يدركون ما يستحقونه من المنزلة بين الناس ، ولا يتقدم بهم الحال إلى ارتقاء المناصب ، وعلو الدرجات التى لا تنال إلا بالتساعد والتعاون ، وسعى الناس بعضهم لبعض ، ولا يتيسر ذلك إلا لمن يسير على هوى الناس ، ويستميلهم إليه بما يرضونه من أنواع التملق وصنوف التزلف . وأصحاب الفضل ، كما علمت ، قوم لا يصبرون على ذلك ، ولا يسلكون سبيله ، ولا ينزلون أنفسهم هذه المنزلة ، ولا يضعونها فى مثل هذا

---

(١) علاج النفس صـ ١٣٦ ، ١٣٧ .

الموضع ، فإن إحساس النفس لفضلها يحدث فيها من الترفع والإباء ما يبعد بها عن هذه المواطن ، ويسمو بها عن حطة هذه الطرق والوسائل ، وإنه ليعز على صاحب الفضل أن يشهد على نفسه بفضل الجاهل عليه ، ليستميله إلى مساعدته ، ويجتذبه إلى معاونته ، بما يروق فى عين الجاهل من ارتفاع مقام الجهل على الفضل .... هذا هو السبب الأكبر فى تقدم أهل الغباوة والجهل ، على أهل النباهة والفضل ، فى كل عصر وجيل ، فإنهم لجهلهم وغباوتهم ، يخفون على الناس ، ولا يثقلون بمزية عليهم ، كما أنهم يتحملون كل تفاضل ، وتطيب نفوسهم لسلوك طرق النفاق والرياء ، واستعمال الأفانين التملق والخضوع ، فيستحسنون ما ليس بحسن ، ويحترمون ما ليس يحترم ، فتميل إليهم القلوب ، وترغب فيهم النفوس ، وينالون من المساعدة والمعاونة بين الناس ، ما يصلون به إلى علو المنزلة ، وارتفاع الدرجة .... (١))

ثم أضاف قائلا فى موضوع آخر فى مقال آخر (الصيت والذكر) :

(... والسبب فى ذلك أن الناس يرون أنفسهم متساوين فى الخلقة ، ويعز عليهم أن يقع التفاوت بينهم فى مزايا النفس ، فيتولد منهم لذلك ماشئت من التحاسد والتغابن ، وشدة التنائى عن الإقرار بالفضل لصاحبه ، وإشهادهم على أنفسهم باتصافه بمزية فى نفسه من دونهم ، والناس أعداء ما جهلوا ..... (٢)) .

وإذا ذكر الكاتب أن علو الشأن من جهة الأعمال الناشئة عن طريق الاتفاق فى وقائع الأحوال ، أقرب ما يكون بين الناس .... علل لذلك مبينا أنه يرجع إلى عدم فضل صاحب الشهرة والصيت لذاته . ومن هنا فلا محل للحسد والحقد .. فقال فى

---

(١) علاج النفس صـ ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٢) السابق صـ ٢١٩ .

مقاله (الصيت والذكر) :

أما اتساع الشهرة وانتشار الصيت ، من جهة الأعمال التى لا يكون لصاحبها فضل فيها لذاته ولا مزية ، فهو أقرب ما يكون ، وأيسر ما ينال بين الناس ، لأن الفضل فيها بينهم ليس للشخص ، ولا لمزية امتاز بها عن سواه ، بل الفضل فيها لوقائع الأحوال ، وتصرف الحوادث ، فلايبقى محل للحسد والغبن ، ولأن كل إنسان يرى نفسه أهلا لها ، فلا تمتنع عليه إذا صادفته لحظة من إقبال دهره ، وأدركته لمحة من حسن الاتفاق فى سيرته ، وفوق ذلك فإن مثل هذه الأعمال الناشئة عن أحكام الزمن ، وسلطان الحوادث ، هى من الأمور الشائعة المتداولة التى تتناولها كل الأفكار ، ولا يصعب على الناس خاصة وعامة سرعة إدراكها وفهمها ، فتكون الشهرة على حسب ذلك فى الاتساع والانتشار ......(١)) .

ويستخلص الكاتب من خلال تلك الوجهة السبب وراء علو شأن قواد الجند - مثلا - وارتفاع صيتهم أكثر وأسرع من غيرهم من العلماء والحكماء ، مؤكدا أن هذا يرجع إلى انحطاط الأفكار ، وقصور المدارك .... فيقول فى ذلك :

(وكل الناس يدركون معنى السعادة فى الغنى ، وقل من يدرك فيهم معنى السعادة فى الحكمة ، وكل الناس يدركون معنى الفوز والانتصار فى الحروب ، وليس كل الناس من يدرك معنى التعمق والرسوخ فى العلوم ، ولذلك ترى أن أكثر من ينال رفعة القدر ، وشهرة الذكر ، بين الناس ، فى أسرع وقت وأقرب مدة ، واتفاق الإجماع عليهم ، هم قواد الجند ، بقطع النظر عن كل فضيلة ومزية فيهم ...... (٢)) .

وحين ذهب الكاتب إلى أن فضيلة الشفقة تعلو بقية الأخلاق الفاضلة ، بل ومصدر الكثير منها ... راح يعلل لذلك ، ويقيم الأدلة التى تؤكد ما ذهب إليه ...... فقال فى مقاله (فضيلة الشفقة) ، فى استفاضة واستيعاب :

---

(١) السابق صـ ٢٢٠ .

(٢) علاج النفس ص ٢٢٠ ، ٢٢١ .

(.... والدليل على أن الشفقة من أفضل الفضائل طرا ، أن الفضيلة إذا بالغ الإنسان فيها وأفرط ، انتهى به طرفها إلى الرذيلة ، كفضيلة الشجاعة ينتهى طرفها إلى التهور ، وكفضيلة الحلم ينتهى طرفها إلى الجبن . إلا هذه الفضيلة ، فإنك كلما بالغت فيها وتطرقت ، تكامل بهاؤها وتجلى جمالها . ومن أقصى ما يمدح به الرجل الفاضل أن يحسن إلى من أساء إليه ، والشفقة فى كاملها إن تكاملت لا تفرق بين القريب والبعيد ، ولا يبين العدو والصديق ، ولا تتناول من تألفه النفس وحده ، بل تتناول من يخالفها وينافرها ، إذ تزيل مابين النفوس من الحجب، وتعتبر الناس فى تأثرهم بآلامهم على السواء .....

وفضيلة الشفقة هى مصدر لكثير من الفضائل ، وناهيك أن الفضيلتين اللتين هما جماع الخير بين بنى الإنسان فى الوجود ، واللتين نوه بهما الخالق عز وجل ، ونبه خلقه إلى اتباعهما ، وأخذ الناس بوجوب العمل بهما فى قوله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان .... (١)) . متولدتان عن هذه الفضيلة ، لأن الشفقة تكفنا عن مباشرة الأذى ، وتحجبنا عن إيقاع الإيلام بالغير ، فهى منبع العدل وذلك تعريفه ثم إنها تبعث النفس على تخفيف الآلام عن الناس ، وتدعو إلى فعل الخير معهم ، وهو أصل الإحسان وذلك تحديده ، كما إنها تدعو إلى المساواة بين الناس فى التألم لهم ، وتقررها كما يقررها العقل ، لان من أصول الشفقة أن يضع الإنسان نفسه فى منزلة غيره ، ويحل فى محله ، ويعنى بأحوال الناس عنايته بأحوال نفسه ، فيكره لهم ما يكره ، ويحب لهم ما يحب . وهذا هو معنى المساواة فى أكمل مظاهرها ، وكل ما كان من معان التكافل ، والتضامن ، والتعاضد ، والتعاون ، فى الجمعية البشرية

---

(٢) سورة النحل ، الآية / ٩٠ .

داخل تحت معنى الشفقة . وكفاها رفعة بين الفضائل أنها تتجاوزبالإنسان دائرة العمل بها فى الإنسانية ، إلى دائرة العمل بها فى الحيوانية ، وليس فى نظر الإنسان أبشع ولا أفظع من إيقاع الألم بالحيوان ..... (١)) .

هذه كانت بعض المسائل الأخلاقية التى غاص المويلحى فى تحليلها ، وتعليل أسبابها ، وتبيان أبعادها وآثارها . مما أسهم فى التأثير على عقل المتلقى ووجدانه ، وجعله يضع يده على أسباب ما يدور حوله من ظواهر وسلوكيات ، إيجابية أو سلبية .

* * *

٦ـ دقته فى عقد الموازنات:

والكاتب ـ فى سبيله إلى الوصول لمتلقيه ـ لم يكتف بالعبارة المصورة ، ولابتقديم الموضوع فى شتى معارضه ، ولا بالمناقشة المحاورة ، ولابالترتيب المنطقى القائم على الحجة والدليل.... ولكنه إلى هذا وذاك اعتمد على أسلوب الموازنة بين الأمور والأحوال ، حيث يوازن بين أمرين أو أكثر ، عملا على إيضاح أوجه الاختلاف والاتفاق بين الأمور المتشابهة أو المتداخلة ، وتجسيد المعانى والأفكار فى ذهن المتلقى .

ومن ذلك موازنته بين شرف السيرة وشرف الفضل ... حيث فرق بينهما ، وذهب إلى أن شرف السيرة من السهل الحصول عليه ، ولكن من الصعب أن يبقى ويدوم ، لكثرة تداوله بين الناس . أما شرف الفضل ، فمن الصعب الحصول عليه ، ولكنه

---

(١) علاج النفس صـ ٢١٤ ـ ٢١٦ .

يبقى خالدا ، نظرا لما يتميز به من عمق وذاتية ... فقال بعد أن تناول شرف المنصب وشرف الرتبة فى مقاله (السمعة والشرف) ، معللا ومكررا كذلك :

(.... وأما شرف السيرة ، فهو قيمة قدرنا فى أفكار الناس ، وحقيقة هذه القيمة حسن المعاملة للناس ، واحترام حقوقهم ، واجتناب الظلم ، والابتعاد عن ارتكاب الإثم فى سبيل منفعتنا ، وهذا الشرف معرض دائما للزوال ، ويكفى أن يصدر عن الإنسان عمل واحد يعيبه فيمحو ما تقدم من محاسن سيرته .... وأما شرف الفضل الذى ينتج عنه حسن الذكر وجمال الصيت ، فهو ما يفضل به الإنسان آخر فى نفسه . وهو وشرف السيرة أخوان ، إلا أنهما يفترقان فى أن هذا يزول ويفنى ، وأن ذاك يدوم ويبقى ، وفى استطاعة كل إنسان أن يتناول شرف السيرة ، ولكن ليس يمكن كل إنسان أن يحصل على شرف الفضل ، لأن الفضل فى الناس قليل نادر ، لا يكون إلا مستثنى فى أفرادهم ....

ومن هنا يتضح لك الفرق العظيم بين الحصول على اعتراف الناس بشرف السيرة ، لأنه لسهولة طريقه ، وكثرة اشتراك الناس فيه لايكون محلا للتحاسد والتنافر ، وبين الحصول على حسن الذكر ، للفضل الذى تمتاز به النفوس على سواها ، لما فى اعتراف الناس بعضهم لبعض بالفضل الذاتى من الغضاضة والكراهة ...

وإن كان الحصول على حسن الذكر بين الناس بفضل النفس الذاتى ، هو من أصعب الأمور وأبعدها منالا ، إلا أن دوام بقائه والمحافظة على وجوده ، من أيسر ما يكون . وهذا بخلاف شرف السيرة الذى يحصل عليه كل إنسان بأسهل طريق ، ولكن يصعب بقاؤه وطول المحافظة عليه عليه ، لأنه يزول فى الحال عند ارتكاب أى معيبة ، واقتراف أدنى جريمة .... ولكن شرف الفضل لا يمكن زواله أبدا ،

لأنه قد تم وكمل بمجرد حدوث الأثر الذى ظهر من فضل صاحبه ،ولو أنه اقتصر على هذا الأثر وحده ، ولم يتبع الأثر بأثر مثله .... (١)) .

وفى المقال نفسه تناول الكاتب الفرق بين وجهتى شرف الفضل : الآثار الأدبية ، والأعمال المادية .... وانتهى إلى أن الآثار الأدبية أبقى وأفضل، نظرا لقيمتها الذاتية ، أما الأعمال المادية ، فيمحوها الزمن ويحرفها ، لأنه ليس لها قيمة فى ذاتها .... فقال فى تفصيل واستيعاب :

(.... وهذا الشرف يتكون لصاحبه من وجهتين ،من وجهة الآثار الأدبية ، ووجهة الأعمال المادية ، ولكل منهما وفوائد،ومصاعب ومشاق ، خاصة بهما لاتفارقهما ولاتزايلهما ، والفرق الكلى بينهما أن الآثارالأدبية تبقى بنفسهاعلى أصلها خالدة عن الدهر ، وأن الأعمال المادية لا يبقى منها إلا ذكراها وحده ،مهما كان العمل عظيما، وشأنه رفيعا ، ثم تتضاءل وتضمحل ويمحوها الزمن بمروره عليها ، إن لم يقيدها التاريخ ، فيرويها للأجيال على التحريف والتحويل .كما نرى ذلك واضحا بين أهل الفتوحات من القواد والملوك ، وبين أهل التأليف والتصنيف من العلماء والحكماء ، ولابقاء على الدهر مثل بقاء الصحف المكتوبة . والكتب المسطورة .

ثم إنه لابد للأعمال المادية من علل وأسباب تتولد عن ظروف الأحوال ، وأحكام الأزمان ،لايتم تكوينهاإلابها ، فشرفها وحسن الذكر بها، ليس هو عنها فى ذاتها ،بل لما كان حولها من الظروف والحوادث التى تكسبها قيمة وتكسوها رواء . وهى من جهة أخرى من الأمور العامة التى تتناولها جميع الأفكار ، وتحيط

---

(١) علاج النفس صـ١٣١، ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٣٨ .

بها جميع الفهوم ، ولحسن الاتفاق فيهاشأن كبير .

وأما الآثار الأدبية ، فلاحكم للحوادث عليها ،ولا تأثير للظروف فيها ، ولا يتعلق أمرها بغيرصاحبهاوحده، وهى لا يعتورها نقص ،ولا يعتريها خلل ، بل تبقى مابقيت على حالتها الأصلية التى وضعها عليها الواضعون . وإنما الصعوبة هنا فى تقديرهابين الناس حق قدرها، ووضعهافى المنزلة التى تستحقها ، وليس يخفى أنه كلماكانت الآثار رفيعة جليلة فى الأفكار ، قل عدد من يحيط ، ويتأهل للحكم عليها ،وقدلايوجد فى كل وقت من يكون أهلا لتقديرها ،وقد يوجد ، ولكنه يميل فى حكمه إلى الجور، وينحرف به الهوى عن الإنصاف ، ولكن مع ذلك لا بد أن يصل إليها حقها ، فإن لم تنله فى عصرها الحاضر نالته فى الأعصر اللاحقة ،بين أهل الخلوعن الغرض من ذوى الرأى والحكم ، وأرباب المعرفة والفضل .. (١))

وهكذا نجد أن الموازنة بين الأمور المتشابهة أو المتقاربة ،كانت عند المويلحى ذات وظيفة بيانية ، حيث جعل منها وسيلة تصويرلتجسيد أوجه الاختلاف والاتفاق ، وتبيان الأفضل بينهما ، فكان ذلك مع حرصه على التعليل والتفصيل المستوعب ، أبلغ فى بناء مقالاته ، وأملك لناصية التأثير والإقناع .

* * *

٧- أسلوبه التصويرى الكاشف:

على الرغم من أن الكاتب قد تناول الكثير من الموضوعات الفلسفية الشائكة ، والقضايا الفكرية والاجتماعية المتشبعة ، فإن أسلوبه - من حيث الألفاظ

---

(١) السابق ص ١٣٢ - ١٣٤ .

والتراكيب والصور - قد خلى من الغموض والرمزية والإيماء ، واتسم بالوضوح والإبانة والمباشرة . كما إنه مزج بين الترسل والتحرر من قيود الأصباغ البديعية المتكلفة ، وبين بعض المحسنات اللفظية العفوية - التى لم يقصدها الكاتب لذاتها ، وإنما سخرها لمقصده وغايته فى إيضاح المعنى وتأكيده - وبين الصور الفنية المعبرة التى جسد فيها الكاتب المعانى والأفكار فى ذهن المتلقى ، فجمع فى أسلوبه بين الإمتاع والإقناع والتأثير .

من ذلك قوله مجسدا ماهية الفضيلة ومصادرها وأصولها وقيمتها فى مقاله (بساطة الفلسفة) :

(والفضيلة تنحصر بالإجمال فيما يجب على الإنسان للإنسان ، وفى قيمة الأشياء فى حد نفسها ، فى تأثير الأشياء فى النفس، وإحساس النفس إياها ، وفيما يصدر عنها من الأعمال، وفى أن نعلم المعنى المسمى خيرا ، وهو الأمر المرغوب فيه لذاته ، والمعنى المسمى شرا ، وهو المرغوب عنه لذاته ، والمعنى المسمى نافعا ، وهو السبب المؤدى إلى الخير ، والمعنى المسمى ضارا ، وهو السبب المؤدى إلى الشر . وكل إنسان فى الوجود قادر على مزاولة الفضيلة ، والسير فى طريقها ، وقد وضع الله سبحانه وتعالى بذورها فى فطرة الإنسان ، وغرس جذورها فى الصدور ، لتنمو فيها بالممارسة ، ولكن من سوء حظ الإنسان أن انحرف عن الطبيعة ، وتسلل من الغريزة ، واستسلم للأهواء الباطلة ، والأوهام الفاسدة ، فغطت على بذور تلك الفضيلة ، ونمت مكانها بذور الرذيلة (١)) .

---

(١) علاج النفس ص ٢٦ .

على هذا النحو اتسم أسلوب الكاتب بالتنميق والإيضاح الكاشف ، الذى تخلله بعض الصور الفنية المعبرة عن حقيقة الفضيلة التى فطر الله الإنسان عليها ، وأسباب انحراف الإنسان عنها .

وانظر إلى قوله موجها الإنسان إلى كيفية معالجة نفسه ، والارتقاء بها نحو أسباب السعادة ... حيث قال فى المقال نفسه :

(.... فكان لا بد للإنسان فى معالجته نفسه ، أن يرتد إلى حكم الطبيعة ، وأن يبحث ويفكر ، ويحكم عقله ، ويشحذ إرادته ، ويغلب القوة الحاكمة على القوة الواهمة ، ويكشف بنور الحقيقة ، ظلمات الجهل والوهم ، ويروض نفسه على أحكام الفضيلة ، فلا يشحن نفسه بالرغبات ، ولا يضعفها بالرهبات ، ولا يسلمها للهموم والغموم ، ولا يتركها للجزع والفزع ، لا يعرضها للوساوس والهواجس .... [١])

على هذا النحو البيانى ينبض أسلوب الكاتب بالمحسنات البديعية العفوية ، القائمة على العبارات القصيرة المسجوعة ، والتى أفرزت بعض الصور الأدبية التجسيدية مما عمل على التأثير فى وجدان المتلقى وعقله .

وانظر إلى تجسيده صورة الغضب المنفرة ، وتبيانه قبح هيئة الغضب ، وذلك فى عبارات قصيرة مسجوعة مقسمة متلاحقة ، تعكس مدى اختلال اتزان الغاضب ، واضطرابه العقلى والنفسى والجسدى ... فقال فى مقاله (الغضب) :

(.... وإنك لو نظرت إلى الغضبان ، وهو فى اختلاط عقله ، واختباط جسمه ، وتقلص شفتيه ، وبحة صوته ، وازدحام أنفاسه ، واحتدام وجهه ، وانتفاخ

---

(١) علاج النفس صـ ٢٨ .

أوداجه ، وارتعاش يده ، واضطراب أعصابه ، وخفقان قلبه ، وغليان دمه ، وقذف فمه بالزبد وعينه بالشرر ..... لحكمت حكما قاطعا ، بأن المجنون أسلم عقبى ، وأقرب منه إلى الحسنى ..... [١]) .

وفى المقال نفسه يصور الكاتب مدى خطورة الغضب ، الذى يكظمه صاحبه فى صدره ، دون أن يتداركه بعقله .... فيقول :

(.... وأشده ما يبقى محصورا فى الصدر ، يزحم بعضه بعضا ، فلا يلبث أن ينفجر بالتهور والجنون ، انفجار المرجل انحصر فيه البخار .... والغضب إذا ابتدأ فى النفس ، ولم يتداركه الإنسان بفضل عقله ، اشتعل اشتعال الحريق ، واندفع اندفاع السيل ، اخترق النفس اختراق الصاعقة للمادة ..... [٢]) .

وفى مقاله (ساعات الحياة) ، راح الكاتب يصور أهمية الزمن الذى يعيشه الإنسان ، مما يتعين عليه أن يتمسك به ، ويضن فى إسرافه ، ويحرص عليه من العبث والغفلة والإهمال أشد الحرص ، قبل أن يفتك به الموت ، الماثل فى انقضاء أيام العمر لحظة بعد لحظة .... فقال موجها :

(وإذا أنت رجعت إلى نفسك ، وجمعت ما تشتت من أفكارك ، ونظرت نظرة الحكيم إلى أوقات حياتك ، رأيتها إما مسلوبة منهبة منك ، أو ضائعة تحت طيات الغفلة ، أو متروكة بإهمالك .وأسوأها حالا ، وأكبرها معرة ، ما ذهب منها بطريق الإهمال ، وعلى ذلك فكل العمر ينقضى فيما لا ينبغى ومن ذاك الذى يعرف قيمة الزمن ، ويقدر الحياة قدرها ، ويعلم أن كل لحظة هى جزء من فنائه ،

---

(١) السابق ص ٣١ ، ٣٢ .

(٢) السابق ص ٣٤ ، ٩٦ .

أن أنفاس المرء خطاه إلى أجله ، والخطأ كل الخطأ أن نظن الموت أمامنا ، وقد مضت أجزاؤه من ورائنا ، لأن ما يذهب بالانقضاء من العمر هو فى الحقيقة الموت بذاته ، فإذا أدركنا ذلك وتنبهنا إليه ، قبضنا على أوقاتنا قبض البخيل على دراهمه، وأنفقنا منها ويدنا ترتعش كما ترتعش يد الشحيح عند الإنفاق ، ولئن كان البخل بالمال رذيلة ، فالبخل بالعمر فضيلة.. [١]) .

أرأيت براعة المويلحي في تجسيده أهمية الوقت ، وتوجيهه الإنسان إلى ضرورة المحافظة على أيام حياته من العبث والغفلة ، قبل أن يلتهمها الموت . وكم كان الكاتب بارعا فى تصويره حقيقة الموت ، الذى ينمو من رائنا ، وليس أمامنا ، مبينا أن أنفاس المرء ما هى فى حقيقة الأمر إلا جزء من انقضاء الحياة . كما كان الكاتب أكثر براعة فى تلك المقابلة التصويرية بين رذيلة البخل بالمال ، وفضيلة البخل بالعمر ، فاستطاع الكاتب بذلك أن يملك حواس المتلقى ، ويوجهه إلى مقصده .

وفى المقال نفسه جسم الكاتب أسبابا نكد عيش الإنسان ، مبينا أنه بأطماعه يشحذ همه كله إلى التطلع نحو المستقبل المجهول ، غافلا ماضيه وحاضره ، مما يجعله مشتتا بين الواقع والمجهول ، فيخسر بذلك حاضره ومستقبله معا .... حيث قال :

(ولكن من سوء حظ الإنسان ، ونكد عيشه ، أنه ينسى الماضى ، ويذهل عن الحاضر ، وينصرف همه كله إلى هذا المستقبل المجهول ، فيعيش فى الوهم الباطل حتى تدركه منيته ، فترى الواحد منا إذا اضطجع فوق فراشه ، فتح لعينيه باب الخلود ، فيلج فى ما لا نهاية له من الآمال الأمانى ، وابتناء القصور والعلالى ، فى خياله ، بعد أن قضى نهاره فى هدم بناء العمر . فيقتل لذة العيش الحاضر ، ارتكانا على حياة

---

(١) علاج النفس ص ١٠٤ .

المستقبل ، ويحرم نفسه التمتع باللذة القائمة ، انتظارا للذة غائبة ، فيبيع عاجلا بآجل ، وحقيقة بوهم ، ولو أن مستقبل العمر كان مضمونا ، ونعيم العيش فيه محققا ، لكان من العبث ، وأفن الرأى ، أن يشتغل الإنسان بشىء قبل حدوثه ، ويرمى لأجله بما فى يده ، من الشىء الحاضر هباء منثورا ، فما بالك والمستقبل مجهول موهوم ، والعيش فيه مغيب مكنون ؟! ولا يزال الإنسان هكذا هائما فى العيش الباطل ، حتى يدركه الأجل الحق فيموت ، وهو لم يعيش بعد..... (١)) .

هكذا اتسمت عبارات الكاتب بالسهولة والوضوح ، وقوة التأثير المتمثل فى بعض الصور الفنية ، التى جسد فيها أهمية القناعة بما هو شاخص ، وحتمية الابتعاد عن الأوهام والمطامع المستقبلية المجهولة ، حتى ينأى بنفسه عما يكدرها ، ويحفظها من التشتت والضياع .

وفى مقاله (السمعة والشرف) ، راح المويلحى يجسد المعانى المختلفة حول الوجه الصحيح والوجه الباطل من شرف الفضل ... حيث قال :

(.... هذا ، وكلما كان شرف الفضل حسن الذكر بطىء الانتشار ، كان رسوخه باقيا على الدوام ، كالشجرة التى تنمو قليلا قليلا وتتأثر جذورها ، فتعلو فروعها ، وما يكون منه سريع الانتشار سهل الحصول ، فهو كالنباتات التى تزرع وتقلع فى فصول العام . وأما القسم الباطل منه الذى لا يقوم على غير أساس ، فهو كالحشائش الضارة بين الزرع ، تظهر وتنتشر فى لمحة واحدة ، ثم تصبح هشيما تذروه الرياح ..... (٢)) .

---

(١) السابق ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٢) علاج النفس ص ١٣٥ .

أرأيت ريشة الكاتب البارعة فى تصوير هذه اللوحة الفنية النابضة ، التى جسد فيها ثلاث صور متداخلة فى آن واحد ... حيث شخص الوجه الصحيح من شرف الفضل ، الذى ينمو بطيئا ، ويصعب الحصول عليه ، بأنه فى ثباته وصلابته أشبه بالشجرة العتيقة ، التى تنمو فى زمن طويل ، فتضرب بجذورها فى أعماق الأرض ، وتعلو بفروعها نحو السماء . كما جسم الوجه الصحيح الثانى من شرف الفضل ، الذى ينتشر بسرعة ، ويسهل الحصول عليه ، بأنه فى منفعته وسرعة زواله أشبه بالنباتات التى تزرع وتقلع فى زمن قصير . ثم صور الوجه الباطل من شرف الفضل ، الذى ناله من لا يستحقه ، بأنه مثل الحشائش الضارة التى تنمو وتتسلق بين النباتات عشوائيا ، ولكنها سرعان ما تنمحى وتبددها الرياح .

وإذا أراد الكاتب أن يوجه صاحب الفضل والذكاء إلى دائرة التواضع ، وعدم الزهو بالنفس ، حتى لا يشعل فى الصدر نار الحقد الحسد . أخذ فى تبيان ما يحمله أهل النقص والجهل لأصحاب الفضل من عداوة ، وذلك من خلال تلك المقابلة الرائعة التى عقدها بين الجمال النفسى والجمال المادى ، وبين القبح النفسى والقبح المادى ... حيث صور أهل النقص بالمرأة متواضعة الجمال ، التى تكره مجالسة الجميلات ، حرصا على شعورها وكيانها .. فقال فى مقاله (السمعة والشرف) كاشفا ومنبها :

« وإذا كان من شأن أصحاب الفضل والذكاء ، ألا يلتفتوا إلى حسد الحساد ولا يكترثوا بهم ، ولا يثير فيهم ما يأتونه معهم من آثار العداوة والبغضاء ثائرة الحقد والغيظ ، بل تكون معاملتهم لهم دائما معاملة الشفقة والرحمة ، فإن أهل الحسد والنقص لا يزدادون إلا عداوة لهم وكراهة ، ولا يميلون أبدا إليهم ، ولا يأنسون إلا بمن يكون على مثالهم ، أو أدنى منهم طبقة ، فى قلة الفضل ،

وضعف الذهن ، وهم يفضلون فى المعاشرة والمصاحبة والمخالطة ، أهل الغباوة والجهل .. كالمرأة المتوسطة فى الجمال لاتميل فى المعاشرة والمصاحبة إلى من تكون أجمل منها خلقة ، وألطف منها شكلا ، بل همتها على الدوام أن تختار لها فى ذلك ، من كانت دميمة الوجه مشوهة الخلقة ، ليتجلى للأنظار فضل حسنها عليها بالمقارنة والمضاهاة . فكل امتياز فى الرجال بالفضل والذكاء ، يدعوأهل النقص والجهل إلى إقصاء صاحبه ، وإظهار البغض له ، وافتراء المفتريات عليه ، وبذل الجهد فى نسبة النقائص والمذام إليه ، وكل امتياز فى النساء بالحسن والجمال يدعو إلى التباعد والتنافر بينهن ، ويهيج الحسد والبغض فيهن ، فإن ميزة الحسن والجمال عندهن ، كمزية الفضل والذكاء فى الرجال .....(١)) .

على هذا النحو اعتمد المويلحى فى أسلوبه من حيث الألفاظ والعبارات ، على الإبانة والإيضاح فانتقى كلماته الموحية ، وعباراته الكاشفة ، وصوره المشخصة المؤثرة ، بعيدا عن الالتواء والغموض والتكلف ، فوضع يد المتلقى على المعانى التى أراد توجيهه إليها .

* * *

وبعد .... فلعلنا بعد التعرف على مقالات المويلحى فى علاج النفس - تحليليا ونقديا - نستطيع أن نتبين إمكاناته الفكرية والبيانية الهائلة ، مما مكنه من التغلغل فى أعماق النفس البشرية ، على هذا النحو . كما نستطيع أن نقرر غلبة غاية الكاتب الإصلاحية الأخلاقية على النزوع الفلسفى المحصور فى دائرة الفكر المجرد ، ومجالات النظر العقلى .

---

(١) علاج النفس صـ ١٣٥ .

فالمقالات تقدم تجارب ذاتية ، عانى منها الكاتب ، وانفعل بآثارها ـ على ما أشار فى مقدمته ـ حتى أصبح ذا موقف عاطفى تجاهها ، ثم راح يجترها ، ويعيد النظر المتأمل فى أبعادها ، ليبرز مناشئها ويشخص آثارها ، مستبطنا هذه الآثار من ذات نفسه أو ممن حوله من الناس ، ليصف وسائل التخلص مما هو مؤلم ، ويجسد أسباب السعادة والطمأنينة .

وهذا يكشف عما أوتيه الكاتب من عين ناقدة نافذة ، استطاع بها أن يرصد الواقع المحيط ـ سواء كان واقعة الذاتى ، أو واقع مجتمعه ، أو واقع المجتمع الإنسانى فى عمومه ـ ويستقرىء ما يلم به من أدواء ، فيقوم بتشريحها والبحث وراء أسبابها ، والعلاج الحاسم لها ، حتى ليمكن أن يوصف هذا العمل بأنه نوع من الترجمة الذاتية ، التى تكشف عن طرف من حياة الأديب .

ولذلك لم يكن غريبا اشتمال هذه المقالات على تلك النظرات الإنسانية الواقعية ، والتعلق بالمثاليات ـ سواء كانت من الممكنات الميسورة ، أو كانت من المستحيلات عسيرة التحقيق ـ التى من شأنها تهذيب النفس وإصلاحها والارتقاء بها نحو عالم يشع بالحق والجمال والخير .

* * *

المصادر والمراجع

١ - الأدب العربى المعاصر فى مصر - د . شوقى ضيف - دار المعارف - الطبعة العاشرة - سنة ١٩٩٢ م .

٢ - أسرة المويلحى وأثرها فى الأدب العربى الحديث - د . يوسف راميتش - دار المعارف سنة ١٩٨٠ م .

٣ - تاريخ الأدب العربى فى العصر الحاضر - د. إبراهيم على أبو خشب - الهيئة العامة للكتاب - الطبعة الثالثة - سنة ١٩٨٤ م

٤- حديث عيسى بن هشام - محمد المويلحى - دار الشعب - سنة ١٣٤١ هـ - ١٩٢٣ م.

٥- دراسات أدبية - د . محمد رجب البيومى - مطبعة السعادة سنة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

٦ - ديوان ابن الرومى - اختيار وتصنيف كامل كيلانى - المكتبة التجارية بمصر ، مطبعة التوفيق الأدبية - سنة ١٩٢٤ م .

٧ - ديوان أبى الطيب المتنبى - ضبطه ، وصححه ، ووضع فهارسه : مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبيارى ، وعبد الحفيظ شلبى - ج ١ - الطبعة الثانية - طبع الحلبى بمصر - سنة ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦ م .

٨ - ديوان أبى العتاهية - دار صادر بيروت - سنة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

٩ - شعر زهير أبى مسلمى - تحقيق د . فخر الدين قباوة - دار الآفاق الجديدة ، بيروت - الطبعة الثالثة - سنة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م .

١٠ - علاج النفس - محمد المويلحى بك - مطبعة فؤاد - الطبعة الأولى .

١١ - مختارات المنفلوطى - جمع مصطفى لطفى المنفلوطى - مطبعة الاستقامة بمصر - الطبعة الثانية - سنة ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م .

١٢ - المويلحى الصغير - حياته وأدبه - عبد اللاه عبد المطلب - الهيئة المصرية العامة للكتاب - سنة ١٩٨٥ م

ثانياً: البحوث اللغوية

العوامل المعنوية

بين البصريين والكوفيين

دراسة ميدانية لبيان قيمة العامل فى النحو العربى

الدكتور / الحسينى محمد الحسينى القهوجى

المدرس بقسم اللغويات

بكلية اللغة العربية بالمنصورة – جامعة الأزهر

رمضان سنة ١٤١٦هـ فبراير ١٩٩٦م

العوامل المعنوية بين البصريين والكوفيين

دراسة ميدانية لبيان قيمة العامل فى النحو العربى

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وأفصح العرب أجمعين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ..

وبعد،

فإن (العامل) أصل من الأصول النحوية التى اعتمد عليها أسلافنا النحاة فى وضع القواعد النحوية وإحكامها وتوضيح العلاقة بين كلمات الجملة العربية وهو الأساس التى بنى عليه إمام النحاة كتابه الذى اتخذه النحاة إماماً لهم فنهلوا منه واغترفوا من معينه الذى لا ينضب.

وقد اختلفت كلمة متأخرى النحاةوالمحدثين فى العامل مابين مؤيد له ومعارض، وأكبر الظن أن الذى دفع المعارضين إلى ما ذهبوا إليه ما وجدوه من التأويل والتقدير عندما لا يوجد فى الكلام ما يصلح للعمل، وقد دفعنى ذلك إلى النظر فى العوامل النحوية غير الموجودة فى الكلام، فوجدتها نوعين، عوامل لفظية محذوفة إما وجوباً كعامل المنصوب على الاشتغال، وإما جوازاً كما فى قولك: (زيدا) فى جواب: من أكرمت؟ وعوامل معنوية ليس لها صورة فى اللفظ، وهى متفرقة فى أبواب النحو، فأردت أن أجمعها فى بحث مستقل يوقف الباحث عليها دون عناء أو مشقة، ويغنيه عن تتبعها فى أبواب النحو المتعددة، وبدأت

بالعوامل المعنوية، لما فيها من مذاهب شتى، ولما دار حولها من خلاف وجدال كبيرين، فقمت بعمل حصر لها، وبينت مذاهب نحاة البلدين وغيرهم فيها، وذكرت معمولات كل منها وقد كان لتحديد مفهوم العامل أثر كبير فى هذا الخلاف الذى دار حوله، فقد ذهب أكثر النحاة إلى أن قولنا (عامل) لا يعنى أنه يعمل فى المعمول، وإنما يعنى أنه قرينة وإمارة وعلامة يراعيها المتكلم فيرفع أو ينصب أو يجر أو يجزم، ولذا ذهبوا إلى ضرورة القول به، وحسب بعض العلماء أن قول النحاة (عامل) معناه أنه هو الذى يعمل ويؤثر فى المعمول، ومن ثم ذهبوا إلى نفيه ودعوا إلى إلغائه، ولذلك قدمت تعريفاً للعامل وبياناً للمراد منه، وتوضيحاً لمواقف النحاة منه، ثم بينت أنواعه التى ذكرها النحاة.

معنى العامل:

حدد معناه الشيخ خالد الأزهرى بقوله: "والعامل فى اصطلاح النحويين ما أوجب كون آخر الكلمة مرفوعاً أو منصوباً أو مجروراً أو ساكناً، نحو: جاء زيد، ورأيت زيدا، ومررت بزيد[١]".

وعرفه صاحب كتاب (إظهار الأسرار[٢]) بقوله: "العامل ما أوجب بواسطة كون آخر الكلمة على وجه مخصوص من الإعراب"، ثم

---

(١) شرح العوامل المائة النحوية فى أصول علم العربية للجرجانى: ص١٤١، ١٤٢.

(٢) هو محمد بن بير على البركى المتوفى سنة ٩٨١هـ وله مصنفات كثيرة فى النحو منها غير الإظهار امتحان الأذكياء، وشرح لب اللباب فى الإعراب

ذكر أن قوله (بواسطة) المراد منه مقتضى الإعراب، وهو فى الأسماء توارد المعانى المختلفة عليها وفى الأفعال المشابهة التامة للاسم، ولا تكون إلا فى المضارع[(١)].

وإذا نظرنا إلى قول كل منهما فى التعريف (ما أوجب) علمنا أن العامل ليس هو محدث الإعراب كما زعم ابن مضاء وغيره ممن دعوا إلى حذف العامل من النحو، وقد صرح بذلك متقدموا النحاة، فذكروا أن العامل الحقيقى هو المتكلم، فهو الذى أحدث الرفع أو النصب أو الجر أو الجزم، وأن هذه الأشياء التى أطلق عليها عوامل ما هى إلا إمارات وعلامات يراعيها المتكلم فيرفع أو ينصب أو يجر أو يجزم.

فنجد ابن جنى يقول: "ألا تراك إذا قلت: ضرب سعيد جعفرا، فإن (ضرب) لم تعمل فى الحقيقة شيئاً، وهل تحصل من قولك (ضرب) إلا على اللفظ بالضاد والراء والباء على صورة فعل، فهذا هو الصوت، والصوت مما لا يجوز أن يكون منسوباً إليه الفعل .. فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم إنما هو للمتكلم نفسه، لا لشىء غيره[(٢)]".

ونجد فى كلام سيبويه إشارات عديدة إلى أن العامل إنما هو المتكلم، فنجده ينسب الرفع أو النصب أو غيرهما إلى المتكلم، حيث

للبيضاوى، وشرح مختصر الكافية فى النحو، والعوامل فى النحو، انظر: الإعلام: ٦١/٦، ومعجم المؤلفين: ٢٣/٩، وهدية العارفين: ٢٥٢/٢.

(١) إظهار الأسرار: ص٤٨.

(٢) الخصائص: ١١٠/١، ١١١.

يقول: "فإنما رَفَعَ لأنه لم يجعل القليل مطلوباً، وإنما كان المطلوب عنده الملك، وجعل القليل كافيا، ولو لم يرد ذلك ونصب فسد المعنى[١]".

ويقول فى باب ما يضمر فيه الفعل: "ومنه أن ترى الرجل أو تخبر عنه أنه قد أتى أمراً قد فعله، فتقول أكل هذا بخلا، أى: أتفعل كل هذا بخلا، وإن شئت رفعته فلم تحمل على الفعل، ولكنك تجعله مبتدأ[٢]".

وقد صرح ابن الأنبارى بأن العوامل لا عمل لها وإنما هى إمارات ودلائل، فقال: "إنما قلنا إن العامل هو الابتداء، وإن كان الابتداء هو التعرى من العوامل اللفظية لأن العوامل فى هذه الصناعة ليست مؤثرة حسية كالإحراق للنار والإغراق للماء والقطع للسيف، وإنما هى إمارات ودلالات، وإذا كانت العوامل فى محل الإجماع إنما هى إمارات فالإمارة تكون بعدم شيء كما تكون بوجود شيء[٣]".

فالعامل ما هو إلا وسيلة نتبين بها الارتباط والعلاقة بين الأجزاء التى تتركب منها الجملة وأما إطلاق النحاة على الكلمة الطالبة لغيرها عاملة فيها إذا صحب هذا الطلب تأثر، وإطلاقهم على المطلوبة المتأثرة معمولة فاصطلاح أو عرف لغوى دفع إليه وجود العمل مع وجودها وزواله مع زوالها.

---

(١) الكتاب: ٧٩/١.

(٢) الكتاب: ٢٥٨/١.

(٣) الإنصاف فى مسائل الخلاف: ٤٦/١، وانظر شرح الكافية للرضى ٢١/١.

والعمل اصطلاح نحوى يعنى أن بين العامل والمعمول ارتباطاً معنوياً يعين وظائف الكلمات فى التراكيب ويفسر العلاقة بين أجزاء الجمل، وعناصر التراكيب اللغوية المختلفة.

العامل بين المؤيدين والمعارضين:

وقد ثار جدل كبير حول نظرية العامل، وأول من أثار القضية ابن مضاء الذى قال فى مقدمة كتابه (الرد على النحاة): "قصدى فى هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغنى النحوى عنه وأنبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه، فمن ذلك ادعاؤهم أن النصب والخفض والجزم لا يكون إلا بعامل لفظى، وأن الرفع منها يكون بعامل لفظى وبعامل معنوى[(١)]".

لكنه حين ثار على العامل وحاول إلغاءه لم يقدم لنا ما يحل محله فى بيان علاقة أجزاء التراكيب، بل لا أكون مبالغاً إذا قلت إنه عند التطبيق عاد إلى ما كان عليه النحاة و لم يخالفهم إلا فى اللفظ، وقد صرح بذلك إذ يقول: "وأنا فى هذا الباب لا أخالف النحويين إلا فى أن أقول (علقت)، ولا أقول: (أعلمت)، والتعليق يستعمله النحويون فى المجرورات، وأنا استعمله فى المجرورات والفاعلين والمفعولين[(٢)]".

فأنت تراه قد صرح بأن المخالفة بينه وبين النحاة إنما هى فى اللفظ فقط وهل للتعلق معنى غير العمل؟! إنه يوافق النحويين فى استعمالهم

---

(١) انظر الرد على النحاة: تحقيق د./ شوقى ضيف: ص٧٦.

(٢) الرد على النحاة: ص٩٤.

التعليق فى المجرورات، ونعلم أنهم يعنــون بـالتعليق فـى المجـرورات أنهـا معمولة للفعل الذى تعلقت به.

وقد أيـده فـى تلـك الدعـوة كثير مـن المحدثـين، ومنهـم الأستاذ/ إبراهيم مصطفى فى كتابـه (إحيـاء النحـو) الـذى يقـول فيـه: "تخليـص النحو من هذه النظرية وسلطانها هو عنـدى خـير كثـير وغايـة تقصـد، ومطلب يسعى إليه ورشاد يســير بـالنحو فـى طريقـه الصحيحـة بعدمـا انحرف عنها آماداً، وكاد يصد الناس عن معرفة العربيــة وذوق مـا فيهـا من قوة على الأداء ومزية فى التصوير[١]".

والأستاذ/ عبد المتعال الصعيدى فى كتابـه (النحـو الجديـد) الـذى دعا فيه إلى إلغاء العامل، وعرَّف الإعراب بأنه تصرف أهل العربيــة فـى آخر أسمائها وأفعالهــا وحروفهـا بـين رفـع ونصـب وجـر وجـزم[٢] ولا أدرى على أى أساس يكون هذا التصرف من أهل العربية.

والدكتور/ شوقى ضيــف فـى مقدمـة كتـاب (الـرد علـى النحـاة) حيث يقول: "والحق أن النحو العربى يستغلق علـى النـاس تـارة بنظريـة العامل وما تجره من كثرة التأويل والتقدير والحــذف والإضمـار .. ومـا العامل والعمل فى النحو، إنما هو تمثيل وتخييل، أما فى الحقيقة فلا عامل سوى المتكلم الذى يرفع الكلمة أو ينصبها أو يخفضهــا، لتعبر عمـا فـى

(١) إحياء النحو: ص١٩٥.

(٢) انظر النحو الجديد: ص١٢٢.

نفسه من معان، وإذن فلنرد المسألة إلى صورتها الصحيحة، ولنبطل هذا العامل فى النحو، الذى أتعب النحويين طويلاً"[١].

والدكتور/ تمام حسان فى كتابه (اللغة العربية معناها ومبناها) الذى يرى أن القرائن تغنى عن العوامل فى النحو، ووضع نظاماً نحوياً جديداً يقوم على القرائن ولا يعتمد على فكرة العامل.

والدكتور/ محمد حماسة عبد اللطيف فى كتابه (العلامة الإعرابية فى الجملة بين القديم والحديث) حيث يقول: "وإذن العامل النحوى بصورته التى يوجد عليها الآن فى كتب النحو العربى عبء ثقيل على الدارسين، ولا يحقق الفائدة المتوخاة من ابتكاره، ولا معدل عن العدول عنه[٢]".

ولكنك حين تقف مع كل منهم لا تجد جديداً، إلا اختلافاً فى الاصطلاحات، أو فى ترتيب الأبواب، ولا أريد أن أطيل بعرض أقوالهم والرد عليهم، فقد كفانا ذلك كثير من الباحثين، وليس الغرض من هذا البحث الخوض فى تلك القضية، فالقول بالعامل النحوى ضرورة لا بديل عنها، وقد أكد ذلك ودفع أقوال المعارضين الشيخ محمد أحمد عرفه فى كتابه (النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة) والدكتور/ على النجدى ناصف فى كتابه (من قضايا اللغة والنحو) والدكتور/ عبد العزيز عبده أبو عبد الله فى كتابه (المعنى والإعراب عند النحويين

---

(١) مقدمة الرد على النحاة: ص٤٤/٤٥.

(٢) العلامة الإعرابية فى الجملة بين القديم والحديث: ص٢٠٣.

ونظرية العامل) والدكتور/ محمد أبو المكارم قنديل فى بحثه (مزاعم التجديد فى النحو العربى)(١)

أنواع العوامل:

قسم النحاة العوامل إلى لفظية ومعنوية، والعوامل المعنوية هى مالا يكون للسان فيها حظ وإنما تكون معنى يعرف بالقلب، والعوامل اللفظية هى ما يكون للسان فيها حظ وقسم بعضهم العوامل اللفظية إلى قياسية وسماعية، وذهب إلى أن القياسى ما يمكن أن يذكر فى عمله قاعدة كلية موضوعها غير محصور، كالفعل واسم الفاعل واسم المفعول .. والسماعى هو الذى يتوقف إعماله على السماع كالحروف العاملة فى الأسماء والأفعال(٢).

والعامل اللفظى كما يكون موجوداً فى الكلام يكون محذوفاً أو مقدراً، والعوامل اللفظية غير الموجودة فى الكلام كثيرة منها عامل الظرف والجار والمجرور الواقعان خبرا، ورافع الفاعل المحذوف فعله، وعامل المفعول المطلق الواقع بدلا من اللفظ بالفعل، وعامل بعض المميزات، وعامل النصب فى المنادى، وفى المستثنى، وناصب المفعول معه، وعامل الحال المؤكدة لمضمون الجملة، وعامل المنصوب على الاشتغال، والمنصوب على التحذير والإغراء والاختصاص، ومعنى

---

(١) بحث منشور بمجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة العدد الأول سنة (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

(٢) ينظر إظهار الأسرار فى النحو لمحمد بن بير على البركى: ص٩٦ ومابعدها.

التشبيه ومعنى التمنى العاملان فى الحال، والمجرور بـرب المحذوفـة وغـير ذلك.

وإنما قالوا معنوى ولفظى مع العلم بـأن هـذه الأشياء ليسـت هـى العاملة حقيقية، إذ العمل للمتكلم؛ لأن بعـض العمـل يـأتى مسـبباً عـن لفظ يصحبه، وبعضه يأتى عارياً من مصاحبة اللفظ، يقـول ابـن جنـى: "وإنما قال النحويون عامل لفظى وعامل معنوى ليروك أن بعـض العمـل يأتى مسبباً عن لفظ يصحبه كمررت بزيد، وليت عمـرا قـائم، وبعضـه يأتى عارياً من مصاحبة لفـظ يتعلـق بـه، كرفـع المبتـدأ بـالابتداء ورفـع الفعل لوقوعه موقع الاسم[١]".

العوامل المعنوية ومعمولاتها:

والعوامل المعنوية عند جمهور البصريين عـاملان، هما الابتداء عـامل الرفع فى المبتدأ، ووقوع الفعل المضارع موقـع الاسـم عـامل الرفـع فـى المضارع.

وأما ما قيل به من عوامل معنوية فأكثر من ذلـك بكثير، وهـو مـا خصص لجمعه هذا البحث، وسأوردها مبيناً معمولات كـل منهـا، مـع ذكر ما قيل به من عوامل فى تلك المعمولات، مرجحاً مـا أراه راجحـاً وموضحاً أدلة ذلك الترجيح بإيجاز، مشيراً إلى مواطـن تلـك الأدلـة لمـن يريد الاستزادة، وإليك التفصيل.

---

(١) الخصائص: ١/١١٠.

أولاً: الابتداء:

قيل: هو التعرى من العوامل اللفظية[١]، وقال ابن يعيش: "والصحيح أن الابتداء اهتمامك بالاسم وجعلك إياه أولاً لثان كان خبراً عنه، والأولية معنى قائم به يكسبه قوة إذ كان غيره متعلقاً به، وكانت رتبته متقدمة على غيره[٢]".

وقد نسب إلى الابتداء العمل فى المبتدأ والخبر.

١ – المبتدأ:

ذهب جمهور البصريين سيبويه والأخفش والمبرد والرمانى وابن السراج وابن جنى[٣] وابن مالك وغيرهم إلى أن عامل الرفع فى المبتدأ معنوى وهو الابتداء، وذهب الكوفيون إلى أنه مرفوع بالخبر، كما أن الخبر مرفوع به[٤]. واختاره أبوحيان والسيوطى، وذهب الجرمى

---

(١) انظر الإنصاف فى مسائل الخلاف: ١/٤٦.

(٢) شرح الفصل لابن يعيش: ١/٨٥.

(٣) نسب أبوحيان والسيوطى إلى ابن جنى القول بأن المبتدأ والخبر ترافعا، وهو مذهب الكوفيين، والذى فى اللمع أن المبتدأ مرفوع بالابتداء والخبر مرفوع بالمبتدأ. انظر: اللمع: ص١٠٩، ص١١٠، والتذييل والتكميل: ٢/٢٠، والهمع: ٢/٨.

(٤) نسب ابن أبى الربيع إلى الكوفيين القول بأن الابتداء عامل فى المتقدم منهما، والمقدم عامل فى المؤخر، فنحو: زيد مجتهد، المبتدأ فيه مرفوع بالابتداء والخبر مرفوع بالمبتدأ، ونحو: قائم زيد الخبر مرفوع بالابتداء والمبتدأ مرفوع بالخبر. انظر: تمهيد القواعد (رسالة دكتوراه): ١/ ٨٩٤.

والسيرافى والزمخشرى وكثير من البصريين وابن عصفور إلى أنه مرفوع بالتجرد للإسناد، وذهب بعضهم إلى أنه مرفوع لشبهه بالفاعل، وذهب بعض آخر إلى أن العامل فيه هو الاهتمام والاعتناء[١].

والأرجح أنه مرفوع بالابتداء؛ لأنه إذا لم يوجد العامل اللفظى آل الأمر إلى القول بالعامل المعنوى[٢].

وأما القول بأن رافعه الخبر فبعيد، لأن منزلة الخبر بعد المبتدأ، ومعلوم أن منزلة العامل قبل المعمول، كما أن القول بأن كلا منهما عامل فى الآخر يؤدى إلى أن كلا منهما ضعيف من حيث هو معمول للآخر، وقوى من حيث هو عامل فيه، ولا يكون الشىء الواحد قوياً وضعيفاً فى آن واحد.

وأما القول بأنه مرفوع بشبه الفاعل فضعيف، لأن المبتدأ والخبر أصل والفعل والفاعل فرع، وإنما كان المبتدأ والخبر الأصل؛ لأن اللفظ وافق المعنى فيهما، ولأن المبتدا قبل الخبر، وليس كذلك الفعل والفاعل ولأن الفعل وهو الخبر قبل الفاعل وهو المخبر عنه، فاللفظ ليس وفق

---

(١) انظر فى هذه الآراء: الكتاب ١٢٧/٢، والأصول: ٥٨/١، المقتضب: ٤٩/٢، ١٢/٤، ١١٠، واللمع: ١١٠، والإنصاف: ٤٤/١، وشرح المفصل: ٨٣/١، وشرح الجمل لابن عصفور: ٣٥٥/١، وشرح التسهيل: ٢٧٠/١، وشرح الرضى على الكافية: ٧٨/١، والتذييل والتكميل: ٢٠/٢، والمساعد: ٢٠٥/١، والهمع: ٨/٢.

(٢) انظر المزيد من أدلة ترجيح هذه المذهب فى شرح التسهيل لابن مالك: ٢٧٢/١، وشرح المفصل لابن يعيش: ٨٤/١.

المعنى، فإذا جعلنا المبتدأ مرفوعاً لشبهه بالفاعل كنا قد حملنا الأصل على الفرع وذلك قليل جداً[(١)].

وأما القول بأن رافعه الإسناد والتجرد أو الاهتمام والاعتناء فقريب من مذهب جمهور البصريين، ويحتمله تفسير الابتداء.

٢- الخبر:

ذهب الأخفش والرمانى إلى أن الخبر مرفوع بالابتداء، ونسب إلى الكوفيين القول بأن الابتداء عامل فى المتقدم منهما فإذا تقدم الخبر كان معمولاً للابتداء، وذهب المبرد فى قول له وابن الأنبارى إلى أن الخبر مرفوع بالابتداء بواسطة المبتدأ، وذهب الجرمى والسيرافى والزمخشرى وابن عصفور إلى أنهما مرفوعان بالتجرد للإسناد، وذهب المبرد فى قول آخر إلى أن الخبر مرفوع بالابتداء والمبتدأ معاً، ومذهب جمهور البصريين والكوفيين أنه مرفوع بالمبتدأ[(٢)].

والأرجح أنه مرفوع بالمبتدأ، لأن المبتدأ هو الطالب له[(٣)] ولضعف العامل المعنوى عن العمل فى معمولين، ولأن العامل المعنوى لا يلجأ

---

(١) انظر شرح الجمل لابن عصفور: ١/٣٥٥.

(٢) ينظر فى هذه الآراء: الكتاب: ٢/١٢٧، والأصول: ١/٨٥، والمقتضب: ٢/٤٩، والإنصاف: ١/٤٦، وشرح المفصل: ١/٨٣، وشرح الجمل: ١/٣٥٦، وشرح التسهيل: ١/٢٧٠، وشرح الرضى: ١/٨٧، والمساعد لابن عقيل: ١/٢٠٥.

(٣) ينظر فى أدلة ترجيح هذا ورد ماعداه: شرح التسهيل لابن مالك: ١/٢٧٠، وتمهيد القواعد: ١/٨٨٧، والتصريح: ١/١٥٩.

إليه إلا إذا عدم العامل اللفظى، وأما القول بأن العامل هو الابتداء والمبتدأ فيرده اجتماع مؤثرين على معمول واحد.

ثانياً: التجرد من العوامل:

التجرد هومجئ المعمول خالياً من العوامل اللفظية الأصلية، وقد نسب إليه العمل فى المبتدأ والخبر والفعل المضارع.

١- المبتدأ:

سبق أن الجرمى والسيرافى والزمخشرى، وغيرهم ذهبوا إلى أن رافع المبتدأ هو تجرده للإسناد.

٢- الخبر:

ذهب الجرمى والسيرافى والزمخشرى وغيرهم إلى أن الخبر مرفوع بالتجرد للإسناد.

٣- الفعل المضارع:

اختلف فى عامل الرفع فى المضارع فذهب الفراء ومن وافقه من الكوفيين والأخفش وكثيرون إلى أن رافع المضارع هو تجرده من الناصب والجازم، وذهب البصريون إلى أن رافعه وقوعه موقع الاسم، وذهب الكسائى إلى أنه مرفوع بأحرف المضارعة، وذهب ثعلب

والزجاج إلى أنه مرفوع بمضارعته الاسم وقيل رافعه الإهمال، وذهب بعضهم إلى أنه مرفوع بالسين وسوف(١).

قال أبو حيان: "وقد اختلف النحويون فى الرافع للمضارع على مذهبين، أحدهما عدمى والآخر ثبوتى، فالعدمى فيه مذهبان، أحدهما: التجرد من العوامل اللفظية، وهو مذهب جماعة من البصريين، وثبت فى الإفصاح للفراء وأبى الحسن، والثانى التجرد من الناصب والجازم وهو مذهب الفراء، وقيل ارتفع بالإهمال وهو قريب من هذا القول.

وأما المذهب الثبوتى فعلى وجهين: أحدهما لفظى والآخر معنوى، فاللفظى هو ماذهب إليه الكسائى من أنه ارتفع بحرف المضارعة .. والمعنوى اختلفوا فيه، فذهب جمهور البصريين إلى أنه ارتفع لوقوعه موقع الاسم، وزاد بعضهم فقال: وذلك نحو: زيد يقوم فكونه وقع موقع قائم هو الذى أوجب له الرفع، وذهب أحمد بن يحيى إلى أنه ارتفع بنفس المضارعة، وذهب بعضهم إلى أنه ارتفع بالسبب الذى أوجب له الإعراب، لأن الرفع نوع من الإعراب، فهذه سبعة مذاهب فى الرافع للمضارع(٢)".

---

(١) ينظر فى هذه الآراء: الكتاب: ٩٣/٣، والخصائص: ١٩٨/١، والإنصاف: ٥٥٠/٢، وشرح المفصل: ١٢/٧، والتذييل والتكميل: ٤٩٨/٦، وشرح اللمحة البدرية لابن هشام: ٣٣٦/٢، وشرح التصريح: ٢٢٩/٢، والأشباه والنظائر: ٢٩٢/١ ومابعدها.

(٢) التذييل والتكميل: ٤٩٨/٦-٤٩٩.

والصحيح من هذه الأقوال أن رافعه هو التجرد من الناصب والجازم فعامله معنوى، وأما القول بأن عامله وقوعه موقع الاسم فيرده أنه يقع فى مواقع لا يقع فيها الاسم، منها وقوعه صلة للموصول، وبعد أدوات العرض والتحضيض فما الرافع له حينئذ؟ وأما القول بأن رافعه حروف المضارعة فمردود؛ لأن بعض الشيء لا يعمل فيه، ولوجود أحرف المضارعة فى المضارع وهو منصوب أو مجزوم، وأما القول بأنه مرفوع بمضارعته الاسم فغير سديد لأن هذه المضارعة أوجبت له الإعراب، وفرق بين سبب الإعراب وسبب الرفع، وأما القول بأنه مرفوع بالسين وسوف فيرده أنه ورد مرفوعاً بدونهما، ورده المازنى بقوله: لم نر عاملاً فى الفعل تدخل عليه اللام، وقد قال سبحانه ﴿ولسوف تعلمون﴾[1].

ثالثاً: الشبه بالفاعل:

تقدم أنه عامل الرفع فى المبتدأ عند بعضهم.

رابعاً: الاهتمام والاعتناء:

سبق أنه عامل الرفع فى المبتدأ عند بعضهم.

---

(١) انظر المزيد من الأدلة والاعتراضات فى: شرح المفصل: ١٢/٧، والإنصاف: ٥٥٠/٢، وشرح الكافية الشافية: ١٥١٩/٣، وشرح الألفية لابن الناظم: ٦٦٥، والتذييل: ٥٠٠/٦، وتمهيد القواعد: ٤٤٧/٥، والتصريح: ٢٢٩/٢، والخصائص: ١٩٨/١.

خامساً: مضارعة الاسم:

ذهب ثعلب والزجاج إلى أن عامل الرفع فى المضارع هو مضارعته الاسم.

سادساً: الوقوع موقع الاسم:

ذهب جمهور البصريين إلى أن رافع المضارع هو وقوعه موقع الاسم.

سابعاً: الإهمال:

ذهب الأعلم إلى أن الإهمال هو الرافع للمضارع[1]، والذى يظهر لى أن مراده بالإهمال هو مجئ الفعل المضارع خالياً من العوامل اللفظية، مما يجعله موافقاً لمذهب الكوفيين، ولذا قال أبو حيان: وهو قريب من هذا القول، ويعنى بالقول قول الكوفيين المتقدم.

ثامناً: الإسناد:

فالإسناد هو النسبة بين المسند والمسند إليه، وهو من العوامل المعنوية، وقد ذهب خلف إلى أنه عامل الرفع فى الفاعل، نقل ذلك عنه ابن الأنبارى وابن مالك وذكر السيوطى أنه مذهب ابن هشام، ومذهب الجمهور أنه مرفوع بما أسند إليه من فعل أو مضمن معنى الفعل، وقيل الرافع له معنى الفاعلية، وقيل ارتفع بشبه المبتدأ، وقيل ارتفع بإحداثه الفعل[2].

---

(١) سبق ذكر هذه الآراء وانظر: الأشباه والنظائر: ٢٩٢/١.

(٢) ينظر فى هذه الآراء: الإنصاف: ٧٩/١، وشرح التسهيل لابن مالك: ١٠٧/١، والارتشاف: ١٨٠/٢، الأشباه والنظائر: ٢٩٣/١.

والصحيح أن الرافع له ما أسند إليه من فعل أو شبهه، لأنه لا يعدل عن العامل اللفظى إلى المعنوى إلا إذا لم يوجد لفظ صالح للعمل، والفعل موجود فلا عدول عنه.

قال ابن عصفور: "واختلف الناس فى الرافع للفاعل، فمنهم من زعم أنه ارتفع لشبهه بالمبتدأ، وذلك أنه مخبر عنه بفعله، كما أن المبتدأ مخبر عنه بالخبر، وذلك فاسد؛ لأن الشبه معنى، والمعانى لم يستقر لها العمل فى الأسماء، ومنهم من ذهب إلى أنه ارتفع لكونه فاعلاً فى المعنى، نحو: قام زيد، وهذا فاسد، بدليل قولهم مات زيد، وما قام زيد، ومنهم من قال ارتفع بإسناد الفعل إليه مقدماً عليه، وذلك فاسد؛ لأن الإسناد هو الإضافة فى المعنى، فالفعل مسند إلى الفاعل والمفعول، فلو كان الإسناد يوجب الرفع لوجب رفع المفعول أيضاً، ومنهم من قال ارتفع بكون الفعل المسند إليه مفرغاً له، أى مفتقراً، وذلك أن الفعل أبداً طالب للفاعل لا يستقل منه مع المفعول كلام حتى يذكر الفاعل، وإذا أخذ الفاعل استقل به ولم يفتقر إلى المفعول، فمن أخذ الإسناد بهذا المعنى كان مذهباً صحيحاً، إلا أنه يخرج الإسناد عن معناه اللغوى الذى هو الإضافة[١]".

تاسعاً: الشبه بالمبتدأ:

تقدم أن عامل الرفع فى الفاعل عند بعضهم شبهه بالمبتدأ، من حيث إنه مخبر عنه بفعله كما أن المبتدأ مخبر عنه بالخبر.

---

(١) شرح الجمل: ١/١٦٥، ١٦٦.

عاشراً: معنى الفاعلية:

ذهب بعضهم إلى أن عامل الرفع فى الفاعل هو معنى الفاعلية، ونسبه السيوطى إلى خلف الأحمر.

حادى عشر: إحداث الفعل:

ذهب بعض الكوفيين إلى أن رافع الفاعل هو إحداثه الفعل.

ثانى عشر: معنى المفعولية:

ذهب خلف الأحمر من الكوفيين إلى أن عامل النصب فى المفعول به هو معنى المفعولية، والجمهور على أن ناصب المفعول به هو الفعل أو ما فى معناه، وذهب بعض النحاة إلى أنه منصوب بالفعل والفاعل معاً، وقيل ناصبه الفاعل، والصحيح أنه منصوب بالفعل وحده كما هو مذهب الجمهور(١).

ثالث عشر: القصد:

ذهب أبو الحسين ابن الطراوة والسهيلى إلى أن المفاعيل المتقدمة والمناديات أسماء منصوبة بالقصد إلى ذكرها خاصة من غير حاجة إلى الإخبار عنها أو تسليط عامل لفظى عليها.

---

(١) انظر فى هذه الآراء وترجيح مذهب الجمهور: الإنصاف: ٧٨/١، وشرح الجمل لابن عصفور: ١٦٦/١، والأشباه والنظائر: ٢٩٣/١.

يقول السهيلى: ".. نحو: سبحان الله، فإن (سبحان) اسم ينبئ عن العظمة والتنزيه، فوقع القصد إلى ذكره مجرداً عن التقييدات بالزمان أو الأحوال، ولذلك وجب نصبه كما يجب نصب كل مقصود إليه بالذكر، نحو (إياك) ونحو (ويل زيد وويحه) ..

ومما انتصب لأنه مقصود إليه بالذكر (زيدا ضربته) فى قول النحويين، وهو مذهب شيخنا أبى الحسين، وكذلك (زيدا ضربت) بلا ضمير، لا يجعله مفعولاً مقدماً، لأن المعمول لا يتقدم على عامله، وهو مذهب قوى(١)".

ثم قال: "والمنادى منصوب بالقصد إليه وإلى ذكره بما تقدم من قولنا فى كل مقصود إلى ذكره مجرداً عن الإخبار عنه أنه منصوب(٢)".

رابع عشر: الخلاف:

ويسمى الصرف والمخالفة والمغايرة وهو عامل فى عدة معمولات:

١- الظرف الواقع موقع الخبر:

ذهب الكوفيون إلى أن الظروف فى نحو قولك: زيد خلفك، منصوب بمخالفته للمبتدأ، أى: لكونه غير المبتدأ، إذ الخبر عندهم إذا كان عين المبتدأ نحو: زيد أخوك، كان مرفوعاً بالمبتدأ، وإذا كان خلافه

---

(١) نتائج الفكر: ص٧٠ - ٧١.

(٢) نتائج الفكر: ص٧٧.

نحو: زيد عندك كان منصوباً، ورد هذا ابن مالك فى شرح التسهيل بأمور أربعة لا أطيل بذكرها[١].

وذهب ابن طاهر وابن خروف إلى أنه منصوب بالمبتدأ، والجمهور على أن الظرف متعلق بمحذوف وجوباً، وهذا المتعلق هو الخبر، وهو العامل فى الظرف فعامل الظرف لفظى محذوف، وقد اختلفوا فى تقديره، فقدره بعضهم فعلاً وقدره بعضهم اسماً.

والأرجح ماذهب إليه الجمهور وهو أن الظرف معمول لمحذوف هو الخبر ويقدر هذا المحذوف فعلاً أو اسماً ويرجح أحدهما المعنى[٢].

٢- (أفعل) فى التعجب:

ذهب الكوفيون إلى أن (أفعل) فى نحو (ما أحسن زيدا) اسم، وأنه منصوب لمخالفته المبتدأ، قال ابن هشام: "وقال بقية الكوفيين اسم لقولهم: ما أحسنه، ففتحته إعراب، كالفتحة فى: زيد عندك، لأن مخالفة الخبر للمبتدأ تقتضى عندهم نصبه، و(أحسن) إنما هو فى المعنى وصف لزيد، لا لضمير ما[٣]".

ومذهب البصريين والكسائى وهشام أنه فعل، وأنه مبنى، وأن فتحته فتحة بناء وليست إعراب.

---

(١) انظرها فى الشرح: ٣١٣/١.

(٢) ينظر شرح التسهيل: ٣١٣/١، والمغنى: ٢/ ٤٣٣، والتصريح: ١٦٦/١، ٣٤٤.

(٣) انظر التصريح: ٨٨/٢.

والأرجح ماذهب إليه البصريون، وذلك لأنه تلزمه نون الوقاية مع ياء المتكلم، نحن: ما أفقرنى إلى عفو الله، وهى إنما تدخل على الأفعال لا على الأسماء، ولزومها لأفعل إذا اتصلت به ياء المتكلم دليل على أنه فعل[١].

٣- المفعول معه:

ذهب أكثر الكوفيين إلى أن عامل النصب فى المفعول معه معنوى. وهو المخالفة، أى: مخالفة مابعد الواو لما قبلها؛ لأن مابعد الواو لا يصلح أن يجرى على ماقبله كما فى نحو: قام زيد وعمرو، فلما خالفه فى المعنى انتصب على الخلاف.

قال الفراء: ".. فلذلك سمى صرفا، إذ كان معطوفاً ولم يستقم أن يعاد فى الحادث الذى قبله، ومثله فى الأسماء التى نصبتها العرب وهى معطوفة على مرفوع قولهم: لو تركت والأسد لأكلك، ولو خليت ورأيك لضللت، لما لم يحسن فى الثانى أن تقول: لو تركت وترك رأيك لضللت، تهيبوا أن يعطفوا حرفاً لا يستقيم فيه ما حدث فى الذى قبله[٢]".

وذهب جمهور البصريين وجماعة من الكوفيين إلى أن الناصب له ما سبقه من فعل أو شبهه، وذهب عبد القاهر الجرجانى إلى أن الناصب له الواو، وذهب الزجاج إلى أن الناصب له فعل محذوف بعد الواو، والتقدير فى نحو: سرت والنيل: سرت ولا بست النيل.

---

(١) انظر فى هذا الخلاف وترجيح مذهب البصريين: الإنصاف فى مسائل الخلاف: ١/١٢٦ والارتشاف: ٣/٣٣، والتصريح: ٢/٨٨.

(٢) معانى القرآن للفراء: ١/٣٤.

والصحيح ما ذهب إليه جمهور البصريين ومن وافقهم من الكوفيين، وهو أن العامل فيه ما قبله من فعل أو نحوه[(١)]، وأما القول بالخلاف فمردود، لأن الخلاف لو كان يقتضى النصب ومخالفة الاسم لما قبله لوجب نصب (عمرو) فى قولنا: ما قام زيد بل عمرو، ولكنه لا يجوز.

وأما نسبة العمل للواو فمردودة، لأنه لم يثبت لها هذا العمل، ولأنها لو كانت هى العاملة لاتصل بها المفعول معه إذا كان ضميراً كما فى غيرها من الحروف الناصبة.

وأما القول بتقدير فعل بعد الواو فيرده أن ما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إلى تقدير، ورده السيرافى وابن الأنبارى بما يرجع إليه فى كلامهما[(٢)].

٤- المستثنى بإلا:

ذهب الكسائى إلى أن ناصب المستثنى هو مخالفته للأول، ذكر ذلك ابن عصفور وأبوحيان[(٣)] وقال ابن الأنبارى: "وحكى عن

---

(١) ينظر فى الخلاف وترجيح مذهب الجمهور: الإنصاف فى مسائل الخلاف: ٢٤٨/١، وأسرار العربية: ١٨٢، والمقتصد فى شرح الإيضاح: ٦٦٠/١، والارتشاف: ٢٨٦/٢، والجنى الدانى: ١٥٥، والمغنى: ٣٦٠/٢، والتصريح: ٣٤٤/١.

(٢) انظر الإنصاف: ٢٤٩/١، وأسرار العربية: ١٨٢، وشرح المفصل: ٤٩/٢.

(٣) انظر شرح الجمل: ٢٥٣/٢، والارتشاف: ٣٠٠/٢.

الكسائى أنه قال إنما نصب المستثنى لأن تأويله: قام القوم إلا أن زيدا لم يقم، وحكى عنه أيضاً أنه قال: ينصب المستثنى لأن مشبه بالمفعول[(١)]".

ثم قال فى رده عليه: "وأما قول الكسائى: أنا نصبنا المستثنى لأن تأويله إلا أن زيدا لم يقم، قلنا: لا يخلو إما أن يكون الموجب للنصب أنه لم يفعل فيبطل بقولهم: قام زيد لا عمرو، وإن أراد أن (أنّ) هى الموجبة للنصب كان اسمها وخبرها فى تقدير اسم، فلابد أن يقدر له عامل يعمل فيه، وفيه وقع الخلاف[(٢)]".

وقيل: الناصب له (إلا) نفسها ذهب إليه ابن مالك ونسبه إلى سيبويه والمبرد والجرجانى، ونسبه فى الإنصاف إلى المبرد والزجاج والكوفيين، ونسبه أبوحيان إلى المازنى، وقيل: ناصبه ماقبل (إلا) من فعل وشبهه معدى بها، وهو مذهب ابن بابشاذ وابن الباذش، ونسب إلى الفارسى وأبى على الرُّندى، ونسبه الشلوبين إلى المحققين قياساً على المفعول معه، وقيل: ناصبه ما قبل (إلا) من فعل ونحوه بغير واسطة (إلا) لانتصاب (غير) به إذا وقعت موقع (إلا) وهو مذهب ابن خروف ونسبه إلى سيبويه، وقيل منصوب بفعل مضمر بعد (إلا) تقديره (أستثنى) وهو مذهب المبرد ونسبه السيرافى إليه وإلى الزجاج، وذكر أبو البركات الأنبارى أن مذهب الفراء ومن وافقه من الكوفيين أن (إلا) مركبة من (إنّ) و(لا) ثم خففت (إن) وادغمت فى (لا) فنصبوا بها فى الإيجاب اعتباراً بإن، وعطفوا بها فى النفى اعتبار بلا،

(١) الإنصاف فى مسائل الخلاف: ٢٦١/١.

(٢) الإنصاف: ٢٦٥/١.

لكن ما فى معانى الفراء[1] يخالف ذلك إذ (إلا) فيه مركبة من (إنْ) النافية و(لا)، وقيل هو منصوب بالجملة التى قبله بواسطة (إلا) إلا أن يكون الاسم المنصوب فيه معنى (إلا) فلا يحتاج إلى وساطة (إلا) وهو مذهب الفارسى وابن عصفور وأبوحيان ونسبه إلى سيبويه وهو الظاهر من مذهبه[2].

ولم يسلم قول من هذه الأقوال من النقض، ولا دليل على صحة قول منها، وإن كان أرجحها القول بأنه منصوب بما قبل (إلا) من فعل ونحوه، والقول بأنه منصوب بفعل مضمر تقديره (أستثنى)، ولا أريد الإطالة بذكر أدلة كل رأى وما وجه له من نقض أو اعتراض[3].

٥- الفعل المضارع المنصوب بعد الفاء أو الواو أو أو:

ذهب الفراء وبعض الكوفيين إلى أن المضارع بعد الفاء التى للسببية والواو التى للمعية فى جواب الطلب منصوب بالخلاف أو الصرف، أى بمخالفته للأول حيث لم يكن شريكاً له فى المعنى ولا معطوفاً عليه.

---

(١) معانى الفراء: ٣٧٧/٢.

(٢) انظر فى المذاهب: الكتاب: ٣١٠/٢، والمقتضب: ٣٩٠/٤، والإنصاف: ٢٦٠/١، وأسرار العربية: ٢٠١، والمسائل المشكلة: ص٤٩٣، وشرح المفصل: ٧٦/٢: وشرح الجمل: ٢٥٣/٢: وشرح التسهيل: ٢٧١/٢، والارتشاف: ٣٠٠/٢، والتذييل: ٥١٦/٣، ومنهج السالك لأبى حيان: ١٥٩، والهمع: ٢٥٢/٣: وقضايا الخلاف النحوى بين ابن مالك وأبى حيان (رسالة دكتوراه): ص٤٩٦ وما بعدها.

(٣) انظر فى ذلك: الإنصاف: ٢٦٠/١، وشرح المفصل: ٧٦/٢، وشرح التسهيل: ٢٧١/٢، وشرح الجمل: ٢٥٣/٢، والتذييل: ٥١٦/٣، ومنهج السالك لأبى حيان: ١٥٩.

قال الفراء: "وإن شئت جعلت هذه الأحرف المعطوفة بالواو نصباً على ما يقول النحويون من الصرف، فإن قلت: وما الصرف؟ قلت: أن تأتي بالواو معطوفة على كلام في أوله حادثة لا تستقيم على ما عطف عليهان فإذا كانت كذلك فهو الصرف، كقول الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

ألا ترى أنه لا يجوز إعادة (لا) في (تأتي مثله)، فلذلك سمي صرفا، إذ كان معطوفاً و لم يستقم أن يعاد فيه الحادث الذي قبله[١]".

وذهب جمهور البصريين إلى أن النصب بعد هذه الثلاثة بأن مضمرة وجوباً، وذهب الكسائي ومن وافقه من الكوفيين والجرمي إلى أن نصب المضارع بعد هذه الأحرف بها لا بشيء غيرها، وذهب أحمد بن يحي إلى أن النصب بعد الفاء والواو لدلالتهما على الشرط، لأن معنى: هل تزورني فأحدثك: إن تزرني أحدثك، فلما نابت عن الشرط ضارعت (كي) فلزمت المستقبل فعملت عمل (كي)، وذهب هشام إلى أن المضارع بعد هذه الأحرف لما لم يعطف على ما قبله لم يدخله الرفع ولا الجزم إذ ما قبله لا يخلو من أحد هذين، فلما لم يستقم رفعه ولا جزمه لانتفاء موجبهما لم يبق له إلا النصب فنصب[٢].

---

(١) معاني القرآن للفراء: ١/٣٣ - ٣٤.

(٢) انظر في هذه المذاهب: شرح المفصل: ٧/٢١، وشرح الجمل: ٢/١٤٣، والتذييل والتكميل: ٦/٥٩٦، والارتشاف: ٢/٤٠٧، والأشموني: ٣/٢٩٦، ٣٠٥، والتصريح: ٢/٢٣٧.

والأرجح ما ذهب إليه جمهور البصريين، وهو أن المضارع بعد هذه الأحرف منصوب بأن مضمرة وجوباً، إذ القول بالخلاف مردود بأنه لا يطرد، فلم ينصب الاسم فى نحو: ماجاء زيد لكن عمرو، وجاء محمد لا زيد، كما أن نسبة العمل إلى هذه الأحرف مردودة، لأن هذه الحروف إن كانت حروف عطف فلا عمل لها، وإلا لوجب أن تنصب فى كل موضع، ولم يقل بذلك أحد، ولو لم تكن حروف عطف لصح دخول حرف العطف عليها كما يصح دخوله على غيرها كإنّ، لكنه لم يقل به أحد.

وما ذهب إليه أحمد بن يحيى ضعيف إذ دلالتها على الشرط توجب جزم المضارع بعدها لا نصبه، ولا دليل على ما ذهب إليه[١].

٦- المضارع المرفوع بعد أحرف الصرف:

ذكرنا أن ناصب المضارع بعد الفاء والواو وأو عند الفراء هو الصرف أو الخلاف، وقد ذهب إلى أن المضارع يرفع بعد هذه الأحرف، ورافعه هو الصرف أيضاً، واستدل على ذلك بقول الشاعر:

على الحكم المأتىّ يوما إذا قَضَى ... قَضِيَّتَهُ أنْ لا يجورَ ويقصدُ[٢]

---

(١) انظر المزيد من أدلة ترجيح المذهب الراجح والرد على ما عداه فى: شرح المفصل: ٢١/٧، والتذييل: ٥٩٧/٦، وتمهيد القواعد: ١٠٦/٥، والمغنى: ٣٦٠/٢.

(٢) البيت من الطويل، لأبى اللحام التغلبى، ونسبه سيبويه وابن يعيش لعبد الرحمن ابن أم الحكم. انظر فى: الكتاب: ٥٦/٣، وشرح المفصل: ٣٩/٧، ولسان العرب (قصد)، والمغنى: ٣٥٩، والخزانة: ٥٥٨/٨.

حيث رفع المضارع (يقصد) بعد واو الصرف، وما قبله منصوب، وهو (يجور) والرافع له المخالفة، وهو مرفوع عند سيبويه وغيره من النحاة على القطع والاستئناف[١].

خامس عشر: الإضافة:

ذهب السهيلي وأبو حيان إلى أن المضاف إليه مجرور بالإضافة، قال أبو حيان: "والإضافة هي المعرفة، وهي الجارة، لا اللام المضمرة خلافاً لبعضهم، ولأن حرف الجر لا يضمر مع بقاء عمله إلا شاذاً، فإذن الجار في الإضافة معنوى لا لفظى[٢]".

وذهب سيبويه وجمهور البصريين إلى أنه مجرور بالمضاف، وذهب الزجاج إلى أنه مخفوض بمعنى اللام، وقيل بحرف الجر المحذوف[٣].

سادس عشر: التبعية:

ذكر أبوحيان أن مذهب الخليل وسيبويه والأخفش والجرمي أن العامل في النعت وعطف البيان هو التبعية للمتبوع، فقال: ".. فذهب

(١) ينظر في هذا: الكتاب: ٥٦/٣، والتذييل: ٥٩٨/٦، والأشباه والنظائر: ٢٩٣/١، والخزانة: ٥٥٥/٨.

(٢) النكت الحسان: ص١١٧، وانظر شرح التصريح: ٢٥/٢.

(٣) انظر الكتاب: ٤١٩/١، والتصريح: ٢٤/٢، والبسيط لابن أبي الربيع: ٨٨٦/٢، وشرح الجمل لابن عصفور: ٧٥/٢.

الخليل وسيبويه والأخفش والجرمى وأكثر المحققين إلى أن العامل فى النعت تبعيته للمنعوت[١]".

وذكر السيوطى أن عامل الصفة والتأكيد وعطف البيان عند الأخفش معنوى، وهو كونها تابعة لغيرها[٢].

وذهب المبرد وابن السراج وابن كيسان إلى أن العامل فى النعت هو العامل فى المنعوت والعامل فى عطف البيان هو العامل فى المتبوع، ونسب إلى الجمهور وسيبويه[٣].

سابع عشر: الجوار:

نسب إليه العمل فى معمولين:

١- التوابع المخالفة لمتبوعها فى الإعراب:

وردت بعض التوابع مخالفة لمتبوعها وذلك لمجاورتها ما خالف متبوعها فى إعرابه، فوافقت المجاور لها وخالفت المتبوع، فقيل العامل فى التابع هو المجاورة ومن ذلك قولهم: هذا جحرُ ضبٍ خربٍ، وقول الشاعر:

---

(١) الارتشاف: ٥٩٢/٢. وانظر: ٦٠٧/٢.

(٢) انظر الأشباه والنظائر: ٢٩٣/١.

(٣) انظر أسرار العربية: ص٢٩٤، وشرح الجمل لابن عصفور: ٢١٥/١، ٢٦١، والارتشاف: ٥٩٢/٢، ٦٠٧.

كَأَنَّما ضَرَبت قُدَّامَ أَعْيُنِها قُطْناً بمستحصِدِ الأَوْتَارِ مَحْلُوجِ[١]

وقوله:

كَأَنَّ نَسْجَ العَنْكَبُوتِ المُرْمَــلِ[٢]

وقوله:

ياصاحِ بلّغ ذَوِى الزَّوجاتِ كُلِّهم

أن ليس وصلٌ إذا انحلّتْ عُرى الذَّنَبِ[٣]

فجاء النعت (ضب) مجروراً ومنعوته مرفوع، وجاء (محلوج) وصفا مجروراً لموصوف منصوب، وجاء (المرمل) وصفا مجروراً والموصوف

---

(١) البيت من البسيط، لم أقف على قائله، والرواية فى الخزانة (كأنك ضربت) والشاهد مجيء النعت (محلوج) مجروراً بالمجاورة وهو نعت لمنصوب، وانظره فى الإنصاف فى مسائل الخلاف: ٦٠٥/٢، والخزانة: ٩١/٥.

(٢) من مشطور الرجز، وهو للعجاج، والمرمل: المنسوج، والشاهد مجيء (المرمل) وصفا مجروراً بالمجاورة والمنعوت منصوب، انظر الشاهد فى: الكتاب: ٤٣٧/١، والخصائص: ٢٢٤/٣، والإنصاف فى مسائل الخلاف: ٦٠٥/٢، وخزانة الأدب: ٨٧/٥.

(٣) من البسيط لأبى الغريب، والشاهد مجيء (كل) توكيداً مجروراً بالمجاورة للزوجات، ومتبوعه وهو (ذوى) منصوب، وانظره فى: الارتشاف: ٥٨٣/٢، والمغنى: ٦٨٣/٢، وشذور الذهب: ٣٣١، وشرح أبيات المغنى: ٧٤/٨، والخزانة: ٩٠/٥.

وهو (نسج) منصـوب، وجـاء (كلهـم) توكيداً مجروراً والمتبـوع وهـو (ذوى) منصوب.

وذهب ابن جنى إلى أنه لا مخالفة فى هذا، وأنـه كثـير الـورود فـى القرآن الكريم، وأنه على حذف مضاف، فتقدير نحو: هذا حجـر ضـب خرب: هذا جحر ضب خرب جحره، حيث قـال: "فمـا جـاز خـلاف الإجماع الواقع فيه منذ بدىء هذا العلم وإلى آخر هذا الوقـت مـا رأيتـه فى قولهم: هذا جحر ضب خرب، فهذا يتناوله آخر عن أول، وتالٍ عن ماضٍ على أنه غلط من العرب، ولا يختلفون فيه ولا يتوقفون عنه، وأنـه من الشاذ الذى لا يحمل عليه، ولا يجوز رد غيره إليه.

وأما أنا فعندى أن فى القرآن مثل هذا الموضع نيفاً على ألف موضـع، وذلك أنه على حذف مضاف لا غير "ثم قال: "وتلخيـص هـذا أن أصلـه: هذا جحر ضب خرب جحره، فيجرى (خرب) وصفـا علـى (ضـب) وإن كان فى الحقيقة للجحـر كمـا تقـول: مـررت برجـل قـائم أبـوه: فتجـرى (قائماً) وصفا على رجل وإن كان القيام للأب لا للرجل[١]".

وذهب السيرافى إلى أن التقدير: هذا جحر ضب خـرب الجحـر منـه، كما تقول: حسن الوجه منه، حذف الضمير للعلم به ثم أضمر الجحر[٢].

ورد أبو حيان هذين التخريجين بقوله: "ومذهبهمـا خطـأ مـن غـير وجه؛ لأنه يـلزم أن يكـون الجحـر مخصصـاً بـالضب، والضـب مخصـص

(١) الخصائص: ١/١٩٢، وانظر: ٢/١٧٣، ٣/٢٢٣.

(٢) انظر التذييل والتكميل (المخطوط): ٤/١١٨/ب.

بخراب الجحر المخصص بالإضافة إلى الضب، فتخصيص كل منهما متوقف على صاحبه، وهو فاسد للدور، ولا يوجد ذلك فى كلام العرب، أعنى لا يوجد: مررت بوجه رجل حسن الوجه، ولا حسن وجهه، ولأنه من حيث أجرى الخرب صفة على الضب لزم إبراز الضمير لئلا يلبس، وقد فرق سيبويه بين حسن الوجه وحسن، ولأن معمول هذه الصفة لا نتصرف فيه بالحذف لضعف عملها[١]".

وذهب أكثر النحاة إلى أن الجوار لا يكون إلا فى الجر فقط، وذهب الأصمعى وابن قتيبة إلى أنه يكون فى الرفع أيضاً، ونُسب إلى ضعاف النحويين، وجعلوا منه قوله:

السالكُ الثُّغرةَ اليقظانَ كَالِئُها مشى الهلوكِ عليها الخَيْعلُ الفُضُلُ[٢]

حيث رفع (الفضل) اتباعاً للمرفوع قبله[٣].

---

(١) التذليل والتكميل (المخطوط): ١١٨/٤/ب.

(٢) من البسيط للمتنخل الهذلى، والهلوك: المتثنية المنكسرة والخيعل: ثوب يخاط أحد جانبيه ويترك الآخر، والمرأة الفضل هى التي تكون فى ثوب واحد وليس عليها إزار ولا سراويل، والشاهد: رفع (الفضل) وهو نعت الهلوك، وقد رد ذلك أكثر النحاة، وانظره فى الخصائص: ١٦٩/٢، وأمالى ابن الشجرى، تحقيق د/ محمود الطناحى: ٢٢٠/٢، واللسان (هلك)، والارتشاف: ٥٨٣/٢، والخزانة: ١٠١/٥.

(٣) انظر الارتشاف: ٥٨٣/٢، والخزانة: ١٠١/٥.

ورد هذا القول أكثر النحاة، ووصفوه بأنه قول ضعاف النحويين، ومن لا معرفة لهم بحقائق الإعراب، يقول ابن الشجرى: "وزعم بعض من لا معرفة له بحقائق الإعراب بل لا معرفة له بجملة الإعراب، أن ارتفاع (الفضل) على المجاورة للمرفوع، فارتكب خطأ فاحشاً، وإنما (الفضل) نعت للهلوك على المعنى، لأنها فاعله من حيث أسند المصدر الذى هو المشى إليها، كقولك: عجبت من ضرب زيد الطويل عمراً، رفعت (الطويل) لأنه وصف لفاعل الضرب، وإن كان مخفوضاً فى اللفظ، ولو قلت: عجبت من ضرب زيد الطويل عمرو، فنصبت (الطويل) بأنه نعت لزيد على معناه، من حيث هو مفعول فى المعنى، كان مستقيماً[(١)]".

٢- جواب الشرط:

ذهب أكثر نحاة الكوفة إلى أن الجواب مجزوم بالجوار وأما الفعل فمجزوم بالأداة، وذهب جمهور البصريين إلى أن الأداة جزمت كلا من فعل الشرط وجوابه لأنها تطلبتهما معاً، وذهب الأخفش إلى أن فعل الشرط مجزوم بالأداة والجواب مجزوم بالشرط، وذهب الخليل والمبرد إلى أن الشرط مجزوم بالأداة، والجواب مجزوم بالشرط والأداة معاً، وذهب الأخفش فيما نسبه إليه ابن جنى إلى أن الشرط والجواب تجازما، وذهب المازنى إلى أن كلا من الشرط والجواب مبنيان لأن المضارع إنما أعرب لوقوعه موقع الاسم، والاسم لا يقع هنا.

---

(١) أمالى ابن الشجرى: ٢/٢٢٢، وانظر الخزانة: ٥/١٠٢.

. والصحيح من هذه الأقوال هو مذهب جمهور البصريين، وهو أن الأداة هي العاملة في الشرط والجواب؛ لأنها هي المقتضية لهما معاً فعملت فيهما، ولضعف ما عداه من الأقوال، إذ لم يعهد عمل الفعل الجزم، كما لم يعهد أعمال شيئين في شيء واحد، كما لا يصح القول بالبناء لأن المضارع وقع في مواقع لا يقع فيها الاسم وكان معرباً، من ذلك: لن أقوم، وسأقوم، وقد أقوم، كما لا يصح القول بالجوار هنا لأنه قد يكون بين الشرط والجواب معمولات تفصل بينهما، فلا يكون تجاور، كما أن الجواب قد يأتي مجزوماً والشرط غير، فأين العامل[١]؟!

ثامن عشر: معنى الجزاء:

ذكر أبوالقاسم الزجاج في كتابه (الإيضاح في علل النحو) أن جازم فعل الشرط وجوابه عند البصريين هو معنى الجزاء، حيث قال: "أيهم تر يأتك ومن تضرب أضرب، قال أهل الكوفة، هذا نظير قولنا: زيد قائم، ترفع زيدا بقائم وقائما بزيد، فعاب البصريون ذلك عليهم، وهم يقولون: أيا تضرب أضرب، إن (أيا) منصوب بتضرب، وتضرب مجزوم بأي، وكذلك سائر الأسماء التي يجازى بها في قول البصريين، تجزم الفعل وينصبها الفعل الذي تجزمه.

قال أهل البصرة: ليس هذا كما قلتم، وذلك أن إذا قلنا: من تضرب أضرب، فإنما جزمنا الفعل بمعنى الجزاء؛ لأن (مَنْ) تضمنت

---

(١) انظر شرح المفصل: ٤١/٧، وشرح الرضي: ٢٥٤/٢، والتصريح: ٣١٢/٢، وحاشية الصبان: ١٣/٤.

معنى (إن) ونصبها الفعل الذى جزمته، فذلك المعنى فى الحقيقة هو الجازم ..[(١)]".

نتائج البحث:

وبعد؛ فهذا ما استطعت وما أمكننى الوقوف عليه من العوامل المعنوية التى قال بها النحاة، ولا أدعى أنى وقفت على جميعها، ولكننى اجتهدت فى حصرها وتوضيح المراد بكل منها، واستطيع أن أجمل نتائج البحث فيما يلى: -

١- أن العامل النحوى أصل من الأصول النحوية وأنه لا يمكن الاستغناء عنه أو إلغاءه، وأنه لا بديل عن القول به، وأن كل محاولات إلغاء العامل وهدمه لم يكتب لها النجاح أو البقاء، فكل من نادوا بإلغائه لم يقدموا لنا بديلاً عنه، ومن ذهبو إلى القول بالعلاقة كبديل له، لم يوضحوا لنا حقيقة هذه العلاقة.

٢- أن مفهوم العامل لم يكن واضحاً فى أذهان الداعيين إلى إلغائه، فقد توهموا أن مراد المتقدمين من النحاة أنه هو الذى يرفع أو ينصب أو يجر أو يجزم، ولذا ثاروا عليه وحاولوا هدمه، وقد ثبت أن العمل للمتكلم، وأن هذه الأشياء التى يطلق عليها (عامل) ماهى إلا إمارات وعلامات وقرائن يراعيها المتكلم فيرفع أو ينصب أو يجر أو يجزم.

---

(١) الإيضاح فى علل النحو: ص١٤٠.

٣- أن ما استطعت جمعه من العوامل المعنوية بلغ ثمانية عشر عاملاً معنوياً، جمعتها من مذاهب النحاة جميعاً، لم يقل بها مجتمعة واحد منهم، وإنما تؤخذ من مجموع أقوالهم.

٤- أنه لم يجتمع النحاة على عامل معنوى واحد من هذه العوامل، ففى كل خلاف، كما لم يجمعوا على أن معمولاً ما عامله معنوى، وأما قول البدر ابن مالك "ولا خلاف أن الرافع للمضارع عامل معنوى، ولكن اختلفوا فى هذا المعنى ماهو[١]؟" فغير صحيح، حيث ذهب الكسائى إلى أن المضارع مرفوع بأحرف المضارعة، وذهب غيره إلى أنه مرفوع بالسين وسوف، وقد مر ذلك، وهذه عوامل لفظية، إلا إن كان مراده أنه لا خلاف يعتد به، فيكون كلامه صحيحاً.

٥- أن ما نسبه أبو حيان والسيوطى إلى ابن جنى وهو أن المبتدأ والخبر ترافعا مخالف لما فى اللمع وهو أن المبتدأ مرفوع بالابتداء والخبر مرفوع بالمبتدأ.

---

(١) شرح السهيل لابن مالك الجزء الرابع وهو خاص بابنه البدر: ص٥.

ثبت المراجع

أولاً: المخطوطات والرسائل:

١- التذييل والتكميل فى شرح كتاب التسهيل لأبى حيان، مجموعة رسائل بجامعة الأزهر:

- الجزء الثانى (رسالة دكتوراه) تحقيق د/ السيد تقى عبد السيد.
- الجزء الثالث (رسالة دكتوراه) تحقيق د/ حماد حمزة البحيرى.
- الجزء السادس (رسالة دكتوراه) تحقيق د/ عبد الحميد محمود حسان الوكيل.
- الجزء الرابع (مخطوط) بدار الكتب المصرية.

٢- تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، لناظر الجيش، مجموعة رسائل بجامعة الأزهر:

- الجزء الأول (رسالة دكتوراه) تحقيق د/ على فاخر.
- الجزء الخامس (رسالة دكتوراه) تحقيق د/ على السنوسى محمد.

٣- قضايا الخلاف النحوى بين ابن مالك وأبى حيان (رسالة دكتوراه) بجامعة الأزهر - إعداد: الحسينى محمد الحسينى القهوجى.

ثانياً: المطبوعات:

١- إحياء النحو: لإبراهيم مصطفى - القاهرة ١٩٥٩م.

٢- ارتشاف الضرب من لسان العرب لأبى حيان: ت د/ مصطفى أحمد النماس - مطبعة المدنى الطبعة الأولى.

٣- أسرار العربية لأبى البركات الأنبارى: ت د/ محمد بهجة البيطار - الترقى دمشق (١٣٧٧هـ/١٩٥٧م).

٤- الأشباه والنظائر فى النحو للسيوطى: دار الكتب العلمية - بيروت ط١ (١٤٠٥هـ/١٩٨٤م).

٥- الأصول فى النحو لابن السراج: ت د/ عبد الحميد الفتلى - مؤسسة الرسالة بيروت - ط٣ (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

٦- إظهار الأسرار فى النحو لمحمد بن بير على البركى: ت د/ عبد العظيم حامد هلال - مطبعة الأمانة - ط١ (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

٧- أمالى ابن الشجرى: ت د/ محمود محمد الطناحى - مكتبة الخانجى - ط١ (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).

٨- الإنصاف فى مسائل الخلاف، لأبى البركات الأنبارى: ت: الشيخ: محمد محى الدين عبد الحميد - دار الفكر.

٩- الإيضاح فى علل النحو، لأبى القاسم الزجاجى: ت د/ مازن المبارك - دار النفائس - ط٥ (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

١٠- البسيط فى شرح جمل الزجاجى، لابن أبى الربيع: ت د/ عياد بن عيد الثبيتى - دار الغرب الإسلامى - بيروت - ط١ (١٤٠٧هـ/١٩٨٦م).

١١- الجنى الداني في حروف المعاني، للمرادي: ت د/ فخر الدين قباوه وزميله - دار الآفاق - بيروت - ط٢ (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

١٢- حاشية الصبان على شرح الأشموني: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي.

١٣- خزانة الأدب ولب لسان العرب للبغدادي: ت. عبد السلام هارون - مكتبة الخانجي - ط١.

١٤- الخصائص لابن جني: ت. محمد علي النجار - الهيئة العامة للكتاب - ط٣.

١٥- الرد على النحاة، لابن مضاء: د/ شوقي ضيف - دار المعارف - ط٢.

١٦- شرح أبيات مغني اللبيب، للبغدادي: ت. محمد عبد العزيز رباح وآخر - دار المأمون للتراث - ط١ (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م).

١٧- شرح الأشموني مع حاشية الصبان: مطبعة عيسى البابي الحلبي.

١٨- شرح الألفية لابن الناظم: ت د/ عبد الحميد السيد محمد - دار الجيل - بيروت.

١٩- شرح التسهيل لابن مالك: ت د/ عبد الرحمن السيد ود/ محمد بدوي المختون - دار هجر - ط١ (١٤٨٠هـ/١٩٩٠م).

٢٠- شرح التصريح على التوضيح: للشيخ خالد الأزهري - دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٢١- شرح جمل الزجاجى لابن عصفور: ت د/ صاحب أبو جناح - إحياء التراث الإسلامى - العراق (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).

٢٢- شرح شذور الذهب فى معرفة كلام العرب، لابن هشام: تعليق الشيخ/ محمد محى الدين عبد الحميد.

٢٣- شرح الكافية للرضى: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

٢٤- شرح الكافية الشافية لابن مالك: د/ عبد المنعم أحمد هريدى - دار المأمون للتراث - ط١ (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).

٢٥- شرح اللمحة البدرية لابن هشام: ت د/ صلاح رواى - دار مرجان للطباعة - ط٢.

٢٦- شرح المفصل لابن يعيش: مكتبة المتبى - القاهرة.

٢٧- العلامة الإعرابية فى الجملة بين القديم والحديث: د/ محمد حماسة عبد اللطيف - دار الفكر العربى.

٢٨- العوامل المائة النحوية فى أصول علم العربية، الجرجانى: ت د/ البدراوى زهران - دار المعارف - ط١ - ١٩٨٣م.

٢٩- كتاب سيبويه: ت د/ عبد السلام هارون - دار الكتاب العربى للطباعة والنشر (١٣٨٨هـ/١٩٦٨م).

٣٠- لسان العرب، لابن منظور: تحقيق نخبة من العلماء - دار المعارف المصرية.

٣١- اللغة العربية معناها ومبناها: د/ تمام حسان - الهيئة المصرية العاملة للكتاب ١٩٧٣م.

٣٢- اللمع فى العربية لابن جنى: ت د/ حسين محمد شرف - عالم الكتب (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م).

٣٣- المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات، لأبى على الفارسى: ت د/صلاح الدين السنكاوى - مطبعة العانى بغداد.

٣٤- المساعد على تسهيل الفوائد لابن عقيل: ت د/ محمد كامل بركات - دار الفكر - دمشق - جامعة أم القرى - ط١.

٣٥- معانى القرآن للفراء: ت د/ أحمد يوسف نجاتى، ومحمد على النجار - الهيئة المصرية العامة.

٣٦- المعنى والإعراب عند النحويين ونظرية العامل: د/ عبد العزيز عبده أبو عبد الله - دار الكتاب والتوزيع والإعلان والمطابع - ليبيا - ط١ (١٣٩١هـ/١٩٨٢).

٣٧- مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام: ت الشيخ/ محمد محى الدين عبد الحميد - مطبعة محمد على صبيح وأولاده.

٣٨- المقتصد فى شرح الإيضاح، للجرجانى: ت د/ كاظم بحر المرجان - العراق.

٣٩- المقتضب، للمبرد: ت الشيخ/ محمد عبد الخالق عضيمة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٣٩٠هـ.

٤٠- من قضايا اللغة والنحو: تأليف على النجدى ناصف - مكتبة نهضة مصر بالفجالة.

٤١- منهج المسالك فى الكلام على ألفية ابن مالك، لأبى حيان: ت "سدنى حليذر" - الجمعية الشرقية الأمريكية ١٩٤٩م.

٤٢- نتائج الفكر فى النحو، للسهيلى: ت د/ محمد إبراهيم البنا - دار الرياض للنشر والتوزيع.

٤٣- النحو الجديد: للأستاذ عبد المتعال الصعيدى.

٤٤- النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة، للشيخ محمد عرفه - مطبعة السعادة.

٤٥- النكت الحسان فى شرح غاية اللسان، لأبى حيان: ت د/ عبد الحسين القتلى - مؤسسة الرسالة بغداد - ط١ (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

٤٦- همع الهوامع فى شرح جمع الجوامع، للسيوطى: ت د/ عبد العال سالم مكرم - دار البحوث العلمية - الكويت (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

ثالثاً: الدوريات:

- مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة العدد الأول سنة (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

الترخيم فى كلام العرب

دراسة نحوية

دكتور

محمد عبد العزيز على مكي

مدرس اللغويات بالكلية

الترخيم في كلام العرب

هذا بحث أعرض فيه للترخيم فى اللغة العربية ، معرفا إياه لغة واصطلاحا ، ومبينا أنواعه ، وذلك تحت مباحث ثلاثة :

المبحث الأول : فى ترخيم النداء : وقدمت بتعريفه ومجيئه فى قراءة واحدة فى القرآن الكريم وفى غيره من كلام العرب ، ثم طفت حول أغراض هذا الترخيم ، وبينت شروط ترخيم المنادى المجرد من هاء التأنيث والمختوم بها ، ثم ختمت ببيان مذاهب العرب فى الترخيم .

المبحث الثانى : وفيه عرضت ترخيم الضرورة وشروطه وبعضا من أحكامه وشواهده فى كلام العرب .

المبحث الثالث : ترخيم التصغير ، أو تصغير الترخيم : وفيه عرضت بإيجاز لهذا النوع من الترخيم ـ لأن هذا ليس بابه ـ وذلك نظرا للمشاكلة التى بين الأنواع الثلاثة .

والذى دعانى إلى الكتابة فى هذا البحث ما كنا نتذاكره من قول النابغة الذبيـــانى : (١)

كلينى لهم يا أميمة ناصب ... وليل أقاسيه بطئ الكواكب

بفتح التاء من أميمة ، مع أنه منادى مفرد فحقه البناء على الضم ، ورأيت أن فريقا من النحويين قد قدر حذف التاء فيه ترخيما ثم أقحمت التاء مفتوحة توكيدا ، وقيل فى البيت غير هذا على ما سيأتى تفصيله ـ إن شاء الله تعالى .

لهذا وغيره بدأت الكتابة فى الترخيم متوخيا آراء العلماء فى ذلك ، والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، إنه نعم المولى ونعم النصير ،،،

---

(١) ديوانه ٤٠ تحقيق محمد أبو الفضل ـ دار المعارف ، وانظر الجمل للزجاجى ١٧٢

١- الترخيم فى اللغة

يطلق الترخيم فى لغة العرب على التسهيل والتليين ونحوهما ،" والرخيم : الحسن الكلام والرخامة : لين فى المنطق حسن فى النساء ، ورخم الكلام والصوت ، ورخم رخامة فهو رخيم لان وسهل . وكلام رخيم أى رقيق ، ورخمت الجارية رخامة فهى رخيمة الصوت ورخيم ، إذا كانت سهلة المنطق ، قال قيس بن ذريح :

ربعا لواضحة الجبين غريرة كالشمس إذا طلعت رخيم المنطق

والترخيم : التليين ، ومنه الترخيم فى الأسماء ، لأنهم إنما يحذفون أواخرها ليسهلوا النطق بها ، وقيل الترخيم الحذف ، ومنه ترخيم الاسم فى النداء ، وهو أن يحذف من آخره حرف أو أكثر كقولك إذا ناديت حارثا ، يا حار ، ومالكا : يا مال ، سمى ترخيما لتليين المنادى صوته بحذف الحرف .... " (١)

وذكر الأصمعى أن الخليل قد أخذ عنه معنى الترخيم قال « وذلك أنه لقينى فقال لى ما تسمى العرب السهل من الكلام ؟ فقلت له : العرب تقول : جارية رخيمة ، إذا كانت سهلة المنطق ، فعمل باب الترخيم على هذا .... " (٢)

ويلاحظ مما تقدم أن أصل مادة الترخيم يدور حول اللين فى المنطق والرقة ونحوهما ، ومنه اشتقاق الرخمة للين مفاصلها ، ويقال : ألقى عليه رخمته أى عطفه ولينه " (٣)

كل ذلك يراد منه تسهيل الصوت وتلينه وترقيقه ، قال الشاعر : (٤)

---

(١) لسان العرب / رخم ١٦١٧ دار المعارف

(٢) المرجع السابق ، وعيون الاعراب للمجاشعى ٢٦٨ . والتصريح ٢ / ١٨٤ والموسوعة اللهبية ٩ / ٢٦١ .

(٣) راجع : شرح عيون الاعراب ٢٦٨ .

(٤) هو ذو الرمة غيلان بن عطية .... من قصيدة له مطلعها :

ألا يا اسلمى يا دار مى على البلى ولا زال منهلا بجرعائك القطر

لهـا بشر مثـل الحرير ومنطق   رخيم الحواشي لاهراء ولانزر
وعينان قـال الله كونا فكانتا   فعولان بالألباب ما تفعل الخمر

أراد بقوله رخيم الحواشي رقيقه ، والحواشي جمع حاشية وهي ناحية الثوب وغيره ، والمراد نواحي الكلام أي أطرفه .

وذكر ابن يعيش من معاني الترخيم في اللغة الضعف ، قال : " الترخيم مأخوذ من قولهم صوت رخيم إذا كان لينا ضعيفا ، والترخيم ضعف في الاسم ونقص له من تمام الصوت ، قال الشاعر :

لهـــا بشـــر ....

يصف امرأة بعذوبة المنطق ولين الكلام ، وذلك مستحب في النساء ...... " (١)

٢ـ أنواع الترخيم في كلام العرب

الترخيم في اللغة العربية ثلاثة أقسام : ـ (٢)

١ ـ ترخيم النداء ، وهو الترخيم المطرد ، وهو الذي سنبدأ بتعريفه اصطلاحا .

٢ ـ ترخيم الضرورة .

٣ ـ ترخيم التصغير .

ونذكر تعريف هذه الأقسام وأحكامها تحت مباحث ثلاثة :

---

(١) شرح المفصل ١ / ١٩

(٢) ينظر توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك = المرادي ٤ / ٣٢

المبحث الأول: ترخيم النــداء

ويسمى الترخيم المطرد ، ونبدأ بتعريفه اصطلاحا :

يطلق هذا الترخيم اصطلاحا على حذف بعض الكلمة على وجه الخصوص [١] ، أو على الحذف الذى يلحق آخر الاسم فى النداء [٢] ، وعبارة الكتاب : " والترخيم : حذف أواخر الأسماء المفردة تخفيفا ، كما حذفوا غير ذلك من كلامهم تخفيفا " [٣] ، وهذا يشمل حذف الكلمة التى بمنزلة البعض كجزء المركب الأخير وتاء التأنيث ـ على ما سيأتى ـ إذ يلزم من حذف الكلمة حذف بعضها ، وهذه التسمية مناسبة للمعنى اللغوى " لأن حذف الآخر من الكلمة تسهيل للنطق بها وتليين له ." [٤]

وذكروا أن المراد بكون هذا الحذف على الوجه المخصوص أن يكون جوازه اعتباطا ليخرج الحذف فى باب عصا وقاض لأن الحذف فيهما لعلة ، وقد ثبت أن بعض الكلمات حذف آخرها اعتباطا جوازا مع أنه ليس ترخيما .[٥]

وهذا الترخيم نوع من أنواع الحذف إلا أنه يلحق أواخر الأسماء المفردة فى النداء كما نص عليه ابن الخباز ، وعبارة ابن عقيل " حذف أواخر الكلم فى النداء ، نحو : ياسعا والأصل : يا سعاد ." [٦]

ومن ذلك قول الشاعر : (٧)

---

(١) التصريح ٢ / ١٨٤

(٢) الموسوعة الذهبية ٩ / ٢٦١

(٣) الكتاب ٢ / ٢٣٩

(٤) شرح الجمل لابن عصفور ٢ / ١١٣

(٥) حاشية يس على شرح الفاكهى على القطر ٢ / ١٠٨ وانظر المقرب لابن عصفور ١ / ١٨٦

(٦) شرح ابن عقيل على الألفية ٣ / ٢٩١ والغرةالمخفية لابن الخباز ٢ / ٥٣٥

(٧) رجز للعجاج ، وفيه حذف الهاء من اسم الجنس المعين ضرورة عند البصريين ، راجع الكتاب ٢ / ٢٣١ وشرح المفصل ٢ / ١٦ ، ٢٠ وشرح اللمحة لابن هشام ٢ / ١١٤ والديوان ٢٢١ .

جـــارى لا تستنكرى عذيرى سيرى وإشفاقى على بعيرى

أراد : ياجارية ، فرخم ، وقال الشاعر : (١)

كادت فزازتشـقى بنـــــا فأولى فزارة أولى فـــزارا

أراد فزارة ، فرخم بحذف آخره ، والألف للإطلاق ، وقال الشاعر : (٢)

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى

وقال الشاعر : (٣)

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

أراد يا عنترة . وقال الشاعر : (٤)

يا ناق سيرى عنقا فسيحا إلى سليمان فنستريحا

أراد : يا ناقة ، وهو نكرة مقصودة . وقال الشاعر : (٥)

يا عبل لا أخشى الحمام وإنما أخشى على عينيك وقت بكاك

أراد يا عبلة ، وقال القطامى (٦)

قفى قبل التفرق يا ضباعا ولا يك موقف منك الوداعا

أراد يا ضباعة ، فرخم . وقال هدبة : (٧)

عوجى علينا واربعى يا فاطما ما دون أن يرى البعير واقفا

---

(١) لعوف بن عطية بن الخرع ، راجع النكت للأعلم ١ / ٥٧٦ وشرح شواهد الكتاب للنحاس ٢٥٠ ، وشرح ابن عقيل على الألفية ٣ / ٢٩١ .

(٢) لامرئ القيس ، ديوانه ١٢ والمرادى على الألفية ٤ / ٣٣ .

(٣) لعنترة بن شداد العبسى من معلقته . ديوانه ٣٠ ـ دار صادر .

(٤) راجع التصريح ٢ / ١٣٩ ..

(٥) لعنترة ديوانه ١٨١

(٦) راجع شرح ابن عقيل ٣ / ٢٩١ .

(٧) راجع النكت للأعلم ١ / ٥٧٧ ، وشرح ابن عقيل ٣ / ٢٩١ .

أراد يا فاطمة ، فرخم كل ذلك بحذف آخر المنادى تخفيفا ، كما قال الزجاجى عن هذا الترخيم " حذف أواخر الأسماء الأعلام فى النداء خاصة تخفيفا " . (١)

وإطلاق الترخيم على الحذف تسمية قديمة ، قال فى الألفية :

ترخيما احذف آخر المنادى   كيا سعا فيمن دعا سعادا

وأكثر ما يكون الترخيم فى الأسماء التى يكثر استعمالها ويشيع فى النداء ، ولذلك خففوا اللفظ لها بالحذف (٢) أى أن الترخيم من خواص النداء ، إلا إن اضطر إليه فى غير النداء على ما سيأتى بيانه .

٤ ـ هل ورد الترخيم فى القرآن الكريم ؟

ذكر ابن جنى فى المحتسب شاهداً لمجئ الترخيم فى القرآن الكريم وذلك فى قراءة على بن أبى طالب وابن مسعود ـ رضى الله عنهما ـ ويحيى والأعمش : ﴿ ونادوا يا مال ليقض علينا ربك ﴾ (٣) فرخم : مالك ،قال أبو الفتح « هذا المذهب المألوف فى الترخم إلا أن فيه فى هذا الموضوع سرا جديدا ، وذلك أنهم لعظم ما هم عليه ضعفت قواهم وذلت أنفسهم وصغر كلامهم ، فكان هذا من مواضع الاختصار ضرورة عليه ووقوفا دون تجاوزه إلى ما يستعمله المالك لقوله القادر على التصرف فى منطقه " . (٤) .

أى أن الغرض من الترخيم هنا هو الاختصار والإيجار الذى تطلبه الموقف الذى هم فيه، وفى حاشية الخضرى ذكر لهذه القراءة ، حيث قال " فقد روى أنه لما

---

(١) الجمل في النحو للزجاجى ١٦٨

(٢) شرح الجمل لابن عصفور ٢ / ١١٣

(٣) سورة الزخرف آية ٧٧ .

(٤) المحتسب ٢ / ٢٥٧ .

قرأ ابن مسعود ﴿ ونادوا يا مال ﴾ قال ابن عباس : ما كان أشغلَ أهل النار عن الترخيم ، فاستبعد هذه القراءة ، لأن الترخيم إنما يكون في مقام الانبساط ونحوه ، إذ هو تحسين للفظ وهم فى شغل عن ذلك بعقابهم .

لكن توجه بأنه ليس تحسينا ، بل لشدة ضعفهم يعجزون عن إتمام الكلمة بهذه القراءة رد على من أنكر ورود حذف بعض الكلمة المسمى بالانقطاع فى القرآن الكريم .. " (١)

وفى شرح اللمحة لابن هشام " فى معرض حديثه عن الترخيم " وأنه حذف أعجاز المناديات لغير علة" .. فقد حكى عن بعضه الصحابة أو التابعين ـ على خلاف في ذلك ـ أنه سمع قارئا يقرأ (ونادوا يا مال) ، فقال : ما أشغل أهل النار عن الترخيم .." . (٢)

والشاهد فى كل ما تقدم أنه قد جاء الترخيم المطرد فى القراءة السابقة ، وإن كانت شاذة ، إلا أن لها وجها فى العربية ، ولا يمكن رد قاعدتها ، لوجود نظائر تعضدها من كلام العرب شعرا ونثرا .

وقد قال الزجاج عن تلك القرءة " وقد رويت : يا مال ، بغير كاف – وبكسر اللام – وهذا يسميه النحويون الترخيم ، وهو كثير فى الشعر فى مالك وعامر، ولكنى أكرههما لمخالفتهما المصحف .. " (٣)

ولم يتعرض الفراء وابن الأنبارى لهذه القراءة ، (٤) وعزاها صاحب الإنصاف لبعض السلف قال " وذكر أنها قراءة أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام " . (٥)

---

(١) حاشية الخضرى على ابن عقيل ٢ / ٨٣ ، وانظر الفصول الخمسون لابن معطى ٢١١ .

(٢) شرح اللمحة ٢ / ١١٢ ، وانظر شواذ القرآن ١٣٦ والجمل ١٦٩ .

(٣) معانى القرآن وإعرابه للزجاج ٤ / ٤٢٠ .

(٤) ينظر معانى القرآن للفراء ٣ / ٣٩ ، والبيان فى غريب إعراب القرآن لأبى البركات بن الأنبارى ٢ / ٣٥٥ .

(٥) الإنصاف فى مسائل الخلاف ٢ / ٣٦١ .

٥ - الترخيم في كلام العرب

ورد الترخيم في كلام العرب نثرا فى مواضع قليلة بالنسبة لورود ، شعرا ، ومن أمثلة ذلك :

١ - قول العرب : ياشا ادجنى ، أى أقيمى بالمكان ، فرخم شاة ، وهى كلمة ثلاثية . (١)

٢ ـ قول العرب : أطرق كرا إن النعام في القرى ، في ترخيم كروان ، (٢) وهو نكرة خصصت بالنداء ، وإن كان قياسها ألا ترخم لفقد العلمية - على ما سيأتى - أو لأن أصلها وصف فلا يجمع عليها حذف اللام مع حذف آخرها ، (٣) وقيل إنه غير مرخم بل هو اسم لذكر الكروان .

٣ ـ قول العرب ياصاح ، فى ترخيم صاحب وهو نكرة خصصت بالنداء قياسها ألا ترخم لما سبق ، إلا أنه قد كثر استعمالها فى كلامهم فلحقها الترخيم ، ومن ذلك قول المعرى :

صاح هذى قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عاد

فقد استعمل (صاح) استعمال الأسماء فجرى مجرى العلم ، ولذا وردت بكثرة فى كلامهم شعراً ونثراً .

٤ ـ نصح أعرابى ابنه عامرا فقال له « ياعام صداقة اللئيم ندامة ومداراته سلامة ، (٤)

٥ ـ سمع رجل أعرابية تتغنى بمزاياها فقال لها : يا أعرابى دعى ما أنت فيه فمن حدث الناس عن نفسه بما يرضى تحدثوا عنه بما يكره . (٥) هذا وروده شعرا كثير فى كلامهم .

---

(١) المرادى ٤ / ٣٣

(٢) قال الدميرى « الكروان طائر يشبه البط لا ينام الليل سمى بضده من الكرى والأنثى كروانة وقالوا : أجبن من كراون لأنه إذا قيل له أطرق كرا إن النعام فى القرى ، التصق بالأرض فيلقى عليه ثوب فيصاد ، وهذا المثل يضرب للمعجب بنفسه . حياة الحيوان ٧ / ١١٣٥ ، ١١٣٦

(٣) راجع صـ ١١

(٤) النحو الوافى ٤ / ٦٨٣ .

(٥) المرجع السابق .

٦ - أغـــراض الترخيــــم

يتضح مما سبق بعض أغراض الترخيم ، وذلك أخذا من عبارات النحويين فى هذا الباب ، ويمكن إجمال أشهرها فيما يلى :

١ - تليين الصوت وتسهيله ، أى بحذف الحرف ، وذلك واضح من عبارة الأصمعى « أخذ عنى الخليل معنى الترخيم ، وذلك أنه لقينى فقال لى : ما تسمى العرب السهل من الكلام ؟ فقلت : العرب تقول : جارية رخيمة ، إذا كانت سهله المنطق ، فعمل باب الترخيم على هذا » . (١) والمعنى أنهم يحذفون أواخر الكلمات ليسهلوا النطق بها فيلين المنادى صوته بحذف الحرف ويرققه

٢ ـ التخفيف ، وهو يتضح من عبارة سيبويه « والترخيم حذف أواخر الأسماء المفردة تخفيفا كما حذفوا غير ذلك من كلامهم تخفيفا ... » (٢) وقول الأعلم « الترخيم المطرد يلزم المنادى دون غيره تخفيفا من اسمه إذا طال لكثرة النداء فى كلامهم » (٣) أى أن الداعى إلى الترخيم فى النداء هو قصد التخفيف ونحوه (٤) قال الخوارزمى « الترخيم كأنه التليين والتكسير وغرضه هو التخفيف ... » (٥)

٣ ـ الضعف الناشىء من خوف أو هول ونحوهما ، مما يحدث العجز عن إتمام النطق بالكلمة كما سبق من عبارة ابن جنى فى المحتسب ، وقول الأعلم « ومعنى الترخيم نقص الاسم عن تمام الصوت به . (٦)

٤ ـ ومن أغراضه التمليح والاستهزاء ونحوهما مما يتطلبه المقام . (٧)

---

(١) اللسان / رخم
(٢) الكتاب ٢ / ٢٣٩ .
(٣) النكت ١ / ٥٧٥
(٤) راجع شرح المفصل ١ / ٢١
(٥) التخمير فى شرح المفصل ١ / ٣٦٥ .
(٦) النكت ١ / ٥٧٥
(٧) راجع النحو الوافى ٤ / ١٠١

٧- شروط ترخيم المنادى المجرد من تاء التأنيث

يجوز ترخيم الإسم - بحذف أخره - إذا كان مجردا من تاء التأنيث ، نحو جعفر وسعاد ، تقول فى ترخيمها : يا جعف ويا سعا ، وذكروا لجواز ذلك الترخيم شروطا يجب أن تتوفر فيه وهى :

الشرط الأول : أن يكون الاسم منادى : وذلك لكثرة النداء فى كلامهم وسعة استعماله ، والكلمة إذا كثر استعمالها جاز فيها من التخفيف ما لم يجز فى غيرها ، ولذلك رخموا المنادى وحذفوا آخره كما حذفوا من التنوين ، وكما حذفوا الياء من يا قوم . [١] قال سيبويه « واعلم أن الترخيم لا يكون إلا فى النداء إلا أن يضطر شاعر ، وإنما كان ذلك فى النداء لكثرته فى كلامهم » . [٢] معنى هذا أن الأسماء غير المناداه لا ترخم إلا فى الضرورة كما سيأتى بعد ذلك .

الشرط الثانى : أن يكون معرفا بالعملية ، وعبارة ابن عصفور « أن يكون قد بنى بسبب النداء .. » [٣]

وإنما اشترطت العلمية لأن نداء الأعلام أكثر ، أو لأن العلم أشهر فيكون الحذف منه أقل التباسا ، والترخيم إنما يكون ولا محل التباس ، ولذا لا يرخم غير العلم من الصفات نحو : قائم وجالس وقاعد .

وإنما اشترط كون المنادى معرفة - أيضا - لأن المعارف كذلك كثر نداؤها فدخلها التخفيف بحذف آخرها ، وخص الآخر بذلك لأنه محل التغيير .

---

(١) راجع النكت ١ / ٥٧٥ وشرح المفصل١ / ١٩٠٠ والمقدمه الجزولية ١٩٧ .

(٢) الكتاب ٢ / ٢٣٩٠٠

(٣) المقرب ١ / ١٨٦٠

وبناء على ذلك لا ترخم النكرة فى نحو قول الأعمى : يا إنسانا خذ بيدى ، ويا امرأة خذى بيدى .

والمراد أن النكره إن كانت غير مقصودة لا ترخم لأنها لم تتغير فى النداء بالبناء ، وإن كانت النكرة مقصودة جاز ترخيمها إن كانت مختومة بالتاء كما سيأتى فى موضعه عند قول العجاج :

جارى لا تستنكرى عذيرى　　　سيرى وإشفاقى على بعيرى

أراد : يا جارية .

فلا ترخم نحو : إنسان لمعين ، لأن تعريفه بالعلمية ، وأجازه بعضهم قياسا على قولهم : أطرق كرا إن النعام فى القرى ، وهو قياس على شاذ قال ابن عصفور : « وما ليس فيه تاء التأنيث لا يجوز ترخيمه إلا صاحبا ، فإنهم رخموه لكثرة الاستعمال ، فقالوا : يا صاح ، وأما قولهم : أطرق كرا فى ترخيم كروان ، وليس فيه تاء فشاذ .... » (١)

أما الشبيه بالمضاف فى نحو : يا طالعا جبلا ، فلا يرخم لأنه لم ينقل فى النداء إلى البناء ، ولأنه كلام عمل بعضه فى بعض فأشبه المضاف والمضاف إليه فلم يجز ترخيمه .

وعبر بعضهم عن هذا الشرط بكون الاسم مضموما ، وأراد أن غير المضموم كالإضافى والمحكى لا يرخم وإن كان علما ، وعبارة المرادى « أن يكون معينا ، فلا يجوز ترخيم النكره غير المقصودة . (٢)

الشرط الثالث : أن يكون الإسم غير مستغاث مجرور باللام : فلا يرخم نحو : يالجعفر ويالعمرة ، وذلك حتى لايفوت الغرض من الاستغاثة ،

---

(١) المقرب ١ / ١٨٦.
(٢) المرادى ٤ / ٣٥ وانظر حاشية الفاكهى ٢ / ١٠٩

ولكون المستغاث معربا . وكذلك فإن المستغاث المجرور باللام شبيه بالمضاف إليه لأنه مجرور مثله ، فكان غير منادى ، إذ لم تعمل أداة النداء فى لفظه وإنما عملت فى موضعه . فإن لم يجر باللام جاز ترخيمه ، نص على ذلك سيبويه فى قوله " ولا ترخم مستغاثا بهِ إذا كان مجروراً لأنه بمنزلة المضاف إليه ...." (١) وأقره عليه شراح كتابه . (٢)

وشاهد ترخيمه غير مجرور قول الشاعر : (٣)

أعام لك بن صعصعه بن سعد   تمنانى ليلقانى لقيط

فقوله : أعام منادى مستغاث به وأصله أعامر ، وليس فيه لام استغاثة ، وقيل إنه ضرورة لمناداته بغير يا ، وذلك ممنوع عند بعضهم . (٤)

وسمع ترخيمه ومعه اللام ، كقول الشاعر : (٥)

كلما نادى مناد منهم   يا لتيم الله قلنا يا لمال

إذ الأصل يا لمال لك ، فرخم المستغاث به وفيه اللام ، وهو ضرورة اتفاقا .

الشرط الرابع : كون الاسم غير مندوب : لحقته علامة الندبة أو لا ، حتى لا يفوت الغرض منها قال سيبويه " ولاترخم المندوب ، لأن علامته مستعملة ، فإذا حذفوا لم يحملوا عليه مع الحذف الترخيم . " (٦)

---

(١) الكتاب ٢ / ٢٤٠ .

(٢) النكت للأعلم ١ / ٥٧٣ .

(٣) قاله شريح بن الاحوص الكلابى، راجع النكت ١ / ٥٧٣، والارتشاف ٣ / ١٥٢ ورواية الاعلم: تمنانى ليقتلنى لقيط   أعلم لك بن صعصعة بن سعد

(٤) راجع ارتشاف الضرب ٣ / ١٥٢ والتصريح ٢ / ١٨٤ .

(٥) قاله مرة بن الرواع الاسدى ، راجع ارتشاف الضرب ٣ / ١٥٢ .

(٦) الكتاب ٢ / ٢٤٠ .

فلا ترخم نحو : واجعفراه ، لما سبق ، ولأن المندوب ليس منادى حقيقة ، وإن كانت صورته صورة المنادى لأنه لا يطلب إقباله كما هو الشأن فى النداء ولأن المندوب لو رخم لذهبت منه فائدة الندبة بزوال الحرف الدال عليها .

الشرط الخامس : كون الاسم مفرداً : أى غير ذى إضافة ، خلافا للكوفيين [١] ، وعبارة بعضهم " ليس مركبا تركيب إضافة كعبد شمس ، فلا يرخم المضاف حقيقة أو حكما . واحترز ابن الخباز من ذلك بقوله " أن يكون مبنيا على الضم " ليخرج المضاف والمشابه له " . [٢]

وإنما اشترط الإفراد لما يأتى : [٣]

أ ـ أن الاسم المفرد أثر فيه النداء وأوجب له البناء بعد أن كان معربا والمضاف والمضاف إليه لم يؤثر فيه النداء بل حالهما بعد النداء فى الإعراب كحالهما قبل النداء ، فلما كان حكم المفرد فى النداء مخالفا حكمه فى غير النداء وكان الترخيم إنما يسوغه النداء جاز ، ولما كان المضاف والمضاف إليه جاريين على الإعراب فى النداء كجريهما فى غير النداء ، وكان غير النداء لايجوز فيه الترخيم لم يجز فيهما . هذا مع عدم السماع ، والذى ورد من الترخيم عن العرب إنما هو فى المفرد ، نحو يا حار فى يا حارث .

ب ـ وأن الإضافة الغرض منها إزالة اللبس ، وفى الترخيم إثبات اللبس ، فيحدث التناقض ولذلك لايجوز ترخيم نحو : يا أمير المؤمنين ويا طالبا المال ، حتى لا يحدث هذا اللبس .

---

(١) انظر الإنصاف المسألة ٤٨ وشرح المفصل ١ / ٢٠ .

(٢) الغرة المخفية ٢ / ٥٣٥ .

(٣) شرح المفصل ١ / ٢٠ .

حـ - وأن المضاف إليه منزل من المضاف منزلة التنوين مما قبله ، فليس بآخر المنادى حقيقة ، كما أن المضاف إليه ليس مقصودا بالنداء .

أما قول الشاعر : (١)

مهر أبى الحبحاب لاتشلى بارك فيك الله من ذى إل

فقوله مهر منادى مضاف غير مرخم ، ولو أراد الترخيم ما أضافه ، ولو كان يريد مهرة ، لقال من ذات إل ، نص عليه صدر الأفاضل الخوارزمى فى شرحه للمفصل . (٢)

ونقل عن الكوفيين والكسائى جواز ترخيم المضاف إليه بحذف عجزه ، فيقولون فى يا أبا عروة : يا أبا عرو ، وفى يا آل عكرمة: يا آل عكرم ، وشاع هذا عندهم (٣) ، وجعلوا من ذلك قول الشاعر : (٤)

خذوا حظكم يا آل عكرم واذكروا أواصرنا والرحم بالغيب تذكر

أراد : يا آل عكرمة ، وهو عند البصريين ضرورة ، ومنه قول الشاعر : (٥)

يا أبا عرو لاتبعد فكل ابن حرة سيدعوه داعى ميتة فيجيب

أراد : يا أبا عروة ، فحذف حرف النداء ورخمه بحذف التاء وهو مضاف إليه ، وأخرجه البصريون عن أيديهم بالضرورة ، كحال ما رخم فى غير النداء ، وإذا امتنع عند البصريين ترخيم المضاف لأنه بمثابة وسط الاسم، فلا ينظر إليه بتغيير ولاغيره ، ولذا حكموا بالضرورة على قول الشاعر : (٦)

---

(١) قاله أبو الخضر اليربوعى ... راجع التخمير فى شرح المفصل ١ / ٣٦٦
(٢) المرجع السابق
(٣) راجع الإنصاف ٢ / ٣٤٨ وما بعدها
(٤) قاله زهير بن أبى سلمى شرح ديوانه ٢١٤ وشرح المفصل ١ / ٢٠ . .. والإنصاف ٢ / ٣٤٧ وارتشاف الضرب ٣ / ١٥٢ ، وآل عكرم هم آل عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر .
(٥) لم يعرف قائله ، وتبعد من البعد وهو الهلاك ، راجع الإنصاف ٢ / ٣٤٨ ، وشرح الكافية الشافية ٣ / ١٣٦١ وشرح المفصل ١ / ٢٠ . وشرح اللمحة لابن هشام ٢ / ١١٣ .
(٦) قاله أوس بن حجر ، راجع : ارتشاف الضرب ٣ / ١٥٣ ، والمرادى ٤ / ٣٥ ، وشفاء العليل ٢ / ٨٣٣ ، والتخمير ١ / ٣٦٦ ، والأشمونى ٢ / ٧٣ .. والواضح فى النحو ٣ / ٣٧٤ . وليس فى ديوانه ط دار صادر .

يا علقم الخير قد طالت اقامتنا هل حان منا إلى ذى الغمر تسريح ؟

أراد يا علقمة الخير ، فرخم علقمة وهو مضاف ضرورة لما سبق .

ومن ترخيم المضاف إليه بحذف عجزه قول الشاعر : (١)

إما ترينى اليوم أم حمز قاربت بين عنقى وجمزى

أراد أم حمزة ، وهو حجة للكوفيين فى جواز ترخيم المضاف إليه لأنه مع المضاف كالكلمة الواحدة فصار كالمفرد في جواز ترخيمه ، واحتجوا بالسماع كذلك، فإن الشواهد على هذا كثيرة جدا فدل على جوازه .... (٢) والصواب ما ذهب إليه البصريون لأن المضاف إليه ليس منادى حقيقة ، كما أن المضاف بمنزلة وسط الكلمة فلايدخله ترخيم كما لايدخل وسط الكلمة إذ هو خاص بأواخر الأسماء .

وأندر من هذا حذف المضاف إليه بأسره ، كقول الشاعر : (٣)

يا عبد هل تذكرنى ساعة فى موكب أو رائدا للقنيص

أراد يا عبد عمرو ، أو : يا عبد هند ، وهو علم له .

الشرط السادس : أن يكون الاسم غير ذى إسناد ، أى ليس مركبا تركيب إسناد ، وعبارة بعضهم : ليس محكيا ، نحو شاب قرناها وقامت هند ، فلا ترخم ـ أعلاما ـ وذلك لسببين :

أولا : أن أصل ذلك الجملة والجملة لا ترخم .

ثانيا : أن الجزء الثانى ليس منادى حقيقية .

وقد احترز بقيد الإسناد عن المركب المزجى ، فرخمه بعضهم ، إلا أنه يفتقر إلى السماع ، إلا أن من رخمه حذف عجزه فى نحو معدى كرب فقال :

---

(١) نسب لرؤبة بن العجاج . راجع الكتاب ٢ / ٢٤٧ ، والإنصاف ٢ / ٣٤٩ .

(٢) راجع الإنصاف ٢ / ٣٤٩ .

(٣) قاله عدى بن زيد ، راجع : شرح الكافية الشافية ٣ / ١٣٥٩ ، وارتشاف الضرب ٣ / ١٥٣ ، والتخمير ١ / ٣٦٦ والتصريح ٢ / ١٨٤ .

يا معدى ، وحجته أن الجزء الثانى يشبه تاء التأنيث من وجوه : (١)
أ ـ فتح ما قبله غالبا .
ب ـ حذفه فى النسب .
جـ ـ تصغير صدره .

وقد ذهب ابن مالك فى الألفية والتسهيل (٢) إلى جواز ترخيم المركب الإسنادى على قلة ، وذكر أن سيبويه نقل ذلك عن العرب فى باب النسب (٣) فقال فى شرح التسهيل " ونص ـ يعنى سيبويه ـ فى باب النسب أن من العرب من يرخمه ، فيقول فى : يا تأبط شرا : يا تأبط ، ورتب على ترخيمه النسب اليه ، قال : ولا خلاف فى النسب إليه" (٤)

والحاصل أن سيبويه قد ذكر فى باب الإضافة إلى الحكاية أنك إذا أضفت إلى الحكاية حذفت وتركت الصدر بمنزله عبد القيس وخمسة عشر فلزمه الحذف لما لزمها وذلك فى تأبط شرا : تأبطى ، قال سيويه : « ويدلك على ذلك أن من العرب من يفرد فيقول : يا تأبط أقبل ، فيجعل الأول مفردا ، فكذلك نفرده فى الإضافة .. »(٥) وأراد بالإضافة النسب .

وذكر سيبويه فى باب الترخيم منع ترخيم المركب الإسنادى ، فقال : " واعلم أن الحكاية لا ترخم ، لأنك لا تريد أن ترخم غير منادى ، وليس مما يغيره النداء وذلك نحو : تأبط شرا وبرق نحوه ، وما أشبه ذلك ... ولو رخمت هذا لرخمت رجلا يسمي بقول عنترة :

يا دار عبلة بالجواء تكلمى .... " (٦)

وقد قال الشيخ خالد الأزهرى معقبا على ما ظاهره التعارض فى كلام سيبويه " وإذا كان للمجتهد فى مسألة واحدة نصان متعارضان فى بابين فالعمل

---

(١) راجع حاشية يس العليمى ٢ / ١٠٩ والمقرب ١ / ١٨٦ .
(٢) راجع شرح التسهيل ٣ / ٤٢١ وشرح الكافية الشافية ٣ / ١٣٥٩ والتصريح ٢ / ١٨٥
(٣) الكتاب ٣ / ٣٧٧
(٤) شرح التسهيل ٣ / ٤٢١
(٥) الكتاب ٣ / ٣٧٧
(٦) الكتاب ٢ / ٢٦٩ والبيت فى ديوان عنترة ١٥ وعجزه : وعمى صباحا دار عبلة واسلمى

على المذكور فى بابه ، لأنه بصدد تحقيقه وإيضاحه ، بخلاف ما يذكر فى غير بابه فإنه لم يعتن به كاعتنائه بالأول لكونه ذكره استطرادا ، هذا إذا لم يثبت أنه رجع عن إحداهما ولم يكن هناك تاريخ " . (١)

وذكر الدمامينى أنه لا تعارض بين المحلين ، إذ ما نقله فى أبواب الترخيم محمول على المستعمل عند أكثر العرب ، وما نقله فى بعض أبواب الإضافة ـ أى النسب ـ محمول على المستعمل عند بعضهم ، وقوله : ويدل على ذلك أن من العرب من يفرد ويقول : يا تأبط أقبل ، يشعر بما أشرنا إليه " . (٢)

لذا كان الصحيح أن المركب الإسنادى لا يرخم ، قال ابن الخباز : " (٣) ومن لطيف مسائلها أن يزيد من قوله : (٤)

نبئت أخوالى بنى يزيد --- ظلما علينا لهم فديد

لا يجوز ترخيمه لأن معه ضميرا متويا فهو كالظاهر المصرح به ، والخالى من الضمير يرخم كبيت الكتاب : (٥)

فقلتم تعال يا يزى بن مخرم   فقلت لهم إنى حليف صداء "

الشرط السابع : أن يكون الاسم زائدا على الثلاثة أحرف ، أى رباعيا فأكثر، نحو : ياسعا فى سعاد، وذلك لأن المستوجب للتخفيف هو الزائد ، إلا ما كان آخره تاء التأنيث ، فإن الزيادة على الثلاثة غير مشترطة فيه ، كما سيأتى بيانه .

فلا ترخم على هذا نحو زيد وعمرو ونحوها من كل ثلاثى ساكن الوسط ، ولا نحو : حَكَم وسقر من كل ثلاثى محرك الوسط ، لأن فى حذف آخرها إجحافا ، إذ الثلاثى أعدل الأصول فكرهوا الحذف فيه ، هذا على الصحيح عند الجمهور . (٦)

(١) التصريح ٢ / ١٨٥
(٢) حاشية العليمى ٢ / ١٨٥
(٣) الغرة المخفية ٢ / ٥٤٤ وما بعدها
(٤) رجز لرؤبة ، المرجع السابق .
(٥) ليزيد من مخرم الحارثى من شعراء الجاهلية ، راجع الكتاب ٢ / ٢٥٣ والأمالى الشجرية ٢ / ٨١
(٦) راجع الانصاف مسألة ٤٩ جـ٢ / ٣٥٦ وما بعدها والموسوعة اللهبية ٩ / ٢٦٥ .

وقد قال ابن يعيش معللا عدم ترخيم الثلاثى المجرد " وذلك لأن أقل الأصول ما كان على ثلاثة فإذا حذفت من الخمسة حرفا ألحقته بالأربعة وقربته من الثلاثة تخفيفا له بقربه من الثلاثة الذى هو أقل الأبنية ، وإذا حذفت من الأربعة بلغت الثلاثة وإذا بلغت الثلاثة لم يجز أن تحذف منه شيئا لأنه لم يكن دونها شئ من الأصول فتبلغه لأنها هى الغاية " . (١)

وعلل ابن عصفور لذلك بقوله " لأنهم كرهوا أن يذهبوا من أقل الأصول وأن تنهكه الغاية فى القلة " . (٢)

وأجاز الفراء ،(٣) ونسب الى الجرمى ، ونسبه بعضهم إلى الكوفيين ـ إلا الكسائى ـ الترخيم فى محرك الوسط العارى من هاء التأنيث ، فقالوا فى ترخيم نحو : حكم : يا حك ، وحجتهم فى ذلك : إجراء لحركة الوسط مجرى الحرف ، كما أجروا نحو سقر ، مجرى زينب ونحوه فى منع الصرف لا مجرى هند فى جواز الصرف وعدمه

ورد ابن عصفور هذا المذهب بعدم السماح عن العرب فى ذلك . (٤) وعقد ابن الأنبارى مبحثا مستفيضا للرد على هذا المذهب . (٥)

ونقل عن الكوفين جواز الترخيم فى ساكن الوسط ومتحركة على السواء ، حيث قاسوا ساكن الوسط على نحويد فى غير الترخيم ، اذ أصله يدى ، ثم دخله الحذف وجوبا ، فدخوله جوازاً يكون أولى ..

والظاهر أن ترخيم الثلاثى محرك الوسط لم يسمع عن العرب ، وهو إن وافق وجها من القياس إلا أنه يفتقر الى السماع .

بقى أن الرباعى الذى ثالثه ساكن نحو قمطر وسبطر ـ رخمه الكوفيون بحذف

---

(١) شرح المفصل ١ / ٢٠ ،
(٢) شرح الجمل ٢ / ١١٣
(٣) ينظر شرح المفصل ١ / ٢٠ وشرح الجمل ٢ / ١١٤ وشرح الكافية الشافية ٣ / ١٣٥٧ والإنصاف مسألة ٤٩ جـ٢ / ٣٥٦ وما بعدها ، وإصلاح الخلل لابن السيد ٢٤٢ .
(٤) ينظر شرح الجمل ٢ / ١١٣
(٥) الإنصاف مسألة ٤٩

الحرف الأخير وما قبله ، فقالوا : يا قم ويا سب وحجتهم خوف شبهه الحروف والأسماء المبنية في سكون آخرها ، ورده البصريون بعدم الاطراد ورخموه بحذف آخره فقط . (١) .

الشرط الثامن : كون الاسم غير مضمر أو مبهم : نحو : أنا وأنت وهذا وهذان وهاتان وهؤلاء لأنها لم تتغير عن أصل وضعها في نداء ولا غيره ..

الشرط التاسع : كون الاسم غير مختص بالنداء نحو : فل ، (٢) وفلة ، وملأن ومكرمان ، أما قولهم يا ملأم ، فليس مرخما ، بل هو مبني على مفعل من اللؤم .

الشرط العاشر : كون الاسم غير مبني قبل النداء ، أي ليس من الألفاظ المبنية أصالة قبل النداء ، نحو : خمسة عشر وحذام ورقاش أعلاما ، وفي الارتشاف : وفي النهاية يجوز ترخيم حذام ، لأنها حلت محل ما يبنى فيه مثلها بدليل قولهم : يا حذام الكريمة ، ترفع الصفة لما ترفعها في : يا زينب الكريمة " . (٣) .

هذه هي جملة الشروط التي وضعها النحويون لترخيم المجرد من هاء التأنيث ، على خلاف في بعضها كما تقدم ، وقد يضاف إليها عدم كون الاسم مرخما ، لأن المرخم لا يرخم ، ومن طرائف ما قرأته في ذلك ما قاله الزجاجي في مجالسه من أن أبا عمرو الجرمي " كان يوما في مجلسه وبحضرته جماعة من الفقهاء ، فقال لهم سلوني عما شئتم من الفقه فإني أجيبكم على قياس النحو ، فقالوا له : ما تقول في رجل سها في الصلاة فسجد سجدة السهو فسها ، ؟ فقال لاشئ عليه ، قالوا له : من أين قلت ذلك ؟ قال أخذته من باب الترخيم ، لأن المرخم لا يرخم " . (٤)

---

(١) الإنصاف مسألة ٥٠ جـ٢ / ٣٦١ وما بعدها

(٢) معناها فلان وليس ترخيما له والاقيل يا فلا ، قال الكميت :

وجاءت حوادث في مثلها يقال لمثلي ويها فل

وقد تستعمل في غير النداء ضرورة ، قال أبو النجم : (في لجنة أمسك فلانا عن فل)
راجع الغرة المخفية لابن الخباز ٢ / ٥٤٦ ، ٥٤٧.

(٣) ارتشاف الضرب ٣ / ١٥٣

(٤) مجالس العلماء ١٩٢

فإن تحققت الشروط السابقة في المجرد رخم جوازا ، وقد يحذف منه حرف واحد أو حرفان على النحو التالي :

أ ـ فيحذف منه حرف واحد في المفرد ، وهو الغالب ، تقول في جعفر وسعاد : يا جعف ويا سعا ، وفي حارث ومالك : يا حار ، ويا مال ، ومنه قراءة ابن مسعود السابقة " (ونادوا يا مال ليقض علينا ربك) ، وقول الشاعر (١) :

يا حار لا تجهل على أشياخنا إنا ذوو السورات والأحلام

ب ـ وقد يحذف منه حرفان مع كون الحرف الذى قبل الآخر من أحرف اللين ، أي ألفا أو واوا أو ياء ، بشرط سكون هذه الأحرف وكون حركة ما قبلها من جنسها لفظا أو تقديرا ، نحو : مروان ومسكين ومنصور أعلاما ، وكذا مصطفون ومصطفين علمين .

وقد يكون الحرفان زائدين نحو أسماء ومروان وطائفى ، أو مكونين من حرف صحيح قبله مدة نحو منصور ومسكين علمين .

وجملة الشروط التى وضعها النحويون لحذف حرف مع الحرف الأخير : (٢)

١ ـ أن يكون ما قبل الآخر حرف لين ، فإن كان صحيحا حذف الأخير وحده كما في نحو : سفرجل وقمطر ، تقول يا سفرج ، ويا قمط ، خلافا للفراء في ترخيمهما فإنه قال يا قم ، ويا سب ، بحذف حرفين ، على نحو ما سبقت الاشارة إليه .

٢ ـ أن يكون ما قبل الآخر ساكنا ، فلو تحرك لم يحذف ، نحو هبيخ وقنور ، تقول : يا هبى ، ويا قنو .

٣ ـ أن يكون هناك ما قبل الآخر زائدا ، فلو كان أصليا ، لم يحذف كما في مختار ونحوه ، تقول : يا مختا ، وأجاز بعضهم حذف ما قبل الآخر أيضا . .

---

(١) قاله مهلهل بن ربيعة ، ونسب لشرحبيل بن مالك ، راجع الكتاب ٢ / ١٩١ ، ٢٥١ والنكت للأعلم ١ / ٥٨١

(٢) راجع شرح الجمل ٢ / ١١٤ ، ١١٥ والمقرب ١ / ١٨٧

٤ ـ أن يكون ما قبل الآخر رابعا فصاعدا ، فلو كان ثالثا ، نحو : عماد وسعيد وثمود ، رخم بحذف آخره فقط ، وأجاز الفراء حذف ما قبل الآخر أيضا .

٥ ـ أن تكون حركة ما قبل الآخر مجانسة ، وإلا حذف الآخر وحده كما فى فرعون ونحوه ، وأجاز الجرمى حذف ما قبل الآخر أيضا .

وفى شروط المجرد من تاء التأنيث يقول ابن مالك :

.... والذى قد رخما
بحذفها وفره بعد واحظلا ترخيم ما من هذه الها قد خلا
إلا الرباعى فما فوق العلم دون إضافة وإسناد متم
والعجز احذف من مركب وقل ترخيمه جملة وذاك عن عمرو نقل

٨ـ شروط ترخيم المنادى المختوم بتاء التأنيث

ذكروا أن المنادى المختوم بتاء التأنيث يكون نداؤه مرخما أكثر من ندائه تاما من غير ترخيم ، قال الأعلم " اعلم أن الترخيم لا يكثر فى شئ ككثرته فى ما آخره هاء التأنيث ، لأنها شئ مضاف الى الاسم وليس من نفسه ، لأنها لا تعود فى جمع مكسر ولا سالم كما تعود ألف التأنيث ، ولأنها إذا دخلت للتأنيث لم تغير بنية ما تدخل عليه من المذكر وهى مع ذلك متغيرة ، تكون تاء فى الوصل وهاء فى الوقف ، ودخولها فى الكلام أكثر من دخول ألفى التأنيث لأنها تدخل على أفعال المؤنث وعلى بعض أسماء المذكر للتوكيد فلما كانت هكذا كثر حذفها فى الترخيم " . (١)

---

(١) النكت ١ / ٥٧٥ ، ٥٧٦ .

وهو هنا يذكر أن الذى يحذف عند الترخيم هو الهاء فقط كما قالوا فى فاطمة : يا فاطم وفى عائشة : يا عائش إلا أنهم قد يقحمون هاء التأنيث مفتوحة كأنها الحرف الذى قبلها كما سيأتى عند قول النابغة :

كلينى لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطئ الكواكب

وهو يعلل لكون التاء أجدر الحروف بالحذف عند الترخيم ، وأن علة ذلك تنحصر فيما يأتى :

١ - أن التاء فى حكم الانفصال لا يبنى عليها الاسم بناء وثيقا ، فسهل حذفها هنا لأن الترخيم مبنى على التخفيف .

٢ - أن المختوم بتاء التأنيث بمنزلة اسم ضم الى اسم كحضرموت ورامهرمز ، فجاز حذف الثانى منه كما جاز فى حضرموت ، ويبقى على حرفين - إن كان ثلاثيا - ليكون بمنزلة نحو : يد ودم ، إذ الهاء فيه بمنزلة المنفصلة . (١)

٣ - أن هذه التاء متغيرة لكونها تبدل هاء فى الوقف إبدالا مطردا ، ودخولها الكلام أكثر من دخول ألفى التأنيث ، لأنها قد تدخل الأفعال الماضية للتأنيث نحو : قامت هند ، وتدخل المفرد توكيدا أو مبالغة ، نحو علامة ونسابة ، فلما كانت الهاء كذلك ساغ حذفها بل كان حذفها أولى ، لما يحصل بذلك من الخفة من عدم الإخلال ببنية الكلمة ، لأن التغير اللازم لها من نقلها من التاء الى الهاء يسهل تغيرها بالحذف ، لأن التغيير يؤنس بالتغيير كما ذكر ابن يعيش ، وأضاف " فإذا كانت فى الكلمة لم يحذفوا غيرها قلت حروفها أو كثرت شائعا كان أو خاصا ، تقول فى الخاص : يا مسلم أقبل ، وفى مرجانة : يا مرجان أقبلى ، وفى النكرة قالوا : يا عاذل أقبلى ، يريدون : يا عاذلة (٢) ومنه قول الشاعر (٣)

---

(١) راجع شرح المفصل ١ / ٢٠ والتصريح ٢ / ١٨٩

(٢) شرح المفصل

(٣) لجرير انظر شرح المفصل ٤ / ١١٥ .. وشرح ديوان جرير - ايليا الحاوى صـ ٨٩

أقلى اللوم عاذل والعتابا وقولى إن أصبت لقد أصابا

أراد يا عاذلة .

وذكر كثير من النحويين ـ أخذا من ظاهر عباراتهم ـ أن المختوم بتاء التأنيث يرخم بلا شرط فيه ، أى مطلقا ، سواء كان تعريفه بالعلمية أو بالقصد والإقبال ، وسواء كان على أربعة أحرف أو أقل . [١] علما أو غير علم ، وهذا ظاهر من قول ابن مالك :

وجوزنه مطلقا فى كل ما أنث بالها والذى قد رخما ...

وأخذا من كلامهم يمكن أن نجد شروطا ثلاثة لترخيم المنادى المختوم بتاء التأنيث وهى :

١ ـ ألا يكون مختصا بالنداء ، نحو فلة ، فإنه لا يرخم ، على ما سبق بيانه فى المجرد منها .

٢ ـ التعيين وهذا الشرط ذكره ابن مالك.[٢]

٣ ـ عدم الإضافة ، ذكره ابن مالك أيضا [٣]

ونقل عن المبرد منعه ترخيم ما فيه تاء التأنيث من النكرات المسموعة ، ثم ردوده بالسماع حيث قالوا : يا شا ادجنى فى : يا شاة ادجنى ، وقول الشاعر : [٤]

جارى لا تستنكرى عذيرى سيرى وإشفاقى على بعيرى

أراد يا جارية ، فحذف حرف النداء ورخم بحذف الهاء . [٥]

ومن ترخيم هذا النوع قول الشاعر : [٦]

يا عبل لا أخشى الحمام وإنما أخشى على عينيك وقت بكاك

---

(١) شرح المفصل ١ / ٢٠

(٢) شرح الكافية ٣ / ١٣٥١

(٣) المرجع السابق

(٤) للعجاج سبق ذكره ، راجع شرح المفصل ١ / ٢٠ وشرح الكافية الشافية ٣ / ١٣٥٢

(٥) راجع شرح المفصل ١ / ٢٠ ...وانظر المقتضب ٤ / ٢٤٣ ، ٢٦٤

(٦) البيت وما بعده من أبيات سبق ذكرها .

أراد يا عبلة ، وقول امرى القيس :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل فان كنت قد أزمعت صرمى فأجملى

أراد : أفاطمة ، وقول عنترة :

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

هذا ولا يرخم المختوم بتاء التأنيث إلا على نية المحذوف وتسمى بلغة من ينتظر الحرف المحذوف ، وذلك خوفا للبس بين المختوم بالتاء والمذكر ، تقول فى ترخيم نحو : مسلمة : يا مسلم . بفتح الميم المتطرفة .

فإن أمن اللبس جاز ترخيمه على اللغتين نحو همزة علما ،على ما سيأتى بيانه فى وجهى الترخيم ، ولذلك يقول ابن مالك :

والتزم الأول فى كمسلمة وجوز الوجهين فى كمسلمة

والذى يرخم بحذف تائه لا يرخم ثانيا بعد حذف تائه ، لأن المرخم لا يرخم كما سبق بيانه ، وأجازه سيبويه فيما نسب إليه (١) وجعلوا من ذلك قول الشاعر : (٢)

أحار بن بدر قد وليت ولاية فكن جرذا فيما تخون وتسرق

يريد أحارثه ، وقول الشاعر : (٣)

يا أرط انك فاعل ما قلتم والمرء يستحيى اذا لم يصدق

أراد يا أرطاة .

---

(١) راجع الكتاب ٢ / ٢٤٢

(٢) لأنس بن زنيم يخاطب الحارث بن بدر، الواضح فى النحو ٣ / ٣٧٦ والأشمونى ٣ / ١٧٥ ...

(٣) لزميل بن الحارث يخاطب أرطاة بن سهية ، راجع الأشمونى ٣ : ١٧٥

مذاهب العرب في الترخيم
"نوعا الترخيم"

الذى ورد عن العرب فى الترخيم وجهان أو لغتان :

الوجه الأول : لغة من ينتظر أو من ينوى تقدير ثبوت المحذوف .

والأكثر فى كلام العرب أن ينوى الحرف المحذوف لأنه فى نية الملفوظ به ، فلا يغير ما بقى عن حاله من حركة أو سكون .

فيبقى على فتحه إن كان مفتوحا ، وعلى كسره إن كان مكسورا وعلى ضمه إن كان مضموما وعلى سكونه إن كان ساكنا .

فتقول فى ترخيم نحو جعفر على هذه اللغة : يا جعف ، ببقاء الفاء مفتوحة كما هى قبل الترخيم وتقول فى غضنفر وحارث ومنصور وهرقل وثمود : يا غضنف ، ويا حار ، ويا منص ويا هرق ، ويا ثمو فتحذف آخر الاسم ويكون الحذف مرادا فى الحكم كالثابت المنطوق به ، فتدع ما قبله على حاله فى حركته وسكونه إيذانا وإشعارا بإرادته .

وهذه اللغة هى اللغة الأعرف ، وهى الأصل لأن المحذوف يكون مرادا لفظا أو تقديرا . " (١)

وقد جاء على ذلك القراءة السابقة " ونادوا يا مال ليقض علينا ربك " (٢) بكسر الميم على لغة من ينتظر وهى قراءة عبد الله وعلى وابن وثاب والأعمش ، وقرأ أبو السرار الغنوى " يا مال " بالبناء على الضم على لغة من لا ينتظر الآتية بعد ، كأنه جعله اسما على حياله .

والقراءة على لغة من ينتظر هى مذهب الجمهور .

---

(١) راجع : شرح الجمل لابن عصفور ٢ / ١١٥ وشرح الكافية الشافية ٣ / ١٣٦٣

(٢) سورة الزخرف ٧٧ ، وانظر المحتسب ٢ / ٢٥٧ .

وعلى قراءة من ينتظر جاء قول الشاعر : (١)

يا حار لا أرمين منكم بداهية   لم يلقها سوقة قبلى ولا ملك

وقول الشاعر : (٢)

أحار ترى برقا أريك وميضة   كلمع اليدين فى حبى مكلل

وقول الشاعر : (٣)

فقد رأى الراءون غير البطل   أنك يا معاو يا ابن الأفضل

أراد : يامعاوية ، وروى : .... يا معاوى ابن الأفضل

وقول حسان : (٤)

حار بن كعب ألا أحلام تزجركم   عنا وأنتم من الجوف الجماخير

وقول المهلهل بن ربيعة يخاطب الحارث بن عباد : (٥)

يا حار لا تجهل على أشياخنا   إنا ذوو السورات والاحلام

وقول الشماخ : (٦)

أعائش ما لأهلك لا أراهم   يضيعون الهجان مع المضيع

---

(١) هو زهير بن أبى سلمى ، راجع الجمل ١٦٩ وعيون الأعراب ٢٦٩

(٢) هو امرؤ القيس ، وروى : أصاح ترى ، راجع الكتاب ٢ / ٢٥٠ والامالى الشجرية ٢ / ٨٨ . وديوان امرئ القيس ٢٤ ـ دار المعارف

(٣) هو العجاج ، راجع الكتاب ٢ / ٢٥٠ وارتشاف الضرب ٣ / ١٦١ وفى الديوان ١٦٣ ، ١٤٦ :

(٤) ديوانه ١٧٨ تحقيق د : حنفى ، والجمل ١٦٩ .

(٥) سبق ذكره وانظر الكتاب ٢ / ٢٥١ .

(٦) ديوانه ٢١٩ تحقيق صلاح الدين الهادى ، والهجان كرائم الابل ، والبيت فى جمل الزجاجى ١٧٠ .. وبعد البيت :

وكيف يضيع صاحب مدفئات   على أثباجهن من الصقيع

وقول زهير : (١)

خذوا حظكم يا آل عكرم واذكروا   أواصرنا والرحم بالغيب تذكر

يريد : عكرمة ، فحذف التاء وأبقى المحذوف الذى كان قبلها على حاله من الفتح لأنه نوى رد التاء المحذوفة ، وقيل إن عكرم مراد به القبيلة فمنع صرفه للعلمية والتأنيث ، وعليه فلا شاهد ،

ومن ذلك قول جرير : (٢)

ألا أضحت حبالكم رماما   وأضحت منك شاسعة أماما

أراد يا أمامة ، وروى .... وما عهدى كعهدك يا أماما

وقيل ان أماما مرخم فى غير النداء ضروة ـ على ما سيأتى ـ نص عليه الزجاجى . (٣)

ومن ذلك قول أبى زبيد الطائى : (٤)

ترى القليل كثيرا حين تسأله   ولا تخالجه المحلوجة الكثر

يا أسم صبرا على ما كان من حدث   إن الحوادث ملقى ومنتظر

أراد يا أسماء ، فرخمه بحذف الألف والهمزة . وقول عمر بن أبى ربيعة : (٥)

قفى فانظرى يا أسم هل تعرفينه   أهذا المغيرى الذي كان يذكر ؟

وقول الشاعر : (٦)

يؤرقنى أبو حنش وطلق   وعمار وآونة أثالا

أراد وآونة أثالة فرخمها فى غير النداء ضرورة كما سيأتى وقيل ان التقدير أذكر أثالا ورده الفارسى . (٧)

---

(١) سبق ذكره وانظر ما يحتمل الشعر من الضرورة ٩٦ .   (٢) شرح ديوان جرير ٦٠٣

(٣) الجمل ١٧٤١

(٤) تقدم ذكر البيت الثانى ، ونسب للهيد ، راجع الكتاب ٢ / ٢٥٨ والجمل ١٧١ والامالى الشجرية ٢ / ٨٧ والغرة المخفية ٢ / ٥٤٠ .   (٥) ديوانه ٩٣ والجمل ١٧١

(٦) لابن أحمر ، راجع المسائل العسكرية ١٦٦   (٧) المرجع السابق .

٢ ـ الوجه الثانى : لغة من لا ينتظر أو من لم ينو رد المحذوف ، أى على تقدير التمام وتناسى المحذوف : (١)

فيجوز ألا تنوى المحذوف ، فتجعل الباقى بعد الحذف اسما برأسه ، وتجعل الحرف الذى قبل المحذوف كأنه آخر الاسم فى أصل الوضع من غير حذف ، فلا يبقى على حاله الذى كان عليه ، بل يضم معاملة له الأسماء التامة أى المنادى المفرد من حيث البناء على الضم .

تقول فى ترخيم نحو جعفر وحارث وهرقل ـ على هذه اللغة ـ : يا جعف ويا حار ، ويا هرق ، بالضم فيهن ، وتقول فى ترخيم نحو منصور ، يا منص .

وهذه الضمة التى فى ترخيم منصور هى الضمة الحادثة للبناء وليست الضمة التى كانت قبل الترخيم بدليل أن هذه يجوز اتباعها بخلاف الضمة الأخرى .

وتقول فى ثمود : يا ثمى ، بقلب الواوياء والضمة كسرة لأنك تعامله معاملة الاسم التام إذ لا يوجد اسم معرب آخره واو قبلها ضمة .

ومن الترخيم على هذه اللغة قول الشاعر : (٢)

لا تظلمن سالما يا حار   فإنه لابن كراع جار

وقول الشاعر :

يا مرو إن مطيتى محبوسة   ترجو الحياء وربها لم تيأس

ومما جاء باللغتين قول زهير السابق :

يا حار لا أرمين منكم بداهية   لم يلقها سوقة قبلى ولا ملك

---

(١) المقرب ١ / ١٨٧ وما يحتمل الشعر من الضرورة ٩٣ وما بعدها .

(٢) لم يعرف قائله ، راجع كشف المشكل فى النحو لابن حيدرة ١ / ٥٢٥ والتهذيب الوسيط فى النحو ١٩١ .

ومما جاء على اللغتين أيضا قول الشاعر : [١]

ألا هل لهذا الدهر من متعلل   عن الناس مهما شاء بالناس يفعل
وهـذا ردائي عنـده يستعيـره   ليسلبني عزى أمال بن حنظل

أراد أمالك ، وفيه ترخيم حنظلة كذلك على لغة من لا ينتظر في غير النداء ضرورة ومما جاء على هذه اللغة أيضا قول امرئ القيس : [٢]

لنعم الفتى تعشو إلى ضوء ناره   طريف بن مال ليلة الجوع والحصر

يريد : طريف بن مالك . فرخمه على لغة من لا ينتظر وأجاز الجمهور ترخيم غير المنادى على اللغتين معا . [٣]

وفي هاتين اللغتين يقول ابن مالك :

واجعله إن لم تنو محذوفا كما   لو كان بالآخر وضعا تمما
فقل على الأول في ثمـويا   ثمـو وياثمي على الثاني بيا

---

(١) هو الأسود بن يعفر ، الكتاب ٢ / ٢٤٦ والجمل ١٧٤ والأمالي الشجرية ١ / ١٢٧ والمقرب ١ / ١٨٨ وما يحتمل الشعر من الضرورة ٩٥

(٢) ديوانه ١٤٢ وانظر الكتاب ٢ / ٢٥٤

(٣) راجع ضرائر الشعر لابن عصفور ٢٢٦ وارتشاف الضرب ٣ / ١٦٣ .

١٠ـ من أحكام الترخيم المطرد أو الشائع

أولا : وصف المرخم : أجاز جمهور النحويين وصف المرخم ومنعه آخرون من أجل أنه لا يرخم الاسم إلا وقد علم ما حذف منه ومن عنى به ، فإن احتيج إلى النعت للفرق فرد ما يسقط منه أولى ..

وذكر يس الحمصى أنه على لغة عدم الانتظار يجوز رفع تابعه مراعاة للفظ ، وأما على لغة الانتظار ففيه نظر ، إذ لاضم فى اللفظ ، قال " ويظهر جواز رفع تابعه ، لأن الحرف الذى حقه الضم فى حكم الثابت ، ويؤيده جواز رفع التابع قبل النداء " . (١)

ثانيا : الوقف على المرخم : إذا وقفت على المرخم بحذف الهاء جاز لك إعادة الحرف المحذوف أو تعويض ألف منها ، كما فى طلحة ، تقول : يا طلح ، أقبل ، فإذا وقفت قلت : يا طلحة .أو عوضت ألفا ، ومنه للقطامى : (٢)

قفى قبل التفرق يا ضباعا ... ولا يك موقف منك الوداعا

قال سيبويه " واعلم أن الشعراء إذا اضطروا حذفوا هذه الهاء فى الوقف ، وذلك لأنهم يجعلون المدة التى تلحق القوافى بدلا منها ، وقال الشاعر ابن الخرع : (٣)

كادت فزارة تشقى بنا ... فأولى فزارة أولى فزارا .. " (٤)

هذا هو الغالب عند الوقف على المرخم ، وذلك تحرزا من شيئين :

الأول : جواز كون الهاء أبدلت ألفا فى القوافى على حد قول ابن الخرع السابق .

الثانى : ما حكاه سيبويه عمن من يوثق بعربيتهم فى الوقف على حرملة فقال يا

---

(١) حاشية الفاكهى ٢ / ١٠٩

(٢) سبق ذكره ، وانظر ارتشاف الضرب ٣ / ١٦٢ وشرح الجمل ٢ / ١٢٤ وشرح ابن عقيل على الألفية ٣ / ٢٩١ .

(٣) هو عوف بن عطية بن الخرع ، راجع شرح شواهد الكتاب للنحاس ٢٥٠ .

(٤) الكتاب ٢ / ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

حرمل يقول سيبويه " وإنما كان الحذف ألزم للهاءت فى الوصل ، وفيها أكثر منه فى سائر الحروف فى النداء ، من قبل أن الهاء فى الوصل فى غير النداء تبدل مكانها التاء ، فلما صارت الهاء فى موضع يحذف منه لا يبدل منه شئ تخفيفا ، كان ما يبدل ويغير أولى بالحذف .. وسمعنا الثقة من العرب يقول : يا حرمل ، يريد : يا حرملة . " (١)

ثالثا : قد يعوضون من المحذوف فى المرخم فى غير النداء ، ومنه قول الشاعر (٢)

ومنهل ليس له حوازق ولضفادى جمة نقانق

رابعا : لا يجيز النحويون ترخيم المسمى بحبلوى على لغة من لا ينتظر ، لما يلزم عليه من أن تكون ألف فعلى منقلبة وهى لا تكون إلا للتأنيث .

خامسا : قد يقدر حذف هاء التأنيث ترخيما فتقحم مفتوحة ، كما تقول فى عائشة : يا عائش على لغة من ينتظر ، ثم تأتى بالتاء مقحمة غير معتد بها ، ومنه بيت النابغة : (٣)

كلينى لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطئ الكواكب

فقيل إن أميمة ليس مرخما بل هو معرب نصب على أصل المنادى ، ولم ينون لأنه غير منصرف .

وقيل انه مبنى على الفتح ، لأن من النحويين من يبنى المنادى المفرد على الفتح لأنها ـ أى الفتحة ـ حركة تشاكل حركة إعرابه لو أعرب نظير قولهم : لا رجل فى الدار ، وقوله : (٤)

يـا ريح من نحـو الشمـال هبـى

بالفتح مع انه منادى مفرد ، فكان حقه الضم .

وقيل انه مرخم والتقدير يا أميم ، على لغة من ينتظر ، ثم أقحمت التاء غير معتد

---

(١) الكتاب ٢ / ٢٤٤

(٢) خلف الأحمر ، الكتاب ٢ / ٢٧٣ وارتشاف الضرب ٣ / ١٦٣ وضرائر الشعر ٢٢٦

(٣) ديوان النابغة ٤٠ وانظر الجمل ١٧٢ وشرح التسهيل ٣ / ٤٢٨ وارتشاف الضرب ٣ / ١٦١

(٤) لم يعرف قائله ، ولعله ليس بشعر ، راجع : الغرة المخفية ٢ / وارتشاف الضرب ٣ / ١٦١

بها وفتحت لأنها واقعة موقع ما يستحق الفتح وهو ما قبل هاء التأنيث المحذوفة المنوية وهذا ظاهر كلام سيبويه ، قال فى الكتاب " وزعم الخليل رحمه الله أن قولهم : يا طلحة أقبل يشبه يا تيم تيم عدي ، من قبل أنهم لو لم يجيئوا بالهاء لكان آخر الاسم مفتوحا ، فلما ألحقوا الها تركوا الاسم علي حاله التى كان عليها قبل أن يلحقوا الهاء ، وقال النابغة الذبيانى :

كلينى لهم يا أميمة ناصب   وليل أقاسيه بطئ الكواكب " [١]

قال المحقق" والشاهد فيه إقحام الهاء بعد حذفها ضرورة ، فترك المنادى على حالة قبل الهاء والقياس بناؤه على الضم بعد لحاق الهاء" . [٢] فجعل هذا الإقحام من قبيل الضرورة كما ترى .

وذهب الفارسى إلى أن هذه التاء زيدت ثم فتحت إتباعا لحركة الميم أو أنها أقحمت بين الميم وفتحتها ، فالفتحة التى فى التاء هى فتحة الميم ، ثم فتحت الميم اتباعا لحركة التاء .[٣]

ولا يعقل هذا الفتح والإقحام مع ألف التأنيث الممدودة نحو : عفراء ، قياسا على تاء التأنيث ، لأن الخارج عن القياس لا يقاس عليه .

---

(١) الكتاب ٢ / ٢٠٨

(٢) الكتاب ٢ / ٢٠٨ " حاشية "

(٣) راجع شرح التسهيل ٣ / ٤٢٨

المبحث الثانى

ترخيم الضرورة

لا ترخم الكلمة فى غير النداء إلا فى الضرورة ، وبشرط كونها صالحة للنداء وإن خلت من العلمية وهاء التأنيث .

ويكون ترخيمها على تقدير التمام إجماعا ، وعلى نية المحذوف خلافا للمبرد ، (١) فإنه رخمها على لغة من لم ينو ، قال ابن عصفور " ويستدل على ذلك بأن هذا حذف فى غير النداء ، فصار بمنزلة ما حذف من الأسماء على غير قياس نحو : يد ودم ، وهذا النوع إنما يكون إعرابه فى الحرف الذى يلى المحذوف ولا ينتظر غيره (٢) ويكون الترخيم الاسم فى غير النداء إجراء له مجرى النداء عند الاضطرار إليه ، قال سيبويه " وذلك لأن الترخيم يجوز فى الشعر فى غير النداء ، " (٣)

وجملة الشروط التى وضعت لهذا النوع من الترخيم ثلاثة :

١ - أن يكون ذلك فى شعر ، أى فى الضرورة فقط ، ولذا كان وروده فى الشعر كثيرا

٢ - أن يكون المرخم غير منادى ولكنه صالح للنداء ، فلا يرخم نحو الرجل ، لأنه لا يقبل حرف النداء .

٣ - أن يكون المرخم زائدا على ثلاثة أحرف إن لم يكن مختوما بالتاء ، أو مختوما بالتاء نحو : أحمد ومالك وحنظلة .

---

(١) شرح الجمل ٢ / ١٢٥

(٢) المرجع السابق .

(٣) الكتاب ٢ / ٢٤٧ .

ومن شواهد ترخيم الاسم فى غير النداء ضرورة قول امرئ القيس : (١)

لنعم الفتى تعشو الى ضوء نار طريف بن مال ليلة الجوع والحصر

يريد ابن مالك ، فرخم " مالكا فى غير النداء ضرورة مع صلاحية الاسم للنداء .

وقول الأسود بن يعفر : (٢)

وهذا ردائى عنده يستعيره ليسلبنى نفسى أمال بن حنظل

يريد : ابن حنظلة ، فرخمه وهو غير منادى ضرورة ، ومنه قول ذى الرمة : (٣)

وقـد وسطـت مالكـا وحنظــلا

أراد حنظلة ، فرخمه فى غير النداء ضرورة ومنه قول جميل : (٤)

بثين الزمى لا ان لا ان لزمته على كثرة الواشين أى معون

يريد أى معونة ، أو هى جمع معونة ، فلا شاهد إذن ، ومنه قول الشاعر : (٥)

إن ابن الحارث إن أشتق لرؤيته أوأمتدحه فإن الناس قد علموا

فرخم حارثة على لغة من ينوى ، وهو حجة على المبرد ، والشواهد على هذا الترخيم كثيرة جدا وقد مضى بعض منها .

وقد ترخم الكلمة غير الصالحة للنداء ضرورة أيضا ، ولكن على قلة ، ومن ذلك ترخيم ما فيه أل ضروة فى غير النداء ، وإن كان قياسه ألا يرخم لأنه لا يصلح

---

(١) سبق ذكره ، وانظر ارتشاف الضرب ٣ / ١٦٤ وشرح التسهيل لابن مالك ٣ / ٤٢٩

(٢) سبق ذكره وانظر الكتاب ٢ / ٢٤٦ وشرح التسهيل ٣ / ٤٢٨

(٣) راجع الكتاب ٢ / ٢٤٧ وشرح التسهيل ٣ / ٤٢٨

(٤) ديوانه ٢١٠ .

(٥) هو المغيرة بن حبناء التميمى قاله فى ابن حارثة بن بدر الغدانى ، راجع الكتاب ٢ / ٢٧٢ وشرح الجمل ٢ / ١٢٥ وضرائر الشعر ١٣٩ وشرح الكافية الشافية ٣ / ١٣٧١ وارتشاف الضرب ٣ / ١٦٤ .

للنداء ، وشرط المرخم للضرورة أن يكون لفظه صالحا لمباشرة حرف النداء كما تقدم ، فلا يقال فى الحمى من قول العجاج : (١)

قواطنا مكة من ورق الحمى

إنه مرخم الحمام للضروة ، لأن فيه أل وإنما هو من الحذف المستباح فيما لا يليق به الترخيم وعلى صورة لا تستعمل فى الترخيم ، كقول لبيد : (٢)

درس المنا بمتالع فأبان　　　فتقادمت فالحبس فالسوبان

أراد المنازل ، وفى الكتاب : " اعلم أنه يجوز فى الشعر ما لا يجوز فى الكلام من صرف ما لا ينصرف ،من الأسماء ، لأنها أسماء كما أنها أسماء ، وحذف ما لا يحذف يشبهونه بما قد حذف واستعمل محذوفا ، وكما قال العجاج :

قواطنا مكة من ورق الحمى

يريد الحمام " . (٣) وقيل فى الحمى عدة أقوال :

١ ـ أنه مرخم الحمام بحذف الميم

٢ ـ أنه من مرخم الحمام وحذفت الألف اللينة وأبدلت الميم ياء تخفيفا . كما قالوا فى تظننت تظنيت ثم كسر ما قبل الياء لئلا تقلب ألفا .

٣ ـ أنه مرخم الحمام وحذفت الألف والميم ضرورة ثم كسرت الميم الاولى للقافية وقد تكتب : الحم (٤)

---

(١) قبله إنى ورب البلد المحرم . والقاطنات البيت عند زمزم ، راجع : حياة الحيوان للدميرى ٣ / ٤٣١ والمحتسب ١ / ٧٨ والديوان ٢٩٥

(٢) ديوان لبيد ٢٠٦ دار صادر .

(٣) الكتاب ١ / ٢٦ ، ٢٧

(٤) راجع الكتاب ١ / ٢٦ وارتشاف الضرب ٣ / ١٦٢ واللسان حمم .

المبحث الثالث

ترخيم التصغير

ويسمى تصغير الترخيم ، وهو عبارة عن تصغير الاسم بعد تجريده من الزوائد التي هي فيه ،أي الصالحة للبقاء في تصغير غير الترخيم ، ثم نوقع التصغير على الأصول فقط ، تقول في تصغير نحو أحمد ومحمد وحامد : حميد .

وهذا النوع من التصغير عده ابن الحاجب شاذا ، قال الرضى : " وتصغير الترخيم أن تحذف كل الزوائد ثم تصغر كحميد في أحمد " . (١)

فإن كانت أصول الكلمة ثلاثة صغرت على فعيل ، فإن كان المسمى به مذكرا جرد الاسم من التاء كما في حامد وحميد ، وإن كان مؤنثا لحقته التاء كما تقول في حبلى : حبيلة .

وإن كانت الأصول أربعة كان تصغير الترخيم على فعيعل ، نحو : قرطاس وقريطس . ومذهب البصريين أن تصغير الترخيم يدخل العلم وغيره ويرى الفراء وثعلب انه خاص بالعلم فقط ، قال ابن الحاجب " اعلم أن مذهب الفراء أنه لا يصغر تصغير الترخيم إلا العلم لأن ما أبقى منه دليل على ما ألقى لشهرته ، وأجاز البصرية في غير العلم أيضا ، وقد ورد في المثل : عرف حميق جمله " تصغير أحمق (٢)

وهذا النوع من الترخيم ذكر هنا استطراد وإن كان هذا ليس بابه وإنما عرضت له للمشابهة بين الأنواع الثلاثة في اللفظ ولمجئ الحذف في كل ، وكذلك فإن الشعر غير مختص بهذا النوع دون الكلام (٣)

---

(١) شرح الشافية ٤ / ٢٨٣

(٢) المرجع السابق .

(٣) ما يحتمل الشعر من الضرورة ١٠٧

وبعد ، فهذه سياحة لغوية قمت فيها بالغوص فى الترخيم فى لغتنا العربية التى لم تترك مجالا للمتكلم بها إلا وبينت له قواعده وأصوله ، وبينت لنا أن الترخيم فن من فنون العربية له أصوله ، فبينت متى يكون الترخيم مطردا مقيسا ومتى يقتصر فيه على المسموع من العرب مما هو خاص بالشعر دون غيره من الكلام .

وبين البحث أن باب الترخيم له صلة بالمعنى اللغوى الذى يدور بين التسهيل والترقيق والتليين ونحو ذلك . وذكرت قراءة واحدة فى القرآن الكريم تعد شاهدا فريدا للترخيم ، وعرضت أقوال العلماء فيها .

وذكرت أن الترخيم المطرد ورد بكثرة عن العرب فى شعرهم ونثرهم وأن الشعراء على اختلاف لغاتهم لم تخل قصائدهم من شاهد أو أكثر للترخيم المطرد أو الخاص بالشعر وهو ترخيم غير المنادى ، فقدموا لنا كوكبة من شعرهم كانت شواهد صريحة للترخيم تدل على سعة اللغة وثرائها وتعدد فنونها .

وذكرت بعض القضايا التى اختلف فيها العلماء فى هذ االباب تحت مباحثه الثلاثة ، كل ذلك فى عرض موجز غير مخل ، ولم أترك من مسائل هذا الباب إلا ما لم أجد له فائدة تعين الباحث فيه .

الله أسأل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير و الصواب ، فإن كنت قد وفقت فى عرض مسائل هذا الباب فالفضل منه وحده ولله در القائل :

يا من غدا ناظرا فيما كتبت ومن ... أضحى يردد فيما قلته النظرا

سألتك الله إن عاينت لى خطأ ... فاستر على فخير الناس من سترا

وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ،

أهـــم مصـــادر البحـــث

١ ـ القرآن الكريم .
٢ ـ إصلاح الخلل لابن السيد ـ تحقيق د : حمزة النشرتى .
٣ ـ أمالى الزجاجى ـ تحقيق : عبد السلام هارون ـ ط٢ دار الجيل ـ بيروت .
٤ ـ الأمالى الشجرية ـ دار المعرفة ـ بيروت .
٥ ـ الإنصاف فى مسائل الخلاف للانبارى ـ تحقيق : محى الدين عبد الحميد ـ ط ١٩٨٢ م
٦ ـ البيان فى غريب إعراب القرآن لابن الأنبارى ـ ط الهيئة العامة ١٩٨١ م
٧ ـ التخمير شرح المفصل ـ الخوارزمى ـ تحقيق د : عبد الرحمن العثيمين ط١ .
٨ ـ التهذيب الوسيط فى النحو لمحمد بن على الصنعانى ـ تحقيق : د ـ فخر صالح ـ دار الجيل
٩ ـ توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك للمرادى ـ تح د : عبد الرحمن سليمان ط٢
١٠ ـ الجمل فى النحو للزجاجى ، تح :على توفيق الحمد ـ مؤسسة الرسالة .
١١ ـ حاشية الخضرى على ابن عقيل ـ عيسى الحلبى .
١٢ ـ حاشية على شرح الفاكهى على القطر للعليمى ـ مصطفى الحلبى .
١٣ ـ الحلل فى شرح أبيات الجمل لابن السيد تح : د : مصطفى امام ـ المتنبى .
١٤ ـ حياة الحيوان للدميرى – كتاب الجمهورية .
١٥ ـ ديوان أوس بن حجر ـ دار صادر .
١٦ ـ ديوان جميل ـ تح : د : حسين نصار .
١٧ ـ ديوان الشماخ ـ صلاح الدين الهادى ـ دار المعارف .
١٨ ـ ديوان العجاج ..
١٩ ـ ديوان عمر بن أبى ربيعة ـ محى الدين عبد الحميد.
٢٠ ـ ديوان عنتره ـ دار صادر .
٢١ ـ ديوان لبيد ـ دار صادر .
٢٢ ـ ديوان امرئ القيس ـ محمد أبو الفضل ـ دار المعارف .
٢٣ ـ ديوان النابغة الذبيانى ـ محمد أبو الفضل ـ دار المعارف .
٢٤ ـ ارتشاف الضرب لابى حيان ـ د : مصطفى النماس ـ مطبعة المدنى ط١ .
٢٥ ـ شرح أبيات سيبوية للنحاس ، تح : د : وهبة متولى ـ دار الشباب .
٢٦ ـ شرح التسهيل لابن مالك ـ د : عبد الرحمن السيد وآخر ، ط١ .

٢٧ ـ شرح التصريح على التوضيح ـ عيسى الحلبي .
٢٨ ـ شرح الجمل الكبير لابن عصفور ـ صاحب أبو جناح ـ العراق .
٢٩ ـ شرح ابن عقيل على الألفية ـ محيى الدين عبد الحميد ـ دار الفكر .
٣٠ ـ شرح الشافية للرضى ـ محيى الدين عبد الحميد وآخرون ـدار الفكر ١٩٧٥ م
٣١ ـ شرح ديوان جرير ـ ايليا الحاوى ـ دار الكتاب اللبنانى .
٣٢ ـ شرح ديوان زهير ـ لثعلب ـ الدار القومية للطباعة .
٣٣ ـ شرح الكافية الشافية لابم ملك ، د : هريدى ط١ ١٩٨٢ م
٣٤ ـ شرح اللمحة لابن هشام ـ د : هادى نهر .
٣٥ ـ شرح المفصل لابن يعيش ـ مكتبة المتنبى .
٣٦ ـ شعر عبد الله بن الزبعرى ـ يحيي الجبوري ـ مؤسسة الرسالة .
٣٧ ـ شفاء العليل فى ايضاح التسهيل للسلسيلى ـ البركاتى ـ الفيصلية
٣٨ ـ ضرائر الشعر لابن عصفور تحقيق السيد إبراهيم ـ دار الأندلس .
٣٩ ـ الغرة المخفية لابن الخباز ـ تحقيق حامد محمد ـ بغداد .
٤٠ ـ الفصول الخمسون لابن معطى تحقبق الطناحى ـ مكتبة الإيمان .
٤١ ـ الكتاب ـ سيبوية ـ عبد السلام هارون ـ الخانجى .
٤٢ ـ كشف المشكل فى النحو ـ الحيدرة اليمنى ـ هادي مطر ـ ط ١٩٨٤ م
٤٣ ـ لسان العرب لابن منظور ـ دار المعارف .
٤٤ ـ مجالس العلماء للزجاجى ـ عبد السلام هارون ـ الخانجى .
٤٥ ـ المحتسب فى تبيين وجوه شواذ القراءات لابن جنى ـ على النجدى ـ ط ١٣٨٦
٤٦ ـ مختصر فى شواذ القرآن لابن خالويه ـ المتنبى .
٤٧ ـ المسائل العسكرية للفارسى ـ د : الشاطر ـ ١٧ .
٤٨ ـ معانى القرآن للزجاج ـ د عبدالجليل شلبى ـ ط ١٩٨٨ م
٤٩ ـ معاني القرآن للفراء ـ محمد النجار ـ الدار المصرية للتأليف .
٥٠ ـ المقدمة الجزولية فى النحو ـ د : شعبان محمد ـ ط١
٥١ ـ الموسوعة الذهبية للعلوم الاسلامية ـ فاطمة محجوب ـ دار الغد العربى .
٥٢ ـ النحو الوافى ـ عباس حسن . ـ دار المعارف
٥٣ ـ النكت فى تفسير كتاب سيبويه للأعلم ـ زهير سلطان ـ الكويت .
٥٤ ـ الواضح فى النحو ـ د : عبد العزيزرضوان ط ١٩٨١ م

الجملة وصلتها بالمفرد

إعداد

د. إبراهيم حامد عبد السلام الإسناوى

مدرس اللغويات

كلية اللغة العربية بالمنصورة

والمعار حالياً إلى جامعة الإمام بالسعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لله، وصلاة وسلاماً على رسول الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه واقتدى بسنته إلى يوم الدين.

وبعد

فإن الهدف الأسمى من دراسة النحو العربى هو فهم بناء الجملة، وتحليلها بحيث يوقف على المعنى المفيد الذى تؤديه، فهى وسيلة التعبير والتفاهم بين الأفراد والتى من خلالها يستطيع المتحدث بها أن ينقل مايدور فى ذهنه إلى ذهن الآخرين.

ومع ذلك لم يُعن بها النحويون، بل لم يتحدثوا عنه إلا فى ثنايا الأبواب والفصول حين تعوزهم الحاجة إلى الحديث عن الخبر الجملة، والنعت الجملة، والحال الجملة، وغير ذلك من موضوعات متفرقة هنا وهناك.

ولعل السبب فى هذا يرجع إلى أن النحويين صرفوا عنايتهم تجاه ظاهرة الإعراب، وفكرة العامل والمعمول التى سيطرت على أذهانهم فولوا وجوههم شطر الكلمة وأقسامها؛ إذ يظهر عليها أثر العامل بخلاف الجملة فلا يظهر فيها أثر العامل كما يظهر فى غيرها من الكلمات المعربة.

ولـمّا كانت الكلمة المفردة تشكل النواة الأولى للجملة آثرت أن يدور البحث حول "الجملة وصلتها بالمفرد" إذ المفرد هو الأصل الذى

تظهر عليه الحركات الإعرابية بخلاف الجملة فلا يظهر عليها شيء من هذه الحركات إلا إذا كانت فى معنى المفرد وقوته، ومن ثم تأخذ الموقع الإعرابى الذى يأخذه المفرد ويكون إعرابها محلياً، وهذا مايسمى بالتعاقب أو التبادل فى المواقع الإعرابية، فإذا أدت كلمة وظيفة كلمة أخرى دون أن يترتب على ذلك تغيير فى أساس التركيب كان لها مالتلك الكلمة واعتبرت قسيماً لها وشريكاً، ومن ثم فقد شاركت الضمائر الأسماء فى الاسمية؛ لأنها تستبدل بها وتقوم بمثل وظيفتها، ومن ثم أيضاً حكم على الجمل ذات المحل الإعرابى بأن لها محلاً من الإعراب؛ لأنها تقوم بوظيفة المفرد.

وحرى بمن يتعرض لدراسة الجملة أن يبدأ بتعريفها، ثم يتحدث بعد ذلك عن علاقتها بالمفرد وغير ذلك من المسائل التى يتطلبها البحث، فنقول وبا لله التوفيق:

أولاً: الجملة عند اللغويين:

ورد فى لسان العرب مانصه: والجملة واحدة الجمل، وهى جماعة كل شيء بكماله من الحساب وغيره، يقال: أجملت له الحساب والكلام[1]، قال تعالى: ﴿...لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة..﴾[2].

تعريف الكلام: تستخدم الكلمة فى أحيان كثيرة للدلالة على معنى الجملة أو الجمل التامة المفيدة، وقد ورد ذلك فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿... وكلمة الله هى العليا ...﴾[3] وهى كلمة التوحيد، لا إله إلا الله كما ورد فى لسان العرب نقلاً عن ابن سيده: الكلام القول، وقيل: ماكان مكتفياً به وهو الجملة، والقول مالم يكن مكتفياً به، وهو الجزء من الجملة[4].

ويلاحظ من خلال هذا أن مصطلحى الجملة والكلام مترادفان يؤديان معنى واحداً ومايفيده أحدهما يفيده الآخر.

ثانياً: مصطلح الجملة والكلام عند النحاة:

هناك عدد من الاتجاهات فى التراث النحوى لتحديد معنى الجملة أهمها اتجاهان:

---

(١) اللسان مادة: جمل.

(٢) فى الآية رقم (٣٢) من سورة الفرقان.

(٣) فى الآية رقم (٤٠) من سورة التوبة.

(٤) اللسان: كلم، والهمع ٣/١.

الأول: يُسوِّى أصحابه بين مصطلحى الجملة والكلام، ومن بين هؤلاء ابن جنى والزمخشرى، والجملة عند هؤلاء هى: اللفظ الدال على معنى تام يحسن السكوت عليه. يقول ابن جنى معبراً عن هذا الاتجاه فى تعريفه للكلام: "بأنه كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه، وهو الذى يسميه النحاة الجمل[١]". ويصرح فى موضع آخر "بأن الكلام فى لغة العرب عبارة عن الألفاظ القائمة برؤوسها المستغنية عن غيرها وهى التى يسميها أهل هذه الصناعة الجمل على اختلاف تراكيبها[٢]".

ويتفق الزمخشرى مع ابن جنى أيضاً فى الرأى ويسوى بين المصطلحين حيث يقول: "والكلام هو المركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى، وذلك لا يتأتى إلا فى اسمين، كقولك: زيد أخوك وبشر صاحبك، أو فى فعل واسم نحو قولك: ضرب زيد، وانطلق بكر، ويسمى جملة[٣]".

ويطالعنا العكبرى أيضاً برأيه الذى يسوى بين المصطلحين ويقدم أدلة عديدة يثبت من خلالها أن الكلام عبارة عن الجملة المفيدة فائدة تامة، وأنه لفظ يعبر بإطلاقه عن الجملة المفيدة، وأن هذا قول جمهور النحاة[٤].

---

(١) الخصائص ١٧/١.

(٢) الخصائص ٣٢/١.

(٣) المفصل ٦.

(٤) المسائل الخلافية ٤٩ بتصرف.

وقال الشيخ محب الدين ناظر الجيش: "الذى يقتضيه كلام النحاة تساوى الكلام والجملة فى الدلالة، يعنى: كل ماصدق أحدهما صدق الآخر، فليس بينهما عموم وخصوص"(١).

ويلاحظ أن هؤلاء العلماء ينظرون إلى مصطلحى الجملة والكلام ويسوون بينهما على أنهما من الترادف ولعل الذى دفعهم إلى هذا قوة العلاقة بينهما.

بيد أن هناك اتجاهاً آخر يفرق أصحابه بين المصطلحين ويظهر فى تفريقهم جعل الجملة أعم من الكلام، ومن هؤلاء:

١- الرضى: عدّ الرضى تعريف ابن الحاجب للكلام ناقصاً، وذلك لأن ابن الحاجب عرف الكلام قائلاً: "الكلام ماتضمن كلمتين بالإسناد، ولا يتأتى ذلك إلا فى اسمين، أو فعل واسم".

ثم قال معلقاً -فى شرحه- على هذا الكلام: "وكان على المصنف أن يقول بالإسناد الأصلى المقصود ماتركب به لذاته ليخرج بالأصلى إسناد المصدر واسمى الفاعل والمفعول والصفة المشبهة والظرف فإنها مع ماأسندت إليه ليست بكلام، وأما نحو: أقائم الزيدان فلكونه بمنزلة الفعل وبمعناه كما فى أسماء الأفعال .. ثم يفرق بين الجملة والكلام بقوله: "إن الجملة ماتضمنت الإسناد الأصلى سواء كانت مقصودة لذاتها أو لا، كالجملة التى هى خبر المبتدأ وسائر ماذكر من الجمل، فيخرج المصدر واسما الفاعل والمفعول والصفة المشبهة والظرف مع

---

(١) الأشباه ٢/٢٠٧،٢٠٨.

ماأسندت إليه. والكلام ماتضمن الإسناد الأصلى وكان مقصوداً لذاته، فكل كلام جملة ولا ينعكس[١]".

٢- ابن يعيش: من الذين فرقوا بين مصطلحى الجملة، والكلام إلا أنه يعكس ماقاله الرضى حيث يجعل مصطلح الكلام عاماً يندرج تحته الجملة، وكأن الكلام جنس عام، وعلى هذا فيكون عنده كل جملة كلاماً وليس كل كلام جملة وهو عكس ماارتآه الرضى.

يقول ابن يعيش: "الكلام عبارة عن الجملة المفيدة وهو جنس لها فكل واحدة من الجمل الاسمية والفعلية نوع له يصدقه إطلاقه عليها، كما أن الكلمة جنس للمفردات[٢]".

٣- ابن هشام: من الذين اتفقوا فى الرأى مع الرضى وحسم القول فى هذه القضية قائلاً: "الكلام هو القول المفيد، والمراد بالمفيد مادل على معنى يحسن السكوت عليه، والجملة عبارة عن الفعل وفاعله كقام زيد والمبتدأ وخبره كزيد قائم، وماكان بمنزلة أحدهما نحو: ضرب اللص وأقائم الزيدان وكان زيد قائماً وظننته قائماً وبهذا يظهر لك أنهما ليس بمترادفين كما يتوهمه كثير من الناس وهو ظاهر كلام الزمخشرى فإنه بعد أن فرغ من حد الكلام قال: ويسمى جملة والصواب أنها أعم منه، إذ شرطه الإفادة، بخلافها،

---

(١) الكافية ١/٨.

(٢) شرح المفصل ١/٢١.

ولهذا تسمعهم يقولون: جملة الشرط وجملة الجواب وجملة الصلة وكل ذلك ليس مفيداً فليس بكلام[١]".

ويلاحظ أن ابن هشام يجعل الكلام أخص من الجملة وليس مرادفاً له كما فعل غيره.

استعمال مصطلح الجملة

بعد أن عرفنا أن ثمة علاقة قوية بين مصطلحي الجملة والكلام حري بنا أن نتعرف بعد ذلك على مصطلح الجملة واستعماله في كتب النحاة من خلال جولة مع علماء النحو لنعرف هل استعمل هذا المصطلح أو لا؟ ومن أول مَنْ استعمله؟ فنقول وبالله التوفيق:

أولاً: نحاة البصرة:

شادت البصرة صرح النحو العربي، ورفعت أركانه بما تيسر لها من الاتصال بالثقافات الأجنبية، ومع ذلك لم يُستخدم مصطلح الجملة في مؤلفات علمائها، فهذا سيبويه إمام البصريين لم يرد لفظ الجملة في كتابه بالمعنى الاصطلاحي المعروف لها لدى النحاة، وإنما كان استخدامه لها من حيث معناها اللغوي حيث يقول: "ومما أجري مجرى الأبد والدهر والليل والنهار: المحرم وصفر وجمادى من أسماء الشهور إلى ذي الحجة؛ لأنهم جعلوهن جملة واحدة لعدة أيام[٢]".

---

(١) المغني ٤٢/٢. والأشباه ٢٠٧/٢٥. همع ٣٧/١.

(٢) الكتاب ٢١٧/١.

ويقول في موضع آخر: "وليس شيء يضطرون إليه إلا وهم يحاولون به وجهاً، ومايجوز في الشعر أكثر مما أذكره هاهنا؛ لأن هذا موضع جمل[١]".

وكأني بسيبويه لا يستعمل مصطلح الجملة المعروف لدى النحاة بأنه ماتركب من فعل وفاعل أو مبتدأ وخبر، ولكنه يستعملها بالمعنى اللغوي. ومن المعروف أن المصطلحات عنده تتسع وتمتد ولها استعمالات خاصة عنده، ومن يتصفح كتابه يجده يستعمل مصطلح الكلام مكان الجملة في مواضع كثيرة فيقول: "واعلم أن قلت في كلام العرب إنما وقعت على أن يحكى بها وإنما يحكى بعد القول ماكان كلاماً لا قولاً[٢]". وقد يطلق مصطلح الكلام على النثر الذي يكون في مقابلة الشعر، كأن يقول: ".. وذلك ليس من كلامهم ولا يكاد يكون في شعر[٣]". وفي موضع آخر يقول: "وقد يجوز في الشعر وفي ضعف من الكلام[٤]". وربما يطلق مصطلح الكلام على الشعر ويعكس الأمر حيث يقول: "وربما مدّوا مثل مساجد ومنابر فيقولون: مساجيد ومنابير، شبهوه بما جمع على غير واحده في الكلام كما قال الفرزدق:

تنفي يداها الحصى في كل هاجرة   نفي الدراهيم تنقاد الصياريف[٥]

---

(١) الكتاب ٣٢/١.

(٢) الكتاب ١٢٢/١.

(٣) الكتاب ٧٢/١.

(٤) السابق ٤٨/١،٨٥،١٠١.

(٥) الكتاب ٢٨/١.

وقد يطلق على الكلام مصطلح العربية فيقول: ".. وإنما استوت هى ورويد ومأأشبه رويد، كما استوى المفرد والمضاف إذا كان اسمين، نحو: عبد الله وزيد، مجراهما فى العربية سواء(١)".

وبعد أن عرفنا من خلال تصفحنا لكتاب سيبويه -أنه لم يستعمل مصطلح الجملة، ولم ترد عنده بالمعنى الاصطلاحى المعروف لها نترك الكتاب وصاحبه، ونصطحب أبا العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد فى جولة مع كتابه المقتضب باحثين عن استخدام مصطلح الجملة عنده فنجده يقول فى باب الفاعل: ".. وإنما كان الفاعل رفعاً؛ لأنه هو والفعل جملة يحسن عليها السكوت وتجب بها الفائدة للمخاطب(٢)".

ويقول فى موضع آخر: "ولو قلت: قام الذى ضربت هند أباها لم يجز؛ لأن الذى لا يكون اسما إلا بصلة، ولا تكون صلته إلا كلاماً مستغنياً نحو الابتداء والخبر والفعل والفاعل والظرف مع مافيه، نحو: فى الدار زيد، ولا تكون هذه الجملة صلة له إلا وفيها مايرجع إليه من ذكره(٣)".

من خلال هذين النصين وغيرهما مما ورد فى كتاب المقتضب للمبرد نستطيع القول بأنه لعل أبا العباس محمد بن يزيد الملقب بالمبرد هو أول من استخدم مصطلح الجملة بالمعنى المعروف لها عند النحاة، إذ

---

(١) السابق ٢٤٨/١.

(٢) المقتضب ٨/١.

(٣) المقتضب ١٩/١. وانظر أيضاً ٧٤،٦٩،٦٨/٢.

تحدث عن تعريف الجملة اصطلاحاً، كما تحدث عن تركيبها وتقسيمها كالفعل مع فاعله والمبتدأ مع خبره.

ثانياً: نحاة الكوفة:

اشتغل أهل الكوفة بجمع الشعر وكثرت عندهم رواياته، وزاد قائلوه من العرب الخُلص وغيرهم ممن يسكنون الكوفة، وقد كان منهم اليمانيون وهم كثير وفى لغتهم شيء لمجاورتهم الأجناس والهنود، أما العرب الذين صفت ألسنتهم من اللكنة فقليل ماهم؛ لذلك رأينا مذهبهم يميل إلى التساهل فى الأخذ والاستنباط. وقد اقتفى نحاة الكوفة أثر سيبويه وساروا على منهجه فى عدم استعماله لمصطلح الجملة، ولكنهم استخدموا مصطلح الكلام، ويتضح ذلك من مؤلفات علمائهم.

فهذا هو الفراء من أشهر علمائهم يطلق مصطلح الكلام فى مواضع متفرقة من كتابه ولم يستعمل مصطلح الجملة حيث يقول: "وقد وقع الفعل فى أول الكلام، وعقب على قوله تعالى: ﴿لإيلاف قريش﴾ بقول القائل: كيف ابتدئ الكلام بلام خافضة ليس بعدها شيء يرتفع بها..[1]". وهذا ثعلب لا يستعمل مصطلح الجملة، وإنما يستعمل مصطلح العربية تارة والكلام أخرى، فيقول أثناء حديثه عن (ما) الحجازية: "إنما قالوا .. أصول العربية[2]" وفى موضع آخر يقول: "وليس فى العربية إذا قال قام إخوتك أن يقال: قام هم".

---

(١) معانى الفراء ٢٩٣/٣.

(٢) مجالس ثعلب ٥٩٧/٢.

وعندما تحدث عن التوكيد استخدم مصطلح الكلام فقال:
"ضربتك إياك وضربتك أنت بجعل المرفوع مثل التوكيد .. والتوكيد لا يكون فى أول الكلام[(١)]".

وهكذا يظهر لنا بوضوح من خلال هذه النصوص أن الكوفيين لم يستعملوا مصطلح الجملة ولم ترد فى مؤلفات علمائهم.

ثالثاً: البغداديون ومصطلح الجملة:

اعتمد البغداديون لأنفسهم مذهباً يقوم على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفة، بيد أنه كان من علمائهم من يميل إلى المذهب الكوفى ومن يختار المذهب البصرى مع محاولتهم استنباط آراء جديدة. وقد توسع البغداديون فى استخدام مصطلح الجملة وظهرت عندهم كتب كثيرة تحمل هذا الاسم ولعل هذا يرجع إلى المبرد النحوى الذى انتقل إلى بغداد واتخذها مقراً له يعلم فيها نحو البصريين وساعده ذلك على نقل مصطلح الجملة إليهم فوجدناه يتردد كثيراً فى مؤلفاتهم وقد ظهرت عندهم كتب كثيرة تحمل هذا المصطلح.

فهذا كتاب الجمل للزجاجى الذى حظى بشهرة مدوية؛ لدقته ووضوح عبارته واستيعابه لدقائق النحو يتردد فيه مصطلح الجملة – فضلاً عن اسم الكتاب– فى مواضع كثيرة: من ذلك مثلاً: "تقول: زيد أبوه قائم فيكون المفهوم من الجملة ..[(٢)]" وفى موضع آخر يقول: "..

---

(١) المجالس ١٣٣/١.

(٢) شرح جمل الزجاجى ٩٣/١،٩٥.

يحترز من الجملة مثل: زيد قائم فإناها بأسرها تدل على معنى فى نفسها ولا تتعرض ببنيتها للزمان ..[١]".

وهكذا ينتشر مصطلح الجملة انتشاراً واسعاً كانت له أصداؤه فيما بعد.

رابعاً: الأندلسيون ومصطلح الجملة:

ازدهرت دراسة النحو فى الأندلس منذ عصر ملوك الطوائف، وخالط نحاتها النحاة السابقين من البصريين والكوفيين والبغداديين، وأضافوا إلى ذلك اختيارات من آراء البغداديين، ولم يكتفوا بذلك، بل ساروا فى اتجاههم من كثرة التعليلات والنفوذ إلى بعض الآراء الجديدة، وبذلك أتاحوا لمذهب البغداديين ضروباً من الخصب والنماء[٢]. وقد استعمل الأندلسيون مصطلح الجملة فى مؤلفاتهم بعد أن ذاع وانتشر عند البغداديين، فهذا ابن السيد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوس المتوفى سنة ٥٢١هـ يُعنى بكتاب الجمل للزجاجى، ويكتب كتاباً فى إصلاح الخلل الواقع فيه؛ بسبب إيجازه الشديد، وآخر فى شرح أبياته، ثم يستعمل مصطلح الجملة أثناء حديثه عن (حتى) حيث قال: إنها لا تعطف على المفردات فقط، بل تعطف أيضاً على الجمل كقول امرئ القيس:

---

(١) شرح جمل الزجاجى أ/٩٣، ٩٥.

(٢) المدارس النحوية ٢٩٢، ٢٩٣.

سريت بهم حتى تكل مطيهم وحتى الجياد مايقدن بأرسان[١]

وهكذا ابن مالك العالم المشهور، الذى ذاع صيته فى النحو، وطارت شهرته فى الآفاق، والذى وصفه أحمد أمين بقوله: "فإن قلنا إنه نظم نحو سيبويه ووضحه وفَصّله وقربّه إلى الناس لم نكن بعيدين عن الصواب[٢]".

وإذا نظرنا فى مؤلفات ابن مالك نجده يستعمل مصطلح الجملة ويردده كثيراً، ومن ذلك قوله فى كتابه التسهيل: ".. والخبر جملة ابتدائية أو شرطية أو مصدرة بـ رُبَّ ..".

وعندما تحدث عن أدوات الشرط الجازمة، قال: "وكلها تقتضى جملتين، تسمى أولاهما شرطاً والثانية جزاء وجواباً[٣]".

خامساً: نحاة مصر والشام ومصطلح الجملة:

لم تكن مصر والشام مهداً وثيراً للنحو كما كانت بلاد المشرق، بيد أنهم حانت منهم -فى أخريات الأيام- التفاتات إلى النحو، فنشأ فى القطرين بعض العلماء الذين أخذوا عن أسلافهم، ومن بين هؤلاء أبو عمرو عثمان جمال الدين المعروف بابن الحاجب؛ لأن أباه كان

---

(١) مغنى اللبيب ١٣٦/١.

(٢) ظهر الإسلام ٩٤/٢.

(٣) تسهيل الفوائد ٢٣٦. وانظر ٢٣٨.

حاجباً للأمير عز الدين موسك الصلاحي بالقاهرة[١]. وقد استعمل ابن الحاجب مصطلح الجملة -في مؤلفاته- مفرقاً بينه وبين الكلام[٢].

ثم يطالعنا ابن هشام بدوره الريادى تجاه الجملة؛ حيث قدمها فى دراسة ميدانية واسعة بزّ بها من تقدمه من النحاة تعريفاً وإعراباً، ويعتبر -بحق - أول النحاة الذين أفسحوا المجال لدراسة الجملة، إذ خصص لها دراسة مستقلة فى كتابه: معنى اللبيب[٣]. ثم يأتى السيوطى ويكرر آراء ابن هشام والزمخشرى فى العلاقة بين الجملة والكلام فيقول: "ذهب طائفة إلى أن الجملة والكلام مترادفان وهو ظاهر قول الزمخشرى، فإنه بعد أن فرغ من حد الكلام قال: "ويسمى جملة، والصواب أنها أعم منه، إذ شرطه الإفادة، بخلافها[٤]".

معانى استعمال المفرد عند النحاة:

يستعمل المفرد فى كلام النحاة بأحد معان خمسة:

١- المفرد الذى هو مقابل الجملة -وهو موضوع بحثنا- ويذكر فى خبر المبتدأ ونواسخه.

٢- المفرد الذى هو فى قبالة المركب، نحو بعلبك.

---

(١) نشأة النحو ١٨٦.

(٢) الكافية ٨/١.

(٣) المغنى ٤١٩/٢.

(٤) همع الهوامع ١٢/١، ١٣.

٣- المفرد الذى هو مقابل للمضاف أو الشبيه به، نحو: ياحمدُ، ويازيدان، يامحمدون، وهذا فى بابى النداء، ولا النافية للجنس، نحو: لا رجل فى الدار.

٤- المفرد المقابل للمثنى والمجموع.

٥- المفرد المقابل للمضاف[1].

الجملة والمفرد

بعد أن انتهينا من تعريف كل من الجملة والمفرد نردف ذلك بالحديث عن العلاقة بينهما فنقول: إنه من المعروف -بداهة- أن حركات الإعراب لا تظهر إلا على المفرد تاركة الجملة إذ يتعذر ظهورها عليها، فإذا حنت إليها لسابق عهدها بالمفرد كان إعرابها محلياً.

والأصل فى الإعراب أن يكون للمفرد؛ لأنه كلمة واحدة يمكن أن تظهر على آخرها حركات الإعراب أو تقدَّر.

أما الجملة فبعيدة من الإعراب؛ لأنها مركبة من كلمتين أو أكثر تركيباً إسنادياً أو شرطياً، ويستحيل أن يظهر عليها أو يقدر بمجموعها حركات الإعراب فى حال من الأحوال، وأما ماتراه فى كلماتها من مظاهر إعرابية فهو خاص بالمفردات ولا علاقة له بالجملة.

---

(١) الأشباه والنظائر ٧١/٢ بتصرف يسير.

قال أبو حيان: "أصل الجملة ألا يكون لها موضع من الإعراب، وإذا كان لها موضع من الإعراب تقدَّر بالمفرد؛ لأن المعرب إنما هو المفرد، والأصل فى الجملة ألا تكون مقدرة بالمفرد(١)".

وعندما نظر النحاة فى الجمل ورأوا أن الجملة إذا جاءت مؤدية للمعنى النحوى الذى يؤديه المفرد كان لها إعراب مثل ذلك المفرد، وبذلك يكون لها محل من الإعراب.

ففى مثل قولنا: محمد حضر نجد أن جملة "حضر" فى محل رفع خبر المبتدأ، والذى أوجد لها هذا الإعراب، وجعل لها محلاً منه هو تقديرها بالمفرد، وهو حاضر؛ حيث يمكن أن يقال: محمد حاضر.

وإذا لم تؤد الجملة مايؤديه المفرد فلا محل لها -آنذاك- من الإعراب؛ لأنها لم تستخدم فى موضع المفرد، ولا يمكنها أن تقدر به ليتيسر تقدير الحركات الإعرابية عليها التى كانت قد تظهر على ذلك المفرد.

ففى نحو قولك: ذهبت إلى الكلية، تجد أن جملة "ذهبت" وقعت فى أول الكلام -وحينئذ- لا يكون لها محل من الإعراب؛ إذ لم تقع موقع الاسم المفرد ومثل قولك: أقسم بالله لأذاكرن، فإن جملة "لأذاكرن" هى جواب للقسم، ولا يستطيع المفرد أن يحل محلها؛ فلذلك لم يكن لها محل من الإعراب ولذلك يقول ابن هشام فى أثناء حديثه عن الجمل التى لا محل له من الإعراب، وهى سبع، وبدأنا بها؛ لأنها لا تحل

---

(١) الأشباه والنظائر ٢/٢٥.

محل المفرد وذلك هو الأصل في الجمل[١]" والذى دفع النحاة إلى التقدير فى إعراب الجمل للمفرد أن المفرد أصل، والجملة فرع عليه، وقد علل ابن يعيش سبب ذلك بقوله: "والذى يدل على أن المفرد أصل والجملة فرع عليه أمران:

١- أن المفرد بسيط والجملة مركب، والبسيط مقدم على المركب، فإذا استقل المعنى بالاسم المفرد ثم وقعت الجملة موقعه، فالاسم المفرد هو الأصل والجملة فرع عليه.

٢- أن المبتدا نظير الفاعل فى الإخبار عنهما والخبر فيهما هو الجزء المستفاد، فكما أن الفعل مفرد فكذلك خبر المبتدأ مفرد[٢]".

ويؤيد ماذكره ابن يعيش تعاقب المفرد والجملة فى بعض المواقع الإعرابية والمقصود بالتعاقب هنا هو: إحلال الجملة أو شبه الجملة محل المفرد وصلاحيتها فى بعض المواقع أن تقوم بما يقوم به وتعاقبه حيث يقع. والجملة تعاقب المفرد فى مواضع منها:

١- الخبر: سواء أكان خبرا للمبتدأ أم خبراً لناسخ من النواسخ، فخبر المبتدأ نحو: الأشجار أغصانها مورقة. وخبر الناسخ نحو: ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ...﴾[٣].

ونلاحظ هنا أن جملة "يدخل الذين آمنوا" هى التى عاقبت المفرد.

---

(١) المغنى ٤٦/٢.

(٢) شرح المفصل ١٨٨/١.

(٣) فى الآية رقم (١٢) من سورة محمد.

٢- الحال: من الوظائف النحوية التى تعاقب الجملة فيها المفرد مثل قوله تعالى: ﴿.. لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ...﴾.

٣- النعت: قد يأتى النعت المفرد مثل الجملة، كما فى قوله تعالى: ﴿وهذا ذكر مبارك أنزلناه ...﴾[١] وقد يحدث العكس بأن تجىء الجملة مثل المفرد، نحو قوله تعالى: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك...﴾[٢].

وتعاقب الجملة للمفرد هنا مشروط بأن يكون المنعوت نكرة قال ابن يعيش: "وإنما لم توصف المعرفة بالجملة؛ لأن الجملة نكرة فلا تقع صفة للمعرفة؛ لأنها حديث، ألا ترى أنها تقع خبراً نحو: زيد أبوه قائم ومحمد قام أخوه، وإنما تحدث بما لا يعرف فتفيد السامع ما لم يكن عنده، فإن أردت وصف المعرفة بجملة أتيت بالذى وجعلت الجملة فى صلته فقلت: مررت بزيد الذى أبوه منطلق، فتوصلت بالذى إلى وصف المعرفة بالجملة، كما توصلت بأى إلى نداء مافيه الألف واللام نحو: يأأيها الرجل[٣]" ومشروط كذلك بأن تكون الجملة خبرية، أى: محتملة الصدق والكذب لذاتها بغض النظر عن قائلها.

٤- العطف: يجوز عطف المفرد على الجملة وبالعكس، إذا تجانسا بالتأويل، نحو: محمد أبوه كريم وعالم أخوه، فعالم مفرد إلا أنه مع مابعده فى قوة الجملة؛ لأن أخوه يعرب فاعلاً له. بيد أن عطف

---

(١) فى الآية رقم (٥٠) من سورة الأنبياء.

(٢) فى الآية رقم (٩٢،١٥٥) من سورة الأنعام.

(٣) شرح المفصل ٥٤/٣. وانظر الخصائص ١٧٨/٣.

الجملة على المفرد أولى من العكس؛ لكونها فرعاً عليها فى أن لها محلاً من الإعراب، فالأولى كونها تابعة له فى الإعراب، فنحو: مررت برجل شريف وأبوه كريم أولى من مررت برجل أبوه كريم وشريف، ولاسيما إذا كانت الجملة والمفرد صفتين، لأن تطابق الصفة والموصوف أكثر من تطابق المبتدأ والخبر والحال وصاحبها، إذ الأولان يتطابقان تعريفاً وتنكيراً دون البواقى، فقولك: جئتك أخاف وراجيا، وهند أبوها كريم وشريفة ليس فى القبح نحو: مررت برجل أبوه كريم وشريف[1].

ومن عطف الجملة على المفرد قوله تعالى: ﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون﴾[2] فـ"هم قائلون" فى محل نصب عطفاً على الحال المفرد "بياتا".

والتفضيل الذى يعرضه الرضى هنا ليس مرده الصحة أو الخطأ، بل مبناه على الحسن والقبح. فعطف المفرد على الجملة أو عطف الجملة على المفردصحيحان، لكن الثانية أولى من الأولى وأحسن.

٥- **البدل**: من المواقع النحوية التى تتعاور فيها الجملة من المفرد؛ حيث تبدل منه بدل كل، كما فى قول الفرزدق:

---

(١) راجع: شرح الكافية ٣٢٨/٢. وقد ورد فى الهمع برقم ١٥٨٦ ج١٢١/٥. والتصريح ١٦٢/٢. الأشمونى ١٣٢/٣. وأوضح المسالك رقم ٤٢٩.

(٢) فى الآية رقم (٤) من سورة الأعراف.

إلى الله أشكو بالمدينة حاجة   وبالشام أخرى كيف يلتقيان؟![١]

فقد أبدل جملة "كيف يلتقيان" من حاجة وأخرى وهما مفردان وسوغ ذلك رجوع الجملة إلى التقدير بالمفرد أى: إلى الله أشكو هاتين الحاجتين معذر التقائهما.

وذهب الدمامينى إلى أن جملة "كيف يلتقيان" مستأنفة نبه بها على سبب الشكوى وهو استبعاد اجتماع هاتين الحاجتين[٢].

كما ذهب الدنوشرى إلى أن جملة: كيف ..بدل اشتمال لا بدل كل، وهكذا كل جملة وقعت فيها "كيف" بعد الاسم المفرد. وقد صرح أبو حيان بأن المفرد يبدل من الجملة كقوله تعالى: ﴿... ولم يجعل له عوجا ۞ قيما ...﴾[٣] فـ"قيما" بدل من جملة "ولم يجعل له عوجاً" لأنها فى معنى المفرد، أى: جعله مستقيما[٤].

والنحاة كى يتعرفوا السر الذى جوّز للعربية أن تُبدل الجملة من المفرد، أو المفرد من الجملة، يؤولون الجملة بمفرد فى الحالتين والمعنى ساعدهم على ذلك.

---

(١) البيت من الطويل للفرزدق.

(٢) التصريح ١٦٣/٢.

(٣) فى الآية رقم (١،٢) من سورة الكهف.

(٤) يس على التصريح ١٦٢/٢.

وقد تحدث ابن جنى عن التشابه والتعاقب بين الجملة والمفرد وأن كلا منهما يقع موقع صاحبه، فقال:

".. ومنها أن بعض الجمل قد تحتاج إلى جملة ثانية احتياج المفرد إلى المفرد وذلك فى الشرط وجزئاه، والقسم وجوابه، فالشرط نحو قولك: إن قام زيد قام عمرو، والقسم نحو: أقسم ليقومن زيد، فحاجة الجملة الأولى إلى الجملة الثانة كحاجة الجزء الأول من الجملة إلى الجزء الثانى، نحو: زيد أخوك، وقام أبوك. ومنها أن المفرد قد أوقع موقع الجملة فى مواضع كـ"نعم" و"لا"؛ لأن كل واحد من هذين الحرفين نائب عن الجملة، ألا ترى إلى قولك "نعم" فى موضع قد كان ذاك، و"لا" فى موضع لم يكن ذاك، وكذلك صه ومه وإيه وأف وهيهات، كل واحد منها جزء مفرد، وهو قائم برأسه، وليس للضمير الذى فيه استحكام الضمير فى الفعل، وذلك قوله سبحانه: ﴿... هاؤم اقرأوا كتابيه﴾[1] وأنت لا تقول فى الفعل اضربُم، ولا ادخلُم، ولا اخرجُم، ولا نحو ذلك. فلما كانت بين المفرد وبين الجملة هذه الأشباه والمقاربات وغيرها شبهوا توالى الضمتين فى نحو: سُرُح وعُلُط[2]، بتواليهما فى نحو: زيد قائم، ومحمد سائر، وعلى ذلك قال بعضهم: الحمدُ لُله فضم لام الجر اتباعاً لضمة الدال[3]" ثم وصف هذا بأنه موضع من كلام العرب طريف وعلل لذلك بأن بين المفرد والجملة أشباها.

---

(١) فى الآية رقم (١٩) من سورة الحاقة.

(٢) يقال: ناقة سُرُح فى سيرها: أى: سريعة، واقة عُلُط بلا سمة ولا حطام جمع أعلاط القاموس (سرح – علط).

(٣) الخصائص ١٧٨/٣.

وهذه من سمات العربية التى تتصف بالمرونة فى الأداء، مما يدل على أنها كيان واحد تتكامل أجزاؤه ويشد بعضه بعضاً، حيث نجد المصدر الصريح يقع بديلاً للمؤول، والمفرد -فى بعض المواقع- بديلاً للجملة، وفى مواقع أخرى بديلاً للمضاف والشبيه به ..

وقوع الجملة فاعلاً

اختلفت آراء النحويين وتعددت اتجاهاتهم حول وقوع الجملة فاعلاً على النحو التالى:

أولاً: البصريون: منع البصريون وقوع الفاعل جملة، وأوّلوا ماورد من ذلك تأويلاً يتفق وقواعدهم.

وقد ورد عن سيبويه أنه قال فى قوله تعالى: ﴿ثم بدا لهم من بعد مارأوا الآيات ليسجننه حتى حين﴾[١] قال: "ولا يكون "ليسجننه" بدلاً من الفاعل؛ لأنه جملة، والفاعل لا يكون جملة[٢]".

ثانياً: الكوفيون: أجاز الكوفيون وقوع الفاعل محتجين لذلك بوروده فى قوله تعالى: ﴿ثم بدا لهم ... ليسجننه ...﴾ حيث أعربوا جملة "ليسجننه" فاعلاً على تأويلها بالسجن (بفتح السين[٣]).

---

(١) فى الآية رقم (٣٥) من سورة يوسف.

(٢) هامش الكتاب ٣/١١٠.

(٣) التصريح ١/٢٨٦.

ثم ذهب هشام وثعب وجماعة إلى جواز ذلك فى كل جملة نحو: يعجبنى يقوم، ومن ثَمَّ فإن كلام هؤلاء يُحمل على أن الجملة مؤولة بمصدر غايته أنه سبك بدون سابك.

قال الدمامينى: لا أظن أحداً ينازع فى أن المسند إليه لا يكون إلا اسماً.

ووقف الفراء وجماعة موقفاً وسطاً وذكر أن النحاة أجازوا المسألة بشرطين:

الأول: أن يكون الفعل المسند إلى الجملة قلبياً.

الثانى: أن تقترن الجملة بأداة معلقة نحو: ظهر لى أقام زيد؟ وعُلم هل قعد عمرو؟

قال ابن هشام: وفيه نظر؛ لأن كون أداة التعليق مانعة من العمل أشبه من كونها مجوزة له؛ لأنها تمنع من عمل ماقبلها فيما بعدها، فكيف تكون مجوزة للعمل؟ هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى: إذا سلمنا بأن التعليق يقتضى جواز كونها فاعلاً، فإننا لا نسلم بجواز التعليق هنا أصلاً؛ لأنه كيف يعلق الفعل عن الفاعل الذى هو كالجزء منه.

ومن خلال هذا يتضح لنا أن ابن هشام يعترض على تعميم المعلق ثم يدلى بدلوه فى المسألة فيقول:

إن المسألة جائزة بشرط أن تكون الجملة معلقة بالاستفهام خاصة دون سائر المعلقات، وعلى أن يكون الإسناد إلى مضاف محذوف لا إلى الجملة الأخرى مثل: ظهر لى أقام زيد، ويقول: ألا ترى أن المعنى ظهر لى جواب أقام زيد، أى: جواب قول القائل ذلك.

وقد دفع الاعتراض الذى يمكن أن يُوجه إليه لو قيل: إن هذا ليس من المواضع التى تصح فيها الإضافة إلى الجمل، بل الذى يضاف للجمل إنما هو بعض الظروف المبهمة كيوم وحيث وإذا، يدفع هذا بقوله: إن الجملة التى يراد بها اللفظ يحكم لها بحكم المفردات. وحينئذ فذلك المضاف المقدر إنما هو مضاف لمفرد لا لجملة(١).

ومع تعدد هذه الاتجاهات واختلاف تلك الآراء فإنه يظهر جلياً أن منع وقوع الجملة فاعلاً هو الذى ساد فى الأوساط النحوية وغلب عليها، ولذلك اتجهت جهود النحاة إلى التأويل فى النصوص التى ترد مخالفة للقاعدة التى قرروها، وهى أن الفاعل لا يكون جملة، وهذا نموذج من محاولاتهم: ففى أثناء توجيه قوله تعالى: ﴿ثم بدا لهم من بعد مارأوا الآيات ليسجننه ...﴾ كان لكلٍ وِجهه يمم وجهه إليها.

فذهب سيبويه والمبرد إلى أن فاعل بدا ضمير مستتر يعود إلى المصدر المفهوم من الفعل والتقدير: بدا لهم بداء(٢).

---

(١) المغنى ٥٧/٢. وحاشية الدسوقى ٧٥/٢، ٥٨ بتصرف يسير.

(٢) الكتاب ١١٠/٣.

وقال الفراء وأصحابه: قوله "ليسجننه" قام مقام فاعل بدا لأن تلخيصه ظهر لهم سجنه، فناب الفعل الذى فيه لام القسم على فاعل بدا[١].

وقال الفارسى: إن أبا عثمان يقول: إن فاعل "بدا" مضمر فيه، كأنه عنده: ثم بدا لهم بدو، فأضمر الفاعل لدلالة فعله عليه، وجاز هذا وحسن وإن لم يحسن أن تقول ظهر ظهور، وعَلنَ علنٌ؛ لأن البدو والبداء قد استعملا على معنى غير المصدر، ألا ترى أن قولهم: بدا لهم بدو بمنزلة ظهر لهم رأى، كما أن قولهم: قيل فيه قول كذلك، فلهذا أقيم المصدر مقام الفاعل[٢].

وقال السهيلى: المجرور فى قوله "لهم" هو الفاعل؛ لأن الجملة المؤكدة باللام لا تكون فى موضع فاعل أبدا[٣].

وهكذا فعل النحويون فى كل النصوص التى رأوها مخالفة لما قرروه، والذى دفعهم إلى ذلك أنهم نظروا إلى تلك النصوص فوجدوها صحيحة مؤدية لمعنى مفيد، وبحثوا فيها عن عناصر تأليفها فوجدوا المسند وهو الفعل فى كل جملة، ونقبوا عن الفاعل فلم يهتدوا إليه؛ لعدم توافر الشروط التى وضعوها له، إذ وجدوه جملة، فأوقعهم ذلك فى حرج، فهذا الكلام مفيد بيد أن الفاعل ليس كما عهدوا، ومن ثم

---

(١) معانى الفراء ٢/٤٤.

(٢) المسائل الحلبيات ٢٣٩، ٢٤٠.

(٣) نتائج الفكر ٤٣١.

لجأوا إلى محاولات أرهقتهم للتخريج فى مثل تلك النصوص. والأولى من هذا أن ينظروا فى الجملة وينعموا فيها النظر فإن قصد لفظها وحكايتها جاز وقوعها فاعلاً؛ لأنها تعد بذلك من قبيل المفرد، كأن تسمع إنساناً يقول: رأيت البلبل، فتقول: سرنى رأيت البلبل، وتكون جملة: رأيت البلبل فاعلاً مرفوعاً بضمة مقدرة منع من ظهورها حركة الحكاية. وبذلك يكون لهذه الجملة موقع إعرابى وتضاف إلى الجمل التى لها إعراب محلى.

الجمل التى لها محل من الإعراب

رأينا من قبل أن الجملة لا يكون لها محل من الإعراب إلا إذا وقعت فى موقع المفرد وحلت محله وقُدرت به، وجاز تأويل مضمونها بمفرد أو نائب منابه، فإذا كان ذلك وأمكن حذفها وإحلال المفرد محلها فلها إعرابه فى الرفع أو النصب أو الجر أو الجزم، وهذا من الإعراب المحلى.

وزعم الرضى أنَّ كون الجملة ذات محل لا يُلزم تقديرها بالمفرد، وإنما يعنى أنه وقعت موقعاً يصح وقوع المفرد فيه.

قال: "وأما الجمل التى هى خبر المبتدأ، أو ماأصله الخبر كخبر كان وثانى مفعولى ظننت والحال والصفة فليست بتقدير المفرد، ولا دليل فى كونها ذات محل من الإعراب على كونها بتقدير المفرد[(١)]".

أما المفرد الذى تقع فى موقعه الجملة وتقدَّر به، فهو واحد من ثلاثة:

---

(١) شرح الكافية ٢/٣١٣.

أولاً: المصدر: تقدر الجملة بالمصدر إذا وقعت موقعه من الكلام دون حرف مصدرى سابك نحو قوله تعالى: ﴿... وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾[١] فجملة "تقوم" تقدر بمصدر فعلها، أى: حين قيامك.

وتحل الجملة محل المصدر إذا كانت فى موقع المبتدأ أو الفاعل أو المستثنى أو المضاف إليه وقد يكون ذلك فى الجمل الواقعة خبراً أو مفعولاً به، أو التابعة لمفرد، أو الجملة لها محل من الإعراب.

ثانياً: المشتق: تقدَّر الجملة باسم الفاعل أو المفعول أو الصفة المشبهه من المشتقات إذا وقعت موقع واحد منها فى الكلام.

ففى نحو قوله تعالى: ﴿وجاءوا أباهم عشاء يبكون﴾[٢] تؤول جملة "يبكو" باسم الفاعل: باكين. وفى قوله تعالى: ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا ...﴾[٣] تؤول جملة "لعنوا" باسم المفعول: ملعونون. وفى قوله تعالى: ﴿... فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[٤] تؤول جملة "يحزنون" بالصفة المشبهة: حزينون.

---

(١) فى الآية رقم (٤٨) من سورة الطور.

(٢) فى الآية رقم (١٦) من سورة يوسف.

(٣) فى الآية رقم (٢٣) من سورة النور.

(٤) فى الآية رقم (٣٨) من سورة البقرة.

وتحل الجملة محل المشتق إذا كانت فى موضع الخبر أو الحال، وقد يكون ذلك فى الجمل التى تقع مفعولاً به، أو التابعة لمفرد أو لجملة لها محل من الإعراب.

ثالثاً: الفعل: تقدَّر الجلمة بالفعل المضارع إذا وقعت موقعه ويكون ذلك فى جواب الشرط الجازم المقترن بالفاء أو إذا ففى مثل قول جميل بثنية:

فمن يعْط فى الدنيا قريناً كمثلها　　فذلك فى عيش الحياة رشيد[1]

تؤول جملة "ذلك رشيد" بالفعل المضارع: يرشد فيكون مجزوماً والجملة التى حلت محله فى محل جزم.

والدليل على أن هذه الجمل هى فى الموقع الإعرابى الذى ذكرناه أن مايتبع من المفردات أمثالها يكون تابعاً لها فى الإعراب، رفعاً أو نصباً أو جراً أو جزماً.

وتجدر الإشارة هنا إلى الجملة المحكية، لأنها ليست مما يؤول بمفرد مع أن لها محلاً إعرابياً ذلك لأنها ترد كالكلمة الواحدة بمنزلة المفرد يُقصد لفظها، لا معناها فلا تقتضى التأويل فهى غالباً ماتقع موقع مفرد محذوف بعد القول أو مايقوم مقامه فيكون لها محله الإعرابى دون

---

(١) من الطويل، وهو فى الديوان ص٦٨. جمع وتحقيق وشرح/ أميل بديع يعقوب ط أولى (١٤١٢هـ/١٩٩٢م) - دار الكتاب العربى - بيروت، كما ورد فى أمانى القالى ٣٠٠/٢، طبقات فحول الشعراء ٦٧١/٢، تهذيب تاريخ دمشق ٤٠٢/٣.

تأويل؛ لأن المحذوف قد يقوم مقامه فى الإعراب مايحل محله، ولهذا زعمنا أن الجملة الثانية فى نحو: قل: الحمد لله هى فى محل نصل مفعول به، وأنها فى نحو: قيل: الحمد لله فى محل رفع نائب فاعل.

وقد يحذف القول مع المفرد فتكون الجملة قد نابت مناب القول نفسه فى الإعراب ومن ذلك: خير الكلام لا إله إلا الله، فجملة "لا إله إلا الله" فى محل رفع خبر.

أما الجمل التى تقوم مقام المفرد ويكون لها إعرابه فهى عند الجمهور سبع وعدها ابن هشام تسع وفرّعها أبو حيان وتوسع فيها حتى أوصلها إلى مايقرب من ثلاث وثلاثين. وسنعرض لها بعد قليل.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الجملة التى لها محل من الإعراب يجب أن تكون واقعة فى موقع المفرد، والموقع له بطريق الأصالة، أى: أن يكون المحل الإعرابى الذى للمفرد له فى الأصل، لا عن طريق العارية، وإلا فقد وقعت الجملة فى موقعها الأصلى وهو موقع مالا محل له من الإعراب، إذ هو الأصل فى الجمل.

أهمية إعراب الجمل: إن الهدف من إعراب الجمل هو: تحديد موقعها من الكلام وصلة كل منها بما قبلها ومابعدها والأمر واحد سواء أكان للجملة محل من الإعراب أم لم يكن لها محل. ذلك لأننا فى إعراب الجمل نحدد مدى الجملة ومكانها من العبارة وعلاقتها بالمفردات والجمل التى حولها ونوعها من اسمية وفعلية .. وغير ذلك، ونبين صلتها بالإعراب، فإن كانت فى موقع المفرد دلَّ مضمونها أو لفظها على

معناه وحلت محلَه فى تقدير الإعراب وإلا كانت خالصة فى جمليّتها لا تقتضى التقدير والمحل الإعرابى.

وشأن الجمل فى هذا هو شأن المفردات، فالحكم على الحرف أو الفعل بأنه مبنى لا محل له من الإعراب لا يعنى تجريده من الدلالة المعنوية والعلاقات التى بينه وبين الكلمات المحيطة به، وإنما يعنى أن آخره لا يتأثر بتغير معانيه وعلاقاته، أو بالكلمات التى قبله، فهو يلتزم صورة واحدة لا علاقة لها بظواهر الإعراب.

أما الأسماء والأفعال المعربة فلفظ أواخرها مهيأ للتأثر بالعلاقات المعنوية واللفظية. والحال فى الجمل قريبة جداً من هذا فالتى لا محل لها من الإعراب شبيهة بالحروف والأفعال وعلى هذا فإننا حين نقول: إن الجملة ابتدائية مثلاً أو استئنافية أو اعتراضية، فإنما نبين الوظيفة النحوية التى تؤديها فى الكلام ونوضح علاقتها بما قبلها ومابعدها، مع أنها لا محل لها من الإعراب.

والتى له محل من الإعراب تشبه الأسماء المتمكنة والأفعال المعربة؛ لأنها وقعت فى موقعها بدلالة المضمون أو اللفظ.

كم عدد الجمل التى لها محل من الإعراب؟

اختلف النحاة فى عدد الجمل التى لها محل من الإعراب والتى تحل محل المفرد، فذهب الجمهور إلى أنها سبع، وعدّها ابن هشام تسع حيث قال:

والحق أنها تسع والذى أهملوه الجملة المستثناة نحو: ﴿إلا من تولى وكفر ۝ فيعذبه الله ...﴾[١] والجملة المسند إليها نحو: ﴿... سواء عليهم أأنذرتهم أم لمن تنذرهم ...﴾[٢].

وقال أبو حيان: أصل الجملة ألا يكون لها موضع من الإعراب، وإنما كان كذلك لأنها إذا كان لها موضع من الإعراب تقدر بالمفرد؛ لأن المعرب إنما هو المفرد، والأصل فى الجملة ألا تكون مقدرة بالمفرد[٣].

ثم يتحدث أبو حيان عن الجمل التى لها محل من الإعراب ويجعلها محصورة فى أنواع الإعراب وقد أوصلها إلى ثلاثين موضعاً فقال:

فمنها ماهو فى موضع رفع، وهو ثمانية باتفاق واثنان باختلاف:

الأول: أن تقع خبراً للمبتدأ، نحو: زيد أبوه قائم، أو خبراً لإنَّ وموضعها حينئذ رفع، بخلاف بابى كان وكاد فإنه يكون نصباً.

الثانى: أن تقع خبراً لـ"لا" التى لنفى الجنس، نحو: لا ربيئة قوم تأتى بخير[٤].

---

(١) فى الآية (٢٣،٢٤) من سورة الغاشية.

(٢) فى الآية رقم (٦) من سورة البقرة. وانظر المغنى ٧١/٢، والأشباه والنظائر ٢٤/٢.

(٣) الأشباه والنظائر ٢٥/٢.

(٤) ورد فى اللسان مادة: ربأ: الربيئة الطليعة، وإنما أنثوه؛ لأن الطليعة يقال له العين، إذ بعينه ينظر والعين مؤنثة، والربيئة الذى ينظر للقوم لـيلاً يدهمهم عدو، ولا يكون إلا على جبل أو شرف ينظر منه.

الثالث: أن تقع خبراً بعد إنَّ وأخواتها، نحو: إن زيداً وجهه حسن.

الرابع: أن تقع صفة لموصوف مرفوع، نحو: جاءنى رجل يكتب غلامه.

الخامس: أن تقع معطوفة على ماهو مرفوع، نحو: جاءنى رجل عاقل ويكتب خطا حسناً.

السادس: أن تقع بدلاً من مرفوع، نحو: أنت تأتينا تلّم بنا فى ديارنا[(١)].

هذه الستة باتفاق، واثنان اللذان فيهما الخلاف:

الأول: أن تكون فى موضع الفاعل، نحو: تعجبنى يقوم زيد.

والثانى: أن تكون فى موضع المفعول الذى لم يسم فاعله، نحو قوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض ...﴾[(٢)].

والصحيح أن الجملة لا تقع موقع الفاعل أو المفعول الذى لم يسم فاعله إلا إن اقترن بها مايصيرها وإياه فى تقدير المفرد[(٣)]، وقد سبق الحديث عن ذلك بالتفصيل.

---

(١) هذا المثال مأخوذ من شاهد نحوى من بحر الطويل وهو:

متى تأتنا تلْمُم بنا فى ديارنا تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

وهو من شواهد الهمع رقم ١٥٨٥. وانظره فى الأشباه ٣٩/٣، وشفاء العليل ٧٧٤/٢، والكتاب ٤٤٦/١، والمقتضب ٦٣/٢.

(٢) فى الآية رقم (١١) من سورة البقرة.

(٣) الأشباه والنظائر ٢٧/٢.

وبعد أن انتهى أبو حيان من ذكر ماهو فى موضع رفع من تلك الجمل يعرج على مايكون فى موضع نصب فيقول:

وفيه ماهو فى موضع نصب وهو ثلاثة عشر قسماً، عشرة باتفاق وثلاثة باختلاف:

الأول: أن تقع خبراً لكان وأخواتها، نحو: كان زيد يخرج أخوه.

الثانى: أن تقع فى موقع المفعول الثانى لـ"ظننت" وأخواتها، نحو: ظننت زيداً يقوم أخوه.

الثالث: أن تقع فى موقع المفعول الثالث لـ"أعلمت" وأخواتها، نحو: أعلمت زيداً عمراً ينطلق غلامه.

الرابع: أن تقع خبراً بعد "ما" الحجازية، نحو: مازيد أبوه قائم.

الخامس: أن تقع خبراً لـ"لا" أخت "ما"، نحو: لا رجل يصدق.

السادس: أن تقع فى موقع المفعول للقول الذى يحكى به، نحو: قال زيد عمرو منطلق، فعمرو منطلق فى موضع مفعول قال.

السابع: أن تقع فى موضع المفعول للفعل المعلق، نحو: علمت مازيد قائم، وسألت أيهم أفضل.

الثامن: أن تقع معطوفة على ماهو منصوب أو موضعه نصب، نحو: ظننت زيداً قائماً ويخرج أبوه، وظننت زيداً يقوم ويخرج.

التاسع: أن تقع فى موقع الصفة لمنصوب، نحو: قتلت رجلا يشتم زيداً.

العاشر: أن تقع فى موضع الحال، نحو قوله تعالى: ﴿ولا تمنن تستكثر﴾(١).

الحادى عشر: أن تكون فى موضع نصب على البدل، نحو قولك: عرفت زيداً أبو من هو على خلاف فى هذا القسم الأخير، فقولك: أبو من هو فى موضع نصب على البدل من زيد على تقدير مضاف، أى: عرفت قصة زيد أبو من هو.

الثانى عشر: أن تقع مصدرة بمذ أو منذ، نحو قولك: مارأيته مذ خلقه الله. ففى هذه الجملة خلاف:

ذهب الجمهور إلى أنها لا موضع لها من الإعراب، وذهب السيرافى إلى أنها فى موضع نصب على الحال.

الثالث عشر: أن تقع مستثنى بها، نحو: قام القوم إلا زيداً، وقاموا ليس خالدا.

وبعد أن فرغ من الحديث عن مواضع النصب شرع فى ذكر مايكون فى موضع جر فقال: ومنها ماهو فى موضع جر، وذلك ستة أقسام، ثلاثة باتفاق، وثلاثة باختلاف. فالتى باتفاق:

أحدها: أن تقع مضافاً إليها أسماء الزمان، نحو: جئتك يوم زيد أمير، وقال تعالى: ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾(٢).

---

(١) فى الآية رقم (٦) من سورة المدثر.

(٢) فى الآية رقم (٦) من سورة المطففين.

هذا والمضاف إليه من الوظائف النحوية التى تعاقب الجملة فيها المفرد، وهناك من الأسماء مايلزم إضافته إلى الجملة، ولكن لأن الإضافة فى الأصل تكون للمفرد اعتبرت الإضافة إلى الجمل فيها معاقبة للمفرد، وهذه الأسماء هى: إذ، وإذا، وحيث، و"لما" الحينية، والأسماء التى تجوز إضافتها إلى الجمل محددة فى العربية، منها أسماء الزمان ظروفاً كانت أو أسماء، نحو: ﴿والسلام علىّ يوم ولدت ...﴾[١] وضابط هذه الأسماء: كل ماكان من أسماء الزمان بمنزلة إذ أو إذا فى كونه اسم زمان مبهم لما مضى أو لما يأتى. يقول سيبويه:

"وجاز هذا فى الأزمنة واطرد فيها كما جاز للفعل أن يكون صفة وتوسعوا بذلك فى الدهر؛ لكثرته فى كلامهم[٢]".

الثانى: أن تقع موقع الصفة، نحو: مررت برجل يكتب مصحفاً.

الثالث: أن تقع معطوفة على مخفوض أو ماموضعه خفض، نحو: مررت برجل كاتب ويجيد الشعر، ومررت برجل يكتب ويجيد.

والتى باختلاف:

أحدها: أن تقع بعد ذو فى نحو قول العرب: اذهب بذى تسلم.

يقول سيبويه: "ومما يضاف إلى الفعل أيضاً قوله: لا أفعل بذى تسلمُ ولا أفعل بذى تسلمان، ولا أفعل بذى تسلمون، المعنى: لا أفعل

---

(١) فى الآية رقم (٣٣) من سورة مريم.

(٢) الكتاب ١١٧/٣.

بسلامتك وذو مضافة إلى الفعل كإضافة ماقبله، كأنه قال: لا أفعل بذى سلامتك، فذو هاهنا الأمر الذى يسلمك وصاحب سلامتك[(١)]".

وذهب بعض النحاة إلى أن الجملة فى قولك: اذهب بذى تسلم لا محل لها من الإعراب.

الثانى: أن تقع بعد آية بمعنى علامة، نحو قول الشاعر:

بآية تقدمون الخيل شعـــثا كأن على سنابكها مُداما[(٢)]

حيث أضيفت "آية" إلى الفعل، وكأن إضافتها على تأويل إقامتها مقام الوقت فكأنه قال: بعلامة وقت تقدمون الوقت.

قال سيبويه: "ومما يضاف إلى الفعل أيضاً قولك: مارأيته منذ كان عندى، ومذ جاءنى، ومنها أيضاً "آية[(٣)]".

الثالث: أن تقع بعد "حتى" الابتدائية، نحو قول امرئ القيس:

سريت بهم حتى تكل مطيهم وحتى الجياد مايقدن بأرسان[(٤)]

---

(١) الكتاب ١١٨/٣.

(٢) البيت من الوافر وقد ورد فى شرح المفصل ١٨/٣، والهمع ٥١/٢ برقم ١٢٤٦، الكتاب ١١٨/٣ ونسبه سيبويه إلى الأعشى.

(٣) الكتاب ١١٧/٣.

(٤) راجع ص١٤ من البحث.

ذهب الجمهور إلى أن هذه الجملة لا محل لها من الإعراب، وذهب الزجاج وابن درستويه إلى أنها فى محل جر بحتى[١].

ثم يتحدث أبو حيان بعد ذلك عن الجمل التى تكون فى محل جزم حيث قال: وذلك ثلاثة أقسام:

أحدها: أن تقع بعد أداة شرط عاملة و لم يظهر لها عمل، نحو: إن قام زيد يقم عمرو.

الثانى: أن تقع جواباً للشرط العامل، نحو: إن يقم زيد فعمرو قائم، وإن يقم زيد قام عمرو، فهاتان الجملتان فى محل جزم، ولهذا يجوز العطف عليهما بالجزم، قال تعالى: ﴿من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم ...﴾[٢].

الثالث: أن تكون معطوفة على مجزوم أو ماموضعه جزم، نحو، إن قام زيد ويخرج عمرو أكرمتهما، وقوله تعالى: ﴿... فلا هادى له ويذرهم ...﴾[٣].

ويلاحظ أن النحاة تصوروا هذه الجمل من خلال فكرة العامل التى سيطرت على أذهانهم، وكان الأحرى بهم أن ينظروا فى تلك الجمل من حيث الوظيفة التى تشترك فيها جميعاً وهى: نقل مايستحدث من أفكار فى ذهن المتكلم إلى السامع ثم يُعرجون بعد ذلك على الوظيفة

---

(١) الأشباه ٢/٣٠.

(٢) فى الآية رقم (١٨٦) من سورة الأعراف.

(٣) انظر الأشباه والنظائر ٢/٢٦-٣٠ بتصرف يسير.

الخاصة لتلك الجمل كأن يكون لها محل من الإعراب فتستعمل مسنداً أو نعتاً أو حالاً أو غير ذلك، أو لا يكون لها محل من الإعراب.

وبعد

فيمكن القول بأنه من خلال تلك الرحلة مع الجملة وصلتها بالمفرد أمكن التوصل إلى النتائج التالية:

أولاً: أثبت البحث أن سيبويه لم يتعرض لمصطلح الجملة فى كتابه بمعناها المعروف لدى النحاة، بيدأنه أشار إلى عناصرها من حيث تركيبها، فقال: "هذا باب المسند والمسند إليه، وهما مالا يغنى واحد منهما عن الآخر ولا يجد المتكلم منه بداً، فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبنى عليه، وهو قولك: عبد الله أخوك، وهذا أخوك". ونستطيع أن نتبين - من خلال هذا النص- أنه يتحدث عن الجملة الاسمية مكتفياً بالتمثيل لها دون وضع حد خاص بها، كما تحدث عن دخول النواسخ عليها حيث قال: "ومايكون بمنزلة الابتداء، قولك: كان عبد الله منطلقاً، وليت زيداً منطلق؛ لأن هذا يحتاج إلى مابعده، كاحتياج المبتدأ إلى مابعده..[1]".

كما تحدث عن الجملة الفعلية فى قوله: "ومثل ذلك: يذهب عبد الله، فلابد للفعل من الاسم، كما لم يكن للاسم الأول بد من الآخر فى الابتداء[2]".

---

(١) الكتاب ١/٢٣.

(٢) الكتاب ١/٢٣.

وقد اقتفى جُلُّ نحاة البصرة والكوفة أثر سيبويه وساروا على دربه، فلم يتعرضوا لدراسة الجملة اصطلاحاً واكتفوا بالدراسات التفصيلية حول أجزائها، وأطلقوا عليها مصطلح الكلام.

ثانياً: كشف البحث النقاب وأماط اللثام عن أول نحوى استعمل مصطلح الجملة فى مؤلفاته، وتحدث عن أقسامها، وهو المبرد البصرى صاحب كتاب المقتضب الذى تحدث فيه عن مصطلح الجملة فقال: "وإنما كان الفاعل رفعاً، لأنه هو والفعل جملة يحسن السكوت عليها وتجب بها الفائدة للمخاطب[(١)]".

ثالثاً: أثبت البحث أن ابن هشام هو أول من أولى الجملة عناية خاصة واهتم بها، وتوسع فى دراستها، فأفرد لها بابا مستقلاً فى كتابه مغنى اللبيب[(٢)].

رابعاً: كشف البحث عن العلاقة القوية بين الجملة والمفرد، إذ المفرد هو الأصل الذى تظهر عليه الحركات الإعرابية أو تقدَّر. أما الجملة فيتعذر ظهور الحركات عليها، ولهذا يعتبر إعرابها محلياً. فإذا حنت إلى أصلها ونازعها الشوق إلى المفرد، وجاءت مؤدية معنى نحوياً يؤديه المفرد كان لها إعراب مثل ذلك المفرد؛ لسابق الألفة بينهما، وبذلك يكون لها محل من الإعراب. أما إذا لم تؤد الجملة المعنى النحوى الذى يؤديه المفرد، فلا محل لها من الإعراب حينئذ.

---

(١) المقتضب ٨/١.

(٢) المغنى ٤١٩/٢.

ولقوة العلاقة بين الجملة والمفرد أثبت البحث تعاقبهما فى بعض المواقع الإعرابية.

كما تكشف -من خلال البحث- أن الجملة إذا قصد لفظها وحكايتها جاز وقوعها فاعلاً؛ لأنها -آنذاك- تكون من قبيل المفرد، وبذلك يكون لها موقع إعرابى، وتضاف إلى الجمل التى لها محل من الإعراب.

وحسبنا أن نكون قد كشفنا النقاب -فى هذا البحث- عن الجملة وصلتها بالمفرد بإلقاء الضوء على استعمالات الجملة عند النحاة والمواقع الإعرابية التى تتعاورها مع المفرد.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، وأن يدخر لى ثوابه عنده، إنه نعم المولى ونعم النصير،

د. إبراهيم حامد الإسناوى
مدرس بقسم النحو والصرف
فى كلية اللغة العربية بالمنصورة

المراجع والمصادر

١- القرآن الكريم.

٢- الأشباه والنظائر للسيوطى: راجعه وقدم له د/ فايز ترحينى ط أولى (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) دار الكتاب العربى.

٣- التصريح على التوضيح: للشيخ خالد الأزهرى ط عيسى الحلبى.

٤- الجملة النحوية للدجنى: ط أولى (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م) مكتبة الفلاح - الكويت.

٥- حاشية الدسوقى على المغنى: ط المشهد الحسينى - القاهرة.

٦- الخصائص لابن جنى: تحقيق/ محمد على النجار - دار الهدى للطباعة والنشر - بيروت - لبنان.

٧- حاشية الصبان على الأشمونى: ط عيسى الحلبى - القاهرة.

٨- شرح المفصل لابن يعيش: ط مكتبة المتنبى - القاهر.

٩- شرح جمل الزجاجى لابن عصفور: تحقيق/ د. صاحب أبو جناح - لجنة إحياء التراث الإسلامى - الجمهورية العراقية - وزارة الأوقاف والشئون الدينية.

١٠- فى بناء الجملة العربية: د/ محمد حماسة عبد اللطيف ط أولى (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) دار القلم - الكويت.

١١- فى النحو - نقد وتوجيه: د. مهدى المخزومى ط أولى ١٩٦٤م - المكتبة العصرية - صيدا - بيروت.

١٢- الكتاب لسيبويه: تحقيق/ عبد السلام هارون - مكتبة الخانجى - القاهرة.

١٣- الكافية فى النحو لابن الحاجب: ط دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

١٤- لسان العرب لابن منظور: ط دار المعارف.

١٥- المدارس النحوية: شوقى ضيف ط رابعة - دار المعارف.

١٦- مغنى اللبيب لابن هشام على حاشية الأمير: ط عيسى الحلبى.

١٧- المسائل الخلافية فى النحو للعكبرى: تحقيق د/ عبد الفتاح سليم ط أولى (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

١٨- المفصل فى علم العربية للزمخشرى: ط ثانية - دار الجيل.

١٩- المقتضب للمبرد: تحقيق/ محمد عبد الخالق عضيمة ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

٢٠- نشأة النحو للطنطاوى: تحقيق د/ عبد العظيم الشناوى - محمد عبد الرحمن الكردى ط ثانية (١٣٨٩هـ/١٩٦٩م).

٢١- همع الهوامع للسيوطى: تحقيق عبد العال سالم مكرم - دار البحوث العلمية - مؤسسة الرسالة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الكلمة

معناها ـ وأقسامها بين القدماء والمحدثين

دراسة مقارنة

د/ محمود محمود السيد الدرينى

مدرس اللغويات

كلية اللغة العربية بالمنصورة – جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد

فقد عنى النحاة القدامى بالتقسيم لإرساء قواعد علمهم، وتحديد أصولهم وماتجم عنها، وعبروا عن ذلك بكل دقة واقتدار مما ينم عن فهم عميق وفكر دقيق.

وقد بدت محاولات فى العصر الحديث نالت من تقسيماتهم وراحت ترميهم بالقصور وعدم الفهم، فما جعلوا لهم من أسس يقام عليها علمهم سوى السير قدماً فى ركب الفلاسفة والمناطقة فقد اعتمدوا فى تقسيمهم الكلمة إلى ثلاثة أقسام، اسم، وفعل، وحرف على تقسيم أفلاطون للموجودات فقد قسمها ثلاثة ذاتاً، وحدثاً، ورابطة كما أنهم اعتمدوا على المنطق الأرسطى .. وهلم جرًّا.

وقد فرض هذا التقسيم نفسه على النحاة -قدامى ومحدثين- الأمر الذى يدفعنا -على حد قولهم- إلى إعادة النظر فيه.

وظهر ذلك واضحاً فى محاولة الهجوم على النحاة القدامى والنيل من علمهم وفكرهم من الدكتور/ إبراهيم أنيس فى كتابه "أسرار العربية" ثم الدكتور/ تمام حسان فى كتابه "اللغة العربية مبناها ومعناها" وقد تبنى فكرتهم جُلّ من تلمذ لهم وأخذ عنهم، والحقيقة أن

مافى كتبهم يعد هدماً وتخريباً لا بناءً وتعميراً، وحسبك أن تقف على ماقالوه فى تقسيمهم للكلمة لتجد تفريعا فى التقسيم لا جدوى فيه ولا طائل من ورائه، وأنه يدخل المصطلحات بعضها فى بعض وهذا يعد معيبا فى العلم كما أنه لا يثبت أمام النقد، وليس أدل على وهنه وضعفه من جعلهم أسماء الإشارة ضمن ضمائر الحضور والأسماء الموصولة ضمن ضمائر الغيبة.

فكانت هذه الدراسة لتوضح ماعند القدماء والمحدثين من فكر حول تقسيم الكلمة فى اللغة العربية، رادة الجميل لأهله، والفضل لذويه، هؤلاء الذين بذلوا النفس والنفيس لإرساء قواعد هذا العلم حتى جاء مكتمل البنيان. مستوفى الأركان، فلا يصح النظر إلى مجرد دراسة واهية لتفسد علينا قواعدنا الثابتة المنضبطة.

الكلمة عند النحاة

هى اللفظ الدّال على معنى مفرد

والمراد باللفظ "الصوت اللغوى" أى الذى تنتجه الْحَنْجَرة البشرية سواء صدر عنها بالفعل أمْ لم يصدر، وقد سُمّى هذا الصوت لفظاً لأنَّ كلمة (لفظ) تعْنِىَ لغويًّا - (الطرح) وفى الصوت يتم طرح الهواء من داخل الرئة إلى خارج الإنسان، فاللفظ إذاً مصدر أُريد به المفعول أى الملفوظ كالخلق بمعنى المخلوق[١].

بيد أنَّ الكلمة ليست صوتاً لغوياً فحسب، إنَّها صوت يدل على معنى، ويعنى ذلك أنَّها ليست لفظاً فقط، بل لفظ يتضمن دلالة، ومنْ ثَمّ فجميع الكلمات ألفاظ وليس العكس.

و لله درّ ابن يعيش فقد عَبّر عن هذه الحقيقة النحوية بقوله[٢]: "فاللفظة جنس للكلمة، وذلك أنَّها تشمل (المهمل) و(المستعمل) فالمهمل مايمكن ائتلافه من الحروف و لم يضعه الواضع بإزاء معنى نحو: صص وكق، ونحوهما فهذا وماكان مثله لا تسمى واحدة منها كلمة؛ لأنّه ليس شيئاً من وضع الواضع، ويسمى لفظه لأنّه جماعة حروفٍ ملفوظٍ بها هكذا قال سيبويه فكل كلمة لفظة، وليس كل لفظة كلمة.

---

(١) شرح الأشمونى ومعه الصبان ٢١/١، وشرح الكافية للرضى ٤/١.

(٢) شرح المفصل لابن يعيش ١٨/١، ١٩.

ويفهم من نص ابن يعش أنَّ الكلمة لا تتناول إلاّ ماهو موجود بالفعل فى اللغة؛ إذ هو وحده الذى يتضمن معنى، ومن ثَمّ لا يدخل فى مجال التركيب وبالتالى لا يكون محور الدراسة النحوية مالا معنى له من الألفاظ أىْ تلك التى يمكن ائتلافها من العناصر الصوتية للغة وفقاً لقواعد البنية المقررة فى علم الصرف ولكنها تظل إطاراً صوتياً بنيوياً خالياً من كُلّ معنى مجرداً من كُلّ دلالة.

إنَّ الكلمات الممكنة الوجود -تلك التى يمكن تكوينها من الأصوات اللغوية- غير داخلة فى إطار الدراسة النحوية؛ لا لم تدخل أصلاً فى نطاق اللغة؛ التى تقتصر -وفاقاً لهذا الفهم- على تناول ماهو موجود وترفض ماليس له بالفعل وجود، ومن ثَمّ اشترط النحويون فى تعريف الكلمة كونها: (دلالة على معنى) فالدلالة على معنى إذاً هدفها إخراج المركبات الصوتية التى لا دلالة لها فى العربية، وإن شابهت -فى أوزانها- الكلمات العربية[١].

قال ابن يعيش[٢]: "الدّالة على معنى" فَصْل فصله من المهمل الذى لا يدل على معنى وماقرره ابن يعيش -معبراً فيه عن رأى النحاة- يتفق مع مقتضيات المنهج الوصفى القائلة بضرورة الاقتصار فى دراسة اللغة على ماهو موجود، دون العدول عنه ومجاوزته إلى ماليس له وجود.

وأرى: أنَّ الربط بين الدّلالة على معنى والاقتصار على ماهو موجود بالفعل فى اللغة أمر غير مسلم به على اطلاقه - فإنَّ حصر

(١) المدخل إلى دراسة النحو العربى د/ على أبو المكارم ص١٧٠.
(٢) شرح المفصل ١٩/١.

الكلمات فيما كان موجوداً، واستبعاد ماليس لـه وجـود قـد يسـلم إلى مصادرة اختراع الكلمات والصيغ التى تفتقر إليها اللغة ضرورة لمواءَمـة التطور الحتمى والضرورى للحياة والتعبير عنه فكراً ومادةً. وفـى ذلـك مافيه من خطر قصور اللغة عن الوفاء بمتطلبات المجتمع اللغوى وعجزهـا عن تلبية حاجاته[١].

ومـن ثَـمّ فإننـا نجنـح إلى رفـض الربـط بـين الدّلالـة علـى معنـى والاقتصار على الموجود فإنَّ الألفـاظ المصطلـح عليهـا بـالمهملات لعـدم دلالتها علـى معنـى لا تُعَـدّ كلمـات إلاّ بعـد اشـتمالها على معنى فـى الاستعمال اللغوى.

والمعنى الذى تتضمنه الكلمة ليس مَعْنـاً مطلقـاً عامـاً يشـمل جميـع المعانى فى النشاط اللغوى بل هو معنى خاص إذ يشترط فيـه أن يكـون "مفرداً" والمراد بالإفراد هاهنا "عدم دلالة جزء اللفظ على جُـزْء معنـاه وذلك نحو قولك "زيد" فهذا اللفظ يدل على المسمّى ولو أفردت حرفـاً من هذا اللفظ أو حرفين نحو "الزاى" مثلاً لم يدل على معنى البتة[٢].

قد تُسْتخدم الكلمة للدلالة على الجملة أو الجمل المفيدة ومنه قـول الله عَزّ وجَلّ: ﴿... وكلمة الله هـى العليـا ...﴾[٣] وهـى "لا إلـه إلاّ الله "كلمة التوحيد وقوله: ﴿... وتمت كلمة ربّك لأمـلأن جهنـم مـن

---

(١) المدخل إلى دراسة النحو العربى ج١، ق٢، ص١٧١.

(٢) انظر شـرح المفصـل ١٩/١، والأشمونـى والصبـان ٢٦/١، وشـرح الكافيـة للرضى ٥،٤/١.

(٣) فى الآية رقم (٤٠) من سورة التوبة.

الجِنَّةِ والناس أجمعين﴾[١] وقوله: ﴿كلا إنّها كلمة هو قائلها﴾ إشارة إلى قوله: ﴿... رَب ارجعون ۞ لعلي أعمل صالحاً فيما تركت ...﴾[٢] ومنه قول الرسول ﷺ: "الكلمة الطيبة صدقة"[٣] وقوله: "أفضل كلمة قالها شاعر كلمة لبيد[٤].

أَلاَ كُلُّ شيء ماخلا الله بَاطِلٌ ∴ وكُلُّ نعيم لا محالة زائل

وقد شاع هذا الاستعمال للكلمة في الوسط اللغوى حَتّى ظَنَّ بعض الدّارسين -قُدامى ومحدثين- أن إطلاق "الكلمة على الكلام المفيد، إطلاق حقيقى فهو المعنى اللغوى لها ومن هؤلاء الأشمونى الذى ينص صراحة أنَّ الكلمة[٥] "تطلق لغةً على الجمل المفيدة والحق أنَّ هذا الاستعمال للكلمة مع مايستم به من شيوع ليس سوى استعمال مجازى لها قال الرضى[٦]: "وقد تطلق الكلمة مجازاً على القصيدة والجمل يُقال: كلمة شاعر قال الله تعالى: ﴿وتمت كلمة ربّك الحسنى﴾.

---

(١) فى الآية رقم (١١٩) من سورة هود.

(٢) فى الآية رقم (٩٩-١٠٠) من سورة المؤمنون.

(٣) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ٣/٢٨٦.

(٤) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ٦/٥٨.

(٥) شراح الأشمونى ومعه الصبان ٢٨/١، ونظيره ماذهب إليه ابن هشام، انظر التصريح على التوضيح ٢٨/١، وقطر الندى وبل الصدى ص٢، وأوضح المسالك ١٣/١.

(٦) شرح الكافية للرضى ٣،٢/١.

أمّا دلالة الكلمة لغوياً فقريبة من دلالتها النحوية وهي: اللفظ الدّال على معنى مفرد.

أقسامها

يكاد يستقر عند جمهور النحويين العرب أنّ الكلمة ثلاثة أقسام لا تخرج عنها ولا تحيد وهي الاسم، والفعل، والحرف[(١)]، وتتلخص أدلتهم على صحة هذا التقسيم في أمور:

أولها: الأثر: فقد ورد منسوباً إلى الإمام علي بن أبي طالب أنّه قال لأبي الأسود: "إنّي سمعت ببلدكم هذا لحناً، فأردت أنْ أصنع كتاباً في أصول العربية ثُمّ ألقى إليه صحيفة فيها: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ الكلام كُلّه اسم، وفعل، وحرف، فالاسم ماأنبأ عن المسمى، والفعل، ماأنبأ عن حركة المُسمّى، والحرف ماأنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل[(٢)]".

ثانيها: الاستقراء التام من أئمة العربية، كأبي عمرو والخليل، وسيبويه ومن بعدهم.

---

(١) انظر الكتاب ١/١٢، والمقتضب ١/٧، وشرح المفصل ١/١٨، وشرح الكافية للرضي ١/٦، وشرح لمحة أبي حَيّان للبرماوي ص٧، وشرح التحفة الوردية لابن الوردي ص٥، وشرح الأشموني ١/٢٢، والتصريح ١/٢٥، وشرح اللمع للتبريزي ص٥٢، وأوضح المسالك ١/١٢.

(٢) الإيضاح في علل النحو ٤٣، وأمالي الزجاجي ص٢٣٨، والأشباه والنظائر ٢/٧.

ثالثها: الدليل العقلى[١]: ومُراد النحاة به أنَّ النظر العقلى المجرد مِنْ اعتبارات أُخْرى ينتهى من تحليله لأنماط الكلمات الموجودة فى اللغة العربية إلى وجوب حصرها فى ثلاثة أنواع لا تقل عنها ولا تتجاوزها هى: الأسماء، والأفعال، والحروف ومَنْ اعتمدوا على الدليل العقلى دليلاً على صحة التقسيم الثلاثى للكلمة اختلفوا فى نقطة البدء فيه.

فمن النحويين من يبدأ من "صلاحية الكلمة للإسناد" والمعنى الذى تُؤديه فيه ومِن هؤلاء ابن معط قال: "إنَّ المنطوق به إمَّا أنْ يَدُلَّ على معنى يصح الإخبار عنه وبه، وهو الاسم، وإمَّا أنْ يصح الإخبار به لا عنه، وهو الفعل، وإمَّا لا يصح الإخبار عنه ولا به، وهو الحرف" وهذا الذى قرره ابن معط تطوير لفكرة ابن الخشبا والذى يُقرّر فيها أنَّ الكلمة قد انقسمت إلى ثلاثة أقسام لا رابع لها "قسمة ضرورية أو كالضرورية لأنَّ العبارات دّوال على المعانى التى تحتها، والمعانى منقسمة إلى ثلاثة أقسام فوجب أن تكون الألفاظ الدّالة عليه ثلاثة لا أقل ولا أكثر، والمعانى: ذات يُخْبَرُ عنها وهى الاسم، وخبر عن تلك الذّات وهو الفعل، وواسطة بينهما إمَّا لإثبات الخبر للمخبر عنه، أو لنفيه، أو لغير ذلك من المعانى، وذلك هو الحرف[٢]".

ومنهم مَنْ يبدأ من "دلالة الكلمة على مضمونها" ومن هؤلاء ابن بابشاذ الذى يُقَرّر أن "الكلام ثلاثة لا غير لأنّ العبارة على حسب المعبر عنه، والمعبر عنه لا يخلو من أن يكونَ (ذاتا) كزيد وعمرو، أوْ (حدثاً)

---

(١) الأشباه والنظائر ٢/٧.

(٢) المرتجل لابن الخشاب ص٥.

من ذات كقام وقعد، أو (واسطة) بين الـذّات وحدثها يكون لإيجاب شيء لها أوْ نفى شيء عنها، أوْ شرط لها، مثـل: إنَّ زيداً قام، ومازيد قام، وإنْ قام زَيْدٌ قام عمرو؛ فالأسماء عبارة عن الذّات، والأفعال عبارة عن الحدث، والحروف عبارة عن الوسائط[١]" وهذا -أيضاً- مانقله السيوطى منسوباً إلى بعض النحاة قال "ومنها قول بعضهم: "إنَّ العبارات بحسب المعبر، والمعبر عنه من المعانى ثلاث: ذات وحدث عن ذات وواسطة بين الذات والحدث، يدل على إثباته لها أوْ نفيه عنها، فالذات الاسم، والحدث الفعل، والواسطة الحرف[٢]".

ومنهم من يبدأ من "منطلق القسمة العقلية" فيقرر أنّ الكلة إمَّا أنْ تستقل بالدّلالة على ماوضعت له أوْ لا تستقل، وغير المستقبل الحرف، والمستقبل إمَّا أنْ تشعر -مع دلالتها على معناها- بزمنه المحصل أوْ لا تشعر، فإن لَمْ تشعر فهى الاسم، وإن أشعرت فهى الفعل[٣].

وهذه الفكرة (القسمة العقلية) هى ماعتمد عليها ابن عصفور حيث قال: والدليل على أنَّ أجزاء الكلام بهذه الثلاثة خاصة، وأنّ اللفظ الذى هو جزء كلام إمَّا أنْ يدل على معنى أوء لا يدل، وباطِلٌ أنْ لا يدل، فإنّ ذلك عيب، وإذا دلّ فإمَّا أنْ يدل على معنى فى نفسه أوْ فى غيره لا فى نفسه، فإنْ دلّ على معنى فى غيره فهو الحرف، وإن دلّ على معنى فى نفسه فإمَّا أنء يتعرض ببنيته للزمان أو لا يتعرض،

---

(١) شرح المقدمة النحوية ص٢٧.

(٢) الأشباه والنظائر ٢/٨.

(٣) السابق ٢/٨.

فإن تعرض فهو فِعْلٌ، وإنْ لمْ يتعرض فهو اسم، فالأجزاء إذاً منحصرة في هذه الثلاثة[١]".

وقد استدل ابن فَضّال المجاشعى المتوفى سنة ٤٧٩هـ على صحة التقسيم الثلاثى للكلمة بالاستقراء، والدليل العقلى فقال: "لِمَ زعمتم أنَّ الكلام ثلاثة أشياء، ومـاأنكرتم أن يكون أكثر من ذلك أوْ أقل، والجواب:

أننا اعتبرنا جميع الأشياء، واستقريناها فوجدناها لا تخلو أن تكون ذاتاً أو حدثاً للذات أوْ واسِطة بينهما، فالاسم عبارة عن الذّات، والفعل عبارة عن الحدث، والحروف عببارة عن الواسطة بينهما، و لمْ نجد قسماً رابعاً، فلمّا كان كذلك حكمنا بأنّ الكلام ثلاثة".

وجواب ثان "هو أننا وجدنا فى الكلام مايخبر عنه وبه فسميناه اسماً، ووجدنا مانُخبر به ولا نخبر عنه فسميناه "فعْلاً" ووجدنا مالا يخبر عنه ولا به فسميناه "حرفاً" و لم نجد قسماً رابعاً فحكمنا بأنّ الكلام ثلاثة.

وجواب ثالث: وهو أن جميع المعانى يُعَبّر عنه بهذه الأشياء الثلاثة فَعُلِمَ أنّه لا رابع لها فقطعنا بذلك وجعلناه أصلاً يرجع إليه ويعتمد عليه[٢]".

(١) المقرب لابن عصفور ص٤،٥.

(٢) شرح عيون الإعراب فضال المجاشعى ص٤٣،٤٤.

وقريب منه مانص عليه ابن الأنبارى فى كتابه "أسرار العربية" إذ قال "فإنْ قيل: فَلِمَ قلتم إنَّ أقسام الكلم ثلاثة لا رابع لها؟ قيل: لأنّا وجدنا هذه الأقسام الثلاثة يعبر بها عن جميع مايخطر بالبال ويتوهم فى الخيال، ولو كان ههنا قسم رابع لبقى فى النفس شيء ولا يمكن التعبير عنه، ألا ترى أنّه لو سقط آخر هذه الأقسام الثلاثة لبقى فى النفس شيء لا يمكن التعبير عنه بإزاء ماسقط، فلمّا عُبِّر بهذه الأقسام عن جميع الأشياء دَلّ على أنّه ليس إلاّ هذه الأقسام الثلاثة(١)".

هذه هى أهم الأدلة التى اعتمد عليها النحاة -قُدامى ومحدثين- فى التقسيم الثلاثى الكلمة، وهو التقسيم الذى فرض نفسه علينا واستقر فى فهمنا حتى أصبحت مناقشته أو إعادة النظر فيه مخالفة أو مخاطرة غير مأمونة عواقبها. بيد أنّ الأسس التى اعتمد عليها هذا التقسيم تفرض بإصرار وإلحاح التصدى لها وتدعونا إلى مراجعتها والنظر فيها.

فنقول وبالله التوفيق:

أمّا الدليل الأول: وهو ماأطلق عليه السيوطى الأثر لا ينهض أن يكون دليلاً لما يلى:

أولاً: أنّه لا يُعْتمَد على أساس صحيح فى النقل بل هو أقرب إلى الإدعاء ينفيه التحليل الدقيق للخصائص المنهجية للنص بالمقارنة، وحسبك أن ترجع إلى كتاب سيبويه لمعرفة أنواع الكلمات فيه لتلحظ أنّه يعتمد على المثال دون تقديم الصورة الذهنية الكلية التى تندرج

---

(١) أسرار العربية لابن الأنبارى ص٢،٣.

تحتها الأمثلة، فى حين كان التعريف المنسوب إلى الإمام على تعريفاً منطقياً متسماً بالجمع والمنع معاً، محاولاً تقديم صورة ذهنية لكل عنصر من عناصر الكلمة الثلاثة.

قال سيبويه فى باب علم ماللكلم من العربية "فلكلم: اسم، وفعل، وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل فالاسم: رجل، وفرس، وحائط، وأمّا الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء وبنيت لما مضى، ولما يكون ولم يقع ولما هو كائن لم ينقطع، فأمّا بناء مامضى فذهب، وسمع ومكث وحَمُد، وأمّا بناء مالم يقع فإنّه قولك آمراً، اذهب واضرب، ومخبراً: يقتل ويذهب ويَضْرب .. وأمّا ماجاء لمعنى ليس باسم ولا فعل فنحو: ثُمَّ، وسوف، وواو القسم[١]". والتعريف بالمثال أو بالرسم يمثل مرحلة أولى نحو التعريف بالحد، إذ التعريف بالمثال لا يَعْدو ذكر أمثلة من أنواع المعرف ثُمّ ترك السامع أو القارئ يتلمس شبها بين هذه الثلاثة وبين غيرها من أنواع اصطلاحها ثمّ تأمل هذه الأمثلة لإدراك الصورة الذهنية المشتركة بينهان وتلمس حقيقة العلاقات التى تجمع أبعادها، وإذا كان ذلك لم يحدث فى عصر سيبويه، ألا يكون من السذاجة تصور شىء من ذلك قبله بقر ونصف قَرْنٍ[٢].

ثانياً: إنَّ البحث العلمى الذى يهدف إلى تحليل الظواهر اللغوية لا مجال فيه للقول بالنقل، بل لعل الوقف عند النقل فيه يتناقض مع بدهيات المنهج العلمى الدّاعية إلى التناول الموضوعى، دون الالتزام بآراء

---

(١) الكتاب ١/١٢.

(٢) تاريخ النحو العربى ص٧٧،٧٨ بتصرف.

سابقة أو الاهتمام بأحكام مطلقة، لأنّ الزعم بأنَّ "النقل" يصلح دليلاً في هذا المجال ينقل المسألة برمتها من ميدان البحث الموضوعي التحليلي إلى رحاب القضايا الذاتية التي توشك أن تكون توقيفية.

ومن ثمّ فإنَّ أقصى مايمكن أن يُسْتفادَ في هذا المجال هو القيمة التاريخية التي ترتبط بفترة زمنية فهي بالضرورة محدودة في إطارها لا تتجاوزها إلى مابعدها وتظل الظاهرة اللغوية موضوع البحث في حاجة متجددة إلى التحليل الموضوعي بغض النظر عن كُلّ رأى تراثي.

فعلى فرض صحة نسبه هذا التقسيم إلى الإمام على -كرّم الله وجهه- فإنّ قيمته تظل محبوسة في نطاق التاريخ فحسب، لا تتجاوزه بفرض هذه المقولة على الدّارسين والباحثين من بعده، وإلاّ انجرفنا في ادّعاء القداسة لآراء لا قداسة لها لأنّها لا ترتبط بفكر أو عقيدة بل بظواهر منفصمة عن الفكر والعقيدة، وشأن اللغة في هذا شأن ظواهر الطبيعة والمجتمع، وليس بخاف علينا أنَّ الحقائق التاريخية تؤكد أنَّ "عناصر الطبيعة" كانت في مرحلة مابعينهما لا تتجاوز أربعة هي: الماء، والهواء، والنار، والتراب. وهاهي العناصر قد تجاورت المائة. أليس من العبث إذاً أن نتصور أنَّ "أثراً تاريخياً زائف النسب وقاصر الدّلالة يمكن أن يحكم البحث العلمي الذي يهدف إلى تحديد عناصر الكلمة العربية وبيان أنواعها[١].

أمَّا الدليل الثاني والذي وصفه الإمام السيوطي بالاستقراء لا ينهض أن يكون دليلاً لأمرين:

---

(١) المدخل إلى دِراسة النحو العربي ج١، ق٢، ص١٧٨-١٧٩ بتصرف.

الأول: أنّه ليس من الاستقراء فى شىء، فالاستقراء منهج علمى يَعْتمدُ على جزئيات الظاهرة موضوع الدّراسة دون إغفال شىء منها، وهو ينتقل من الجزئيات إلى الكليات، وهو لا ينتقل من الجزئيات إلى الكليات إلاّ بعد استيعاب كافة الجزئيات قال الغزالى[١]: "الاستقراء: عبارة عن تصفح أمور جزئية لتحكم بحكمها على أمر كُلّى يشمل تلك الجزئيات"، وليس فيما ذكره الإمام السيوطى من نسبة القول بالتقسيم الثلاثى للكلمة العربية إلى أئمة الباحثين فى اللغة استقراء، وإنما هو مجرد "إلمام" ببعض الاتجاهات والأقوال التى ذهب إليها بعض الدّارسين والباحثين.

فلم يتم فيه "استقراء" موضوع الظاهرة، وهى أنواع الكلمات فى اللغة؛ كما لم يتم فيه "استقراء" مواقف جميع الباحثين والدّارسين فيها، ومن ثَمَّ فاستخدام لفظ "الاستقراء" فى هذا الموضع نوع من التجوز فى مجال الاستدلال الذى لا يقبل تجوزاً أوْ مجازاً.

الثانى: أنّه مع فرض أنَّ ماقرره الإمام السيوطى من تقسيم ثلاثى للكلمة يعتمد على استيعاب شامل ودقيق لآراء النحاة فى حصر وتحديد أنواع الكلمة العربية -وهو مالم يكن بالفعل- فإنَّ أقصى مايأخذ به هذا الدليل ويسلم إليه هو الاعتراف بنسبة هذا التقسيم إلى علماء اللغة العربية خلال مرحلة تاريخية، بيد أنَّ هذا الاعتراف لا يقتضى التسليم بصلاحية هذا التقسيم ولا يستلزم الإقرار بسلامة مقوماته؛ لأنَّ موضوع الاعتراف -وهو تحديد أنواع الكلمات- ليس من القضايا التى يكفى

---

(١) المستصفى للغزالى ٥١/١.

فيها الإحالة إلى مواقف العلماء، أوْ الاستناد على اتجاهات الباحثين. وإنّما لابُدّ من تناول هذه الأنماط من خلال ماهو موجود بالفعل من كلمات أى لا بُدّ من "الاستقراء التام" الذى ينصب على كافة كلمات اللغة ويستوعبها جمعاً وتصنيفاً، ووصفاً وتحديداً وتقسيماً.

أمّا الدليل الثالث وهو الدليل العقلى - فهو أقوى الأدلة التى استند إليها النحاة فى قولهم بالتقسيم الثلاثى للكلمة وهو أكثر الأدلة شيوعاً وأعظمها تأثيراً، ولا غرو إذا قلت: إنّه لولا هذا الدليل ماكان فى مقْدور هذا التقسيم أنْ يفرض نفسه على النحاة من أيقن منهم به ومن شك منهم فيه.

فقد افترض هؤلاء وأولئك معاً أنَّ النظر "العقلى" لظواهر اللغة يسلم بالضرورة إلى يقين قطعى فيها، ومن ثَمّ اعتمدت معظم المحاولات التى تناولت بالمناقشة أسس التقسيم الثلاثى فى إطار سلب الدليل العقلى أو إثباته من خلال منظور عقلى أيضاً وهذا عرض لبعض نماذج هذه المناقشة.

فها هو ذا أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى المتوفى سنة ٣٣٧هـ يفترض احتال أنْ يُعارض هذا التقسيم بدعوى أنَّ كلام العرب أكثر من الأقسام الثلاثة ثم يَردّ على ماافترضه بقوله[١]: "إنَّ مِن الأشياء تُعْرف ببديهة العقل بغير برهان ولا دليل، بها يُسْتدلُّ على المشكل الملبس والغامض الخفى، كما أنّا نعلم بديهة بغير دليل أن وجود جسم

(١) الإيضاح فى علل النحو ص٤٢.

في حالة واحدة ساكناً متحركاً أو لا ساكناً متحركاً محال .. كما أنّا نعلم أن وجود جسم واحد في مكانين في حال واحدة ووقت واحد محال، كما أن وجوده لا في مكان محال" ويظل على هذا المنوال محاولاً مناقشة "الفرض" العقلي مناقشة عقلية ليسلم له هذا التقسيم الثلاثي.

أمّا الدليل العقلي القائل بأنَّ الكلمة تنقسم بحسب صلاحيتها للإسناد إلى ثلاثة أقسام: كلمة تُخْبِر عنها وبها، وكلمة يخبر بها ولا يخبر عنها، وكلمة لا يخبر عنها ولا بها، فيناقشه العلامة ابن إياز: أبو محمد الحسين بن بدر المتوفى سنة ٦٨١هـ قائلاً[١]: "في هذا الاستدلال خلل، وذلك أنَّ قسمته غير حاصرة، إذ يحتمل وجهاً رابعاً، وهو أنْ يخبر عنه لا به، وسواء كان هذا القسم واقعاً أو غير واقع، بل سواء كان ممكن الوقوع أم محالاً، إذ استحالة أحد الأقسام المحتملة لا تصير بها القسمة عند الإخلال به حاصرة".

فابن إياز ينطلق -كما ترى- من الاحتمالات العقلية وليس من الظواهر اللغوية، وهو من هذا "المنطلق العقلي" يرى في الدليل المعتمد على فكرة الإسناد عيباً نظرياً، دون أنَّ يلتفت إلى مدى صحة هذا التقسيم في إطار الواقع اللغوي. فالرؤية العقلية فرضت عليه أن يكون نقده أقرب إلى الفرض العقلي منه إلى التحليل الواقعي.

وقال ابن هشام: أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف المتوفى سنة ٧٦١هـ معقباً على مناقشة ابن إياز بقوله[٢]: "هذا أفسد ماقيل في

---

(١) انظر الأشباه والنظائر ٨/٢.

(٢) السابق ٨/٢.

ذلك لأنها غير حاصرة". فهو يرى أن الاحتمال الذى افترضه ابن إياز يُعَدّ أقوى اعتراض يمكن أن يوجه إلى أدلة هذا التقسيم.

وليس بخاف علينا أن ابن هشام بنى رؤيته عل ى"الفرض" العقلى دون أن يعول على التحليل الموضوعى.

وهذا قدر "كاف يكشف مدى اعتداد النحاة العرب بالنظر العقلى فى هذه القضية من قضايا النحو العربى فلم يفطن معظمهم إلى أنَّ هناك تبايناً بين المنهج العقلى بأسسه الشكلية المنطقية ومقوماته الميتافيزيقية من ناحية وطبيعة المادة اللغوية التى يُراد صبها فى قوالب هذا المنهج من ناحية ثانية[١].

وتأكيداً لهذه الحقيقة فى البحث النحوى أوقفك هنا على ملحوظات أربع:

الملحوظة الأولى: ترابط الصلة ووضوحها بين "الشكل" الذى اتخذه الدليل العقلى الذى ساقه النحاة العرب للتقسيم الثلاثى للكلمة والمنطق الصورى.

الملحوظة الثانية: أنَّ ثَمَّةَ تشابهاً واضحاً بين "مضمون" هذا التقسيم الثلاثلا للكلمة والذى قال به النحاة والتقسيم الأفلاطونى للموجودات، فقد قسمها إلى ذوات وأحداث، وجعل اصطلاح (الذوات) يتضمن الأمور المادية أوْ المعنوية، أمَّا اصطلاح (الأحداث)

(١) المدخل إلى دراسة النحو العربى ج١، ق٢، ص١٨٢ نقلاً عن تقويم الفكر‌ى النحوى.

فيقع على الأفعال التى تقع فى زمن خاص، ومن الطبعى أن توجد علاقة بين الذوات والأحداث.

وقد قسم أفلاطون الألفاظ فى اللغة الاغريقية على أساس دلالتها على هذه الموجودات إلى ثلاثة أقسام: (اسم) وهو مايدل على ذات و(فعل) وهو مايدل على حدث و(العلاقة) وهو مايربط الذات بالحدث.

ومِنْ ثَمَّ نرى أن مضمون الدليل العقلى الذى اعتمد عليه النحاة من تقسيم ثلاثى للكلمة يُعَدّ ترجمة دقيقة للتقسيم الأفلاطونى فقد عُنِى النحاة العرب بالأساس النظرى الذى قام عليه التقسيم الأفلاطونى وهو "الدلالة" وجعلوه عماد تقسيم الكلمة إلى أنواعها، ومن ثَمّ اعتبروا الحروف مجموعة علاقات أو روابط ومن هنا اكتفوا فى تعريف الحرف بأنّه "مايدل على معنى ليس باسم ولا فعل" أو "مايدل على معنى فى غيره، دون أنْ يلحظوا أن الحروف فى العربية لها دلالتها المعجمية الخاصة بها التى لا سبيل إلى تجريدها منها.

الملحوظة الثالثة: أنَّ العلاقة بين النظر العقلى والواقع اللغوى علاقة تضاد ومن ثَمّ لا يكون النظر العقلى منهجاً صحيحاً لتحليل الواقع اللغوى إذ بتطبيقه فى تحليل الواقع اللغوى يكون مؤدياً إلى إهدار الاتساق الضرورى فى البحث العلمى بين المادة موضوع البحث والمنهج الذى يتناولها[1].

---

(١) المدخل إلى دراسة النحو العربى ص١٨٤ بتصرف.

وحسبنا أن نعرض هنا أبسط الفوارق بين (النظر العقلى) ومايستلزمه من "منطق كُلّى" والواقع اللغوى. وتتمثل فى أنَّ الحقائق العقلية مطلقة وليست نسبية، فالمنطق العقلى لا يختلف باختلاف البيئات ولا يتنوع بتنوع الثقافات ولا يتفاوت بتفاوت الأجناس، أمَّا اللغة كما هو معلوم تختلف باختلاف البيئات وتتنوع بتنوع الثقافات، وتتفاوت بتفاوت الأجناس.

الملحوظة الرابعة: أنَّ الواقع اللغوى لا يؤيد هذا التقسيم بل يكاد ينقضه ويتعارض معه.

وسأذكر نمطاً من الكلمات لا يتسق مع ماقرره النحاة من خصائص للتقسيمات:

الأسماء العاملة عمل الأفعال وهى ماتسمى بالمشتقات الاسمية كاسم الفاعل واسم المفعول، فهذه المشتقات صالحة للإخبار بها وعنها من ناحية، كما أنّها مرتبطة بالزمان بصورة مامن ناحية أخرى وهى لا تدل على (ذات) مفردة كما أنّها لا تعنى (حدثاً) مجرداً ومن ثَم لا يصح وفقاً لذلك أن تندرج تحت أى قسم من الأقسام التى ذكرها النحويون لاتصافها بخصائص أكثر من قسم من هذه الأقسام فى آن واحد. ومع ذلك جعلها النحاة أسماءً مغفلين مابينها وبين الأفعال من صلات.

ومن ثَمّ أن التقسيم الثلاثى للكلمة لا يستند إلى أسس يقينية، ولم يستوعب جميع الكلمات العربية مِمّا يجعلنا مؤيدين لمن أعادوا النظر فيه من النحاة قُدامى ومحدثين.

وأول من فلت مِن إسار النظر العقلى الذى فرض نفسه على النحاة فى القول بالتقسيم الثلاثى للكلمة أبو جعفر أحمد بن صابر النحوى الأندلسى شيخ أبى جعفر أحمد بن إبراهيم الوزير شيخ أبى حيان الأندلسى، فقد ذهب إلى أنّ فى الكلمة العربية نوعاً رابعاً ليس باسم ولا فِعْل ولا حرفٍ سَمّاه "الخالفة" ومرد اعتبار هذا النوع من الكلمات نوعاً مستقلاً لما فيها من خصائص تميزها -عنده- عن كُلّ من الأسماء والأفعال معاً، فإطلاق أىّ منهما عليها يُعدّ إهداراً لهذه الخصائص وتجاهلاً لها.

فهذه الكلمات تشبه الأفعال من بعض الوجوه وتشبه الأسماء من بعض الوجوه أيضاً.

فالشبه بينها وبين الأفعلا يظهر فى أمرين:

الأول: الدلالة على ماتدل عليه الأفعال من أمرا أوْ نهى، مع اقترانها بالزمان الخاص.

والثانى: عملها عمل الأفعال، سواء فى اكتفائها بمرفوع أم فى افتقارها بعده إلى منصوب[١].

وأمّا الشبه بينها وبين الأسماء فيظهر فى أمرين أيضاً:

الأول: حكاية بنائها إذا نقلت إلى العلمية وسُمّى بها وفى آخرها الرّاء نحو: سفار، وحضار فهى مبنية لأنّها اسم منقول فبقى على بنائه

---

(١) شرح المفصل لابن يعيش ٢٨/٤.

ولم يُعْرَب، ولو كان فِعْلاً لوجب إذ نقل إلى العلمية أن يُعْرَب نحو كسعب وتغلب واضرب.

والثانى: أنّها تنون فرقاً بين المعرفة والنكرة فإذا قلت مثلاً: صه - بدون تنوين- كانت معرفة، وإذا قلت: صه -منونة- كانت نكرة[١].

فنتيجة لهذه الصور من التشابه رأى أبو جعفر أحمد بن صابر أنّه لابُدَّ من اعتبار هذه الكلمات نوعاً مستقلاً من الكلمات العربية يتميز بوجود بعض خصائص الأسماء فيه وقبول بعض علاماتها، فى الوقت نفسه الذى توجد به بعض خواص الأفعال بيد أنّه لا تقبل أى منها شيئاً من علاماتها.

ولكن جمهور النحاة قد استولى على فكرهم المنطق العقلى الذى دفعهم إلى القول بالتقسيم الثلاثى للكلمة لم يجدوا حرجاً من محاولة إدماج هذا النوع من الكلمات فى أحد الأقسام الثلاثة.

فمنهم من ذهب إلى أنّها أفعال، لما بينها وبين الأفعال من شبه مُتجاهلين عدداً من العناصر التى لا سبيل فى التحليل الموضوعى إلى إغفالها منها:

١- صور التشابه التى تجمع بين هذه الكلمات والأسماء.

٢- عدم قبول هذه الكلمات أيًا من علامات الأفعال.

٣- اختلاف النسق فى استخدام هذه الكلمات واستخدام الأفعال إذ يجب أن تلحق بالأفعال الضمائر فى حالة الإسناد، فى حين لا

---

(١) السابق ٤/٢٨، ٢٩.

تلحق الضمائر هذه الكلمات، وإنما تلزم حالة واحدة إفراداً وتثنيةً وجمعاً، وأن صيغها مخالفة لصيغ الأفعال، وأنّها لا تتصرف تصرفها.

ومنهم من ذهب إلى أنّها أسماء مراعاةً لما بينها وبين الأسماء من علاقات، وهؤلاء -بدورهم- قد وقعوا في جملة أخطاء لا سبيل لإساغتها منها.

١- إهمال صور التشابه التى بينها وبين الأفعال.

٢- هذه الكلمات لا تدل على (ذوات) بل تتضمن أحداثاً ولا يخبر عنها بل يخبر بها وليست مفردة الدلالة بل مزدوجة إذ تدل على حدث وزمن معاً. فَلَمَّا لم يجدوا بُداً من تسمية هذا النوع من الكلمات أطلقوا عليها (اسم فعل) حيث يتسم هذا الموقف بالتناقض شكلاً ومضموناً.

ونتيجة لما ذهبنا إليه تُعَدّ أقسام الكلمة أربعة هى:

الاسم، والفعل، والحرف، والخالفة وهى ماأطلق عليها النحاة (اسم الفعل).

والذى دفعنا إلى القول بأنَّ هذه الكلمات نوع مستقل من الكلمات العربية وجود بعض خصائص الأسماء فيه قبول بعض علامات الأسماء، ووجود بعض خواص الأفعال به دون أن تقبل أى منها شيئاً من علاماتها.

وقد بدت محاولات معاصرة لإعادة النظر في التقسيم الثلاثي للكلمة العربية وفي طليعتها ماذكره الدكتور/ إبراهيم أنيس -رحمه الله- والدكتور/ تمام حسان.

ولست بصدد دراسة هذه المحاولات، فإنَّ ذلك أمر يفتقر إلى موضوع بحث مستقل يتناول الأسس الفكرية والمقومات المنهجية والنتائج التطبيقية التي اعتمدت عليها هذه المحاولات، ولكن الذي يعنينا هاهنا هو عرض لأهم ماتضمنته هذه الدّراسات من إضافات نتفق معها أحياناً ونخالفها أخرى.

أولاً: محاولة الدكتور "إبراهيم أنيس[1]":

فقد ذهب إلى ضرورة اعتبار أسس ثلاثة في القول بتقسيم الكلمة هي:

١- المعنى.

٢- الصيغة.

٣- وظيفة اللفظ في الكلام.

واعتماداً على هذه المحاولة رأى ضرورة اعتبار الأسس الثلاثة مجتمعة عندما يقيس أجزاء الكلام ولا يصح الاكتفاء بأساس واحدٍ منها وقررْ أنّه إذا رُعيت تلك الأسس الثلاثة مجتمعة استطعنا إلى حَدّ كبير التمييز بين أجزاء الكلام، وذهب إلى أنَّ هناك تقسيماً رابعاً: يُعَدّ -

---

(١) من أسرار اللغة د/ إبراهيم أنيس ص٢٨١.

عنده- أدقَ من تقسيم المتقدمين من النحاة، ويتضمن هذا التقسيم الرباعى المبنى على اعتبار تلك الأسس الثلاثة الأقسام الآتية[١].

الأول: الاسم: وتندرج تحته أنواع ثلاثة تشترك فى المعنى والصيغة والوظيفة وهى:

١- **الاسم العام**: ويعنى به الاسم الكلى الذى يَضُمّ أفراداً عديدين لوجود صفةٍ أو مجموعة من الصفات فى هؤلاء الأفراد.

٢- **العلم**: ويُرادُ به الاسم الجزئى الذى يدل على ذات معينة محددة لا يشترك معها غيرها.

٣- **الصفة**: نحو: كبير، وصغير، وأحمر، وأخضر، وهى وإن كانت تتفق مع الاسم العام فى دلالتها على عدد كبير من الأفراد فإنّها تخالفهُ فى كونها أوسع دائرة وأكثر شمولاً.

والثانى: الضمير[٢]: ويتضمن ألفاظاً معينة ومحددة فى كُلّ لغة، وهى ألفاظٌ قليلة البنية، تستغنى بها اللغات عن تكرار الأسماء الظاهرة. وتندرج تحت هذا الاسم الأنواع الآتية:

١- الضمائر: سواء أكانت ضمائر تكلم أم خطاب أم غيبة.

٢- ألفاظ الإشارة: إذ العرض الحقيقى من استعمالها الاستعاضة بها عن تكرار الأسماء الظاهرة.

---

(١) من أسرار اللغة ص٢٨٢،٢٨٣،٢٨٨،٢٩٠.

(٢) السابق ص٢٩٠ - ٢٩٣.

٣- الموصولات: إذ هى ألفاظ تربط بين الجمل، ويستعاض بها عن تكرار الأسماء الظاهرة، أيضاً.

٤- العدد، لأنّها هى الأخرى يُسْتعاض بها عن تكرار الأسماء الظاهرة.

والثالث: الفعل[١]: وفائدته الأساسية فى الجملة "إفادة الإسناد".

والرابع: الأداة[٢]: وهو قسم عام يتناول مابقى من ألفاظ اللغة، فمنها مايسمى عند النحاة بالحروف سواء أكانت للجر أم للنفى أم للاستفهام أم للتعجب أم للترجى أم للتمنى .. الخ، ومنها مايسمى بالظروف زمانية كانت نحو: قبل، وبعد، أو مكانية نحو: فوق وتحت".

وبعد ماعرضنا محاولة الدكتور أنيس يمكننا أنْ نلخصها في نقطتين:

الأولى: تقسيم الاسم إلى قسمين حيث يجعل الضمائر - ومايتفق معها أو يلتقى بها فى الخصائص الأسلوبية فى قسم مستقل.

والثانية: نقل الظروف من نطاق الاسمية إلى حقل الأدوات مع بقية الحروف.

أمَّا النقطة الأولى فيمكن قبولها بدعوى أنَّ التقسيم -عنده- لَمْ يتضمن فى جوهره غير التماس بعض العلامات المشتركة فى حيز مايعرف بالأسماء عند النحاة.

---

(١) السابق ص٢٩٣.

(٢) السابق ص٢٩٤.

أمَّا الثانية فمرفوضة نظراً لوجود الفوارق الأسلوبية التى لا سبيل إلى تجاهلها بين الظروف وبقية الأدوات.

ثانياً: محاولة الدكتور "تمام حسان":

وهى محاولة تعتمد على أنَّ تحديد أنماط الكلمات فى اللغة العربية لِزاماً أن يقوم على رعاية الأسس الشكلية والاعتبارات الوظيفية معاً، والأخذ ببعض هذه الأسس والاعتبارات دون بعضها الآخر يعد غير كافٍ فى تحديد أنواع الكلمات فى لغتنا العربية.

أمَّا الأسس الشكلية والتى وضع لها اصطلاح "المبانى" فتتمثل عنده فيما يلى[١]:

١- الصورة الإعرابية. ٢- الرتبة. ٣- الصيغة.

٤- الجدول. ٥- الإلصاق. ٦- النضام.

٧- الرسم الإملائى.

أمَّا الاعتبارات الوظيفية والتى اصطلح عليها بـ"المعانى" فتتناول[٢]:

١- التسمية. ٢- الحدث. ٣- الزمن.

٤- التعليق. ٥- المعنى الجملى.

---

(١) اللغة العربية مبناها ومعناها ص٨٧،٨٨.

(٢) السابق ص٨٧،٨٨.

ونتيجة لهذه الأسس والاعتبارات رأى الدكتور/ تمام ضرورة التفرقة والتمييز بين أنواعٍ سبعة من الكلمات فى اللغة العربية وهى:

١- الاسم. ٢- الصفة. ٣- الفعل.

٤- الخالفة. ٥- الضمير. ٦- الظرف.

٧- الأداة.

فليس ثمة شك فى أنَّ مقومات التقسيم عند الدكتور تمام تختلف عن مقومات التقسيم الثلاثى فى التراث النحوى. فمقومات التقسيم عنده - تقوم على اعتبار الأسس اللغوية الموضوعية فى تحديد أنواع الكلمات العربية، فى حين تراعى مقومات التقسيم الثلاثى الاعتبارات العقلية والمنطقية، ولقد أسلم هذا الاختلاف فى المقومات إلى خلاف فى النتائج، فمراعاة الاعتبارت اللغوية -الشكلية والوظيفية- قادت إلى ضرورة التفرقة بين "الاسم" و"الضمير"، و"الصفة" و"الظرف" و"اسم الفاعل" وهى جميعاً تنتمى إلى نوع واحد فى التراث النحوى. كما أسلمت إلى ضرورة مراعاة مابين "الضمائر" و"أسماء الإشارة" و"الأسماء الموصولة" من صلات قُرْبى تجمع بينا فى نوع مستقل بدلاً من إدراجها ضمن الإطار العام للأسماء.

وثمة اتفاق واختلاف بين محاولتى الدكتور أنيس والدكتور تمام فهما تلتقيا من حيث المنهج فى ضرورة اعتماد التقسيم على أسس موضوعية لغوية وضرورة رفض المقومات المنطقية ومقولاتها الفلسفية، ويتفقان معاً فى بعض النتائج كاعتبار "الضمير" وماكان مماثلاً له ومشابهاً مبنىً ووظيفة - قسماً مستقلاً من الكلمات فى العربية.

وماذهبنا إليه يشعرنا بأنَّ النحاة لم يدركوا ماقالا به من اعتبار الخصائص اللغوية الشكلية والوظيفية وهو أمر لا نقبله ويكفى أن تتطلع على كتب النحاة المتقدمين فستجد عناية النحاة بمراعاة تلك الخصائص الشكلية والوظيفية التى يمكن بها التعرف على كل نوع من أنواع الكلمات والتمييز بينها، وهى الخصائص التى أطلق عليها النحاة مصطلح "العلامات" فقد جعلوا لكل نوع من هذه الأنواع علامات تميزه عن الآخر بحيث تُعَدّ هذه العلامات دعامات يعتمد عليها فى تمييز كُلّ قسم عن قسيمه فجعلوا للاسم علامات تميزه عن الفعل والحرف بحيث لو وجدت علامة منها فى كلمة فهى قاطعة باسمية هذه الكلمة، وكذلك بالنسبة للفعل مَيّزوه بعلامات إذا وجدت واحدة منها فى كلمة فهى قاطعة بفعليتها أمَّا الحرف فقد جعلوا العلامة المميزة له أنّه لا يقبل أيًّا من علامات الأسماء ولا من علامات الأفعال.

ومراعاة لهذه الخصائص واعتماداً عليها جعلوا كُلّ كلمة تقبل أيًّا من علامات الأسماء مدرجة تحت الأسماء نحو: الضمائر والأسماء الموصولة، وأسماء الإشارة، والصفة، والظرف وهى الأنواع التى حاول الدكتور تمام أن يفرق بينها ويجعل بعضها قسماً مستقلاً على ماسبق ذكره من محاولة إدماج "أسماء الإشارة" و"الأسماء الموصولة" تحت "الضمائر" فقد عَدّ ضمن ضمائر الحاضر أسماء الإشارة، وعَدّ ضمن ضمائر الغيبة الأسماء الموصولة فهو[1] يرى أنَّ الضمائر تدل على "عموم الحاضر أو الغائب دون دلالة على خصوص الغائب أو الحاضر وهذا هو المقصود بقول ابن مالك:

---

(١) اللغة العربية معناها ومبناها ص١٠٨.

ومالذى غيبة أو حضور ∴ كأنت وهو سم الضمير

والحضور قد يكون حضور تكلم كأنا ونحن وقد يكون حضور خطاب كأنت وفروعها أو حضور إشارة كهذا وفروعه، والغيبة قد تكون شخصية كما فى "هو" وفروعه، وقد تكون موصولية كالذى وفروعه[١].

وأقول: لَيْس ثمة شك فى أنَّ أسماء الإشارة دالة على الحُضور بيد أنَّ الإشارة معنى مبهم يشار بها إلى كلّ شىء قال ابن يعيش[٢]: "ويُقال لهذه الأسماء مبهمات لأنّها تشير بها إلى كُلّ مابحضرتك، وقد يكون بحضرتك أشياء فتلبسن على المخاطب فلم يَدْرِ إلى أيها تشير فكانت مبهمة لذلك، ولذلك لزمها البيان بالصفة عند الإلباس".

ولن نتجاوز الحقيقة إذا قلنا -معتمدين- على نص ابن يعيش السابق أنّ الإشارة فيها دلالة عامة، أمَّا الضمير فدلالته على الحضور - كما لا يخفى على المبتدئين- دلالة خاصة، وتمثيل ابن مالك -فى البيت السابق- للحضور بـ"أنت" يرفع إبهام دخول اسم الإشارة فى ذى الحضور، قاله الأشمونى. ومِمّا يدل على أنَّ دلالة الضمير على الحضور دلالة خاصة أنَّ المتكلم المشير إلى نفسه لابُدّ أن يقول: هاأناذا[٣] ومن ثَمّ فدلالة الضمير غير دلالة الإشارة وإن اتفقتا فى الحضور ففى الإشارة

(١) اللغة العربية معناها ومبناها ص١٠٨.

(٢) شرح المفصل لابن يعيش ١٢٦/٣.

(٣) انظر الكتاب ٣٥٣/٢.

حضور عام وفى الضمير حضور خاص. عِلْماً بأنَّ الضمير كناية عن مرجعه الذى يرجع إليه، وليس لاسم الإشارة مرجع ترجع إليه لأنَّ معناها عام.

وتعريف الإشارة أن تخصص للمخاطب شخصاً يعرفه بحاسة البصر، فمعنى الإشارة -كما قال ابن يعيش- الإيماء إلى حاضر بجارحة أو مايقوم مقام الجارحة، أمَّا سائر المعارف -ومنها الضمير- فهو أن تختص شخصاً يعرفه المخاطب بقلبه فلذلك قال النحويون: إنَّ أسماء الإشارة تتعرف بشيئين بالعين والقلب[١]".

وقال الرضى[٢]: "والأسماء المذكورة ليست كذلك فإنّها للمشار إليه إشارة عقلية ذهنية ..فالأصل على هذا أنْ لا يشار بأسماء الإشارة إلاّ إلى مشاهد محسوس قريب أو بعيد".

أمَّا إدراج الموصولات واعتبارها ضمن ضمائر الغيبة فأكثر بُعْداً وفى هذا تهافت، لأنَّ الضمير كناية عن معروف غائب قال الرضى[٣]: "وأعلم أن المقصود من وضع المضمرات رفع الإلتباس فإنَّ "أنا وأنْتَ" لا يصلحان إلاّ لمعّينين، وكذا ضمير الغائب نَصّ فى أنّ المراد هو المذكور بعينه فى نحو "جاءنى زَيْدٌ وإياه ضربْتُ" أمَّا الموصول فهو ضرب من المبهمات لوقوعه على كُلّ شىء قال ابن يعيش[٤]: "وأعلم أنّ الموصول

---

(١) شرح المفصل ١٢٦/٣.

(٢) شرح الكافية ٣٠/٢.

(٣) شرح الكافية للرضى ٣/٢.

(٤) شرح المفصل ١٣٩/٣، وانظر الكتاب ٣٥٢/٢، ٣٥٣، ٣٥٥.

ضرب من المبهمات، وإنما كانت مبهمة لوقوعها على كُلّ شيء من حيوان وجماد وغيرهما كوقوع هذا وهؤلاء ونحوهما من أسماء الإشارة على كُلّ شيء".

أمَّا أوجه الاختلاف بين محاولتى الدكتور أنيس والدكتور تمام فكثيرة منها:

١- طبيعة المقومات الشكلية والعملية التى يجب رعايتها فى تحديد أنواع الكلمة العربية.

٢- التفرقة التى ذهب إليها الدكتور تمام بين "الظرف والأداة وكذلك بين "الوصف" و"الاسم" وهى تفرقة لا وجودلها عند الدكتور أنيس.

٣- قسم استقل به واختار له مصطلح "الخالفة" وأدرج تحته أسماء الأفعال وأسماء الأصوات، وأساليب التعجب والمدح والذم.

وإن كُنّا نتفق مع الدكتور تمام فى اختيار مصطلح "الخالفة" قاصداً به "أسماء الأفعال" فلا نتفق مع فى عَدّ أساليب التعجب والمدح والذم ضمن الخوالف.

فهذه محاولة منى قصدت بها إلقاء الضوء على مادار من نقاشات وخلافات حول التقسيم الثلاثى للكلمة فى القديم والحديث، فلعلها بداية تدفعنا إلى مناقشة الكثير من قضايا الخلاف فى النحو العربى قديماً وحديثاً.

وإحقاقاً للحق أقول: إنَّ محاولة الدكتور تمام وقد تبناهـا كثير من الدّارسين تُعدّ تكثيراً للأقسام من غير داعٍ بل ربما كانت تعويقاً عن فهم المسائل والقضايا لأنَّ كثرة الفروع قد تكون فى أحيان كثيرة سر جمود الفكر النحوى وبالتالى انهياره وفنائه.

عِلْماً بأنّ مصطلح "الخالفـة" والـذى جعلـه مصطلحـاً علميـاً علـى "أسماء الأفعال والأصوات وماتلاها" لم يكن هو بدْعاً فيه بل سـبقه أبـو جعفر بن صابر إليه مُريداً به "أسماء الأفعـال والأصـوات" وليـس الفـرّاء كما ادّعى الدكتور تمام[1]. ولست أدرى على أى شـيء بنـى أساسـه فى ادعاء نسبة هذا المصطلح إلى الفرّاء إلاّ أن يكون ادّعاؤه قائمـاً علـى الوهم فهو القائل إنَّه فى تقسيمه الجديد للكلم العربى قـد استعار اسم الخالفة مِمّا رواه الأشمونى -فى باب أسماء الأفعال- عن الفـرّاء مـن أنّـه كان يُطْلق على اسـم الفعـل "خالفـة، ومـن قبلـه ومـع فـى هـذا الوهـم الدكتور أحمد مكى الأنصارى[2]".

أمَّا الأشمونى فلم ينص على ذلك وهـاك عبارتـه "وقيـل هـى قسـم برأسه يُسَمّى خالفة الفعل".

أمَّا القائل به فهو العالم النحوى الأندلسى أبو جعفر أحمد بن صابر القيسى وقد ورد ذكر "الخالفـة" منسـوباً إليـه فـى ثلاثـة كتـب للإمـام السيوطى:

---

(١) انظر اللغة العربية مبناها ومعناها ص٨٩.

(٢) أبو زكريا الفرّاء ومذهبه فى النحو واللغة ص٤٢٣.

(أ) أحمد بن صابر أبو جعفر النحوى الذاهب إلى أن للكلمة قسماً رابعاً وسماه الخالفة[١].

(ب) قال: "قوال أبو حيان: زاد أبو جعفر بن صابر قسماً رابعاً سماه الخالفة وهو اسم الفعل[٢].

(ج) قال[٣]: (وزعمها ابن صابر قسماً رابعاً زائداً على أقسام الكلمة الثلاثة، سماه الخالفة).

وإذا كان أبو جعفر بن صابر[٤] خامل الذكر فى النحاة وليست له شهرة وذيوع، فإنّ رأيه المبتكر -والذى لم يسبق إليه- وهو مانتفق معه فيه - بإضافة قسم رابع للكلمة مُطْلِقاً عليه مصطلح "الخالفة" خلّد ذكره مادام النحو العربى.

تَمّ والحمدُ لله أولاً وآخر

د/ محمود محمود السيد الدرينى

مدرس اللغويات

كلية اللغة العربية بالمنصورة

جامعة الأزهر

---

(١) بغية الوعاة ٣١١/١.

(٢) الأشباه والنظائر ٢/٣.

(٣) همع الهوامع ١٠٥/٢.

(٤) انظر فى ترجمته نفح الطيب للمقرى ٦٥٥/٢، الدرر الكامنة لابن حجر العسقلانى ١٠٥/١، الوافى بالوفيات للصفدى ٤١٨/٦.

مراجع البحث

١- أبو زكريا الفرّاء ومنهجه فى النحو واللغة: تأليف د/ الأنصارى - ط المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب القاهرة سنة ١٩٦٤م.

٢- أسرار العربية لابن الأنبارى: تحقيق/ محمد بهجة البيطار - ط الترقى دمشق سنة (١٣٧٧هـ/١٩٥٧م).

٣- الأشباه والنظائر للسيوطى: تحقيق/ فايز ترحينى - دار الكتاب العربى سنة (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

٤- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام: تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد - ط دار الجيل بيروت لبنان.

٥- الإيضاح فى علل النحو للزجاجى: تحقيق/ مازن مبارك - ط دار النفائس بيروت سنة ١٩٧٣م.

٦- بغية الوعاة للسيوطى: تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم - ط دار الفكر سنة ١٩٧٩م.

٧- التصريح على التوضيح للشيخ خالد: - ط عيسى البابى الحلبى القاهرة.

٨- شرح التحفة الوردية لابن الوردى: تحقيق د/ سمير عبد الجواد - مطبعة حسان القاهرة سنة (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

٩- شرح عيون الإعراب لابن فضال المجاشعي: تحقيق د/ حنا جميل حدّاد - دار المنار الأردن الزرقا.

١٠- شرح الكافية للرضى: ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

١١- شرح لمحة أبي حيان للبرماوى: تحقيق د/ عبد الحميد الوكيل - دار أبو المجد للطباعة.

١٢- شرح المفصل لابن يعيش: مكتبة المتنبى القاهرة.

١٣- شرح اللمع للتبريزى: تحقيق د/ سيد تقى عبد السيد.

١٤- الكتاب - سيبويه: تحقيق/ عبد السلام هارون - ط بيروت لبنان، سنة (١٤٠٣هـ/١٨٩٣م).

١٥- اللغة العربية مبناها ومعناها: د/ تمام حسان -الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٩م.

١٦- المدخل إلى دراسة النحو العربى: د/ على أبو المكارم - دار الوفاء للطباعة القاهرة.

١٧- المرتجل لابن الخشاب: تحقيق/ على حيدر - ط دمشق سنة ١٣٩٢هـ.

١٨- المقرب لابن عصفور: تحقيق/ أحمد عبد الستار وآخر - مطبعة العانى بغداد سنة ١٩٣٣م.

١٩- من أسرار اللغة: د/ إبراهيم أنيس - مطبعة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٨م (السادسة).

٢٠- نفح الطيب للمقرى: تحقيق/ محمد محيى الدين عبد الحميد - الطبعة الأولى القاهرة سنة (١٣٦٧هـ/١٩٤٩م).

٢١- همع الهوامع للسيوطى: ط دار السعادة سنة ١٣٢٧هـ.

٢٢- الوافى بالوفيات: تحقيق س/ديدرينغ نشر فراتر شنانير فسباد سنة ١٩٧١م.

العربية فى الجامعات

وأساليب تعليمها لغير الناطقين بها

الباحث

د . بدر عبد الرزاق الماص

تمهيد

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

وبعد

فإن للغة أهمية كبرى فى حياة الأفراد والجماعات فهى وسيلة التعبير والتخاطب بين الناس، كما أنها وسيلة من الوسائل المهمة فى كافة مراحله.

وإذا كان هذا بالنسبة للغة عموماً فإن اللغة العربية تكتسب أهمية أخرى بالإضافة لما سبق فى أنها لغة مقدسة اختارها الله ﷻ من كافة اللغات لتكون لغة القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾[1] وقال سبحانه: ﴿وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد ...﴾[2] وقال ﷻ: ﴿قرآناً عربياً غير ذى عوج...﴾[3] وقال أيضاً: ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾[4] وعلى هذا فهى لغة مقصودة بذاتها لما لها من واقع خاص تنفرد به بين سائر اللغات ولها طبيعة خاصة تتميز بها عن غيرها.

---

(١) سورة يوسف الآية (٢).

(٢) سورة طه الآية (١١٣).

(٣) سورة الزمر الآية (٢٨).

(٤) سورة الأحزاب الآية (٣).

وهذه اللغة رابطة قائمة بين المسلمين جميعاً، وبينهم وبين القرآن الكريم المنزل بها.

ومن هنا كان لابد من التمسك بها والمحافظة عليها، وتعميمها بكل الوسائل الكفيلة بهذا التعميم.

ولما كان هذا الذى ذكرته وغيره ممن لم أذكره يبين مدى أهمية اللغة العربية لذا فقد أردت المشاركة بهذا البحث المعنون بـ (اللغة العربية فى الجامعات العربية وأساليب تعليمها لغير الناطقين بها) لأسهم مع المخلصين فى إلقاء الضوء على هذا الموضوع الذى هو من الأهمية بمكان.

وقد جعلته مشتملاً على الآتى:

أولاً: التمهيد: وذكرت فيه أهمية هذا الموضوع.

ثانياً: أهمية اللغة فى حياة الفرد والجماعة كوسيلة للاتصال والتعبير وتحقيق الأهداف.

ثالثاً: ثم تكلمت بعد ذلك عن مكانة اللغة العربية وأهميتها.

رابعاً: وعن قضية مهمة ألا وهى قضية تدريس اللغة العربية فى الجامعات ومالها وماعليها من أجل النهوض بهذا التدريس والارتقاء به، وتجنب السلبيات الموجودة، حتى تتبوأ هذه اللغة مكانتها اللائقة بها.

خامساً: كما تناولت فى هذا البحث أيضاً وجوه الضعف فى تدريس هذه اللغة، والأسباب التى أدت إلى ضعف المتخرج من الجامعة فيها مع تدعيم ذلك بالشواهد والأدلة.

وبينت أن من أسباب ذلك:

١- المناهج

٢- طرق التدريس.

٣- الكتب المؤلفة فى هذه اللغة.

٤- العزلة القائمة بين علوم اللغة المختلفة.

٥- الاهتمام بالقضايا التاريخية دون التركيز على المبادئ المهمة والاتجاهات الأساسية.

٦- الفصل بين علوم اللغة والعلوم الإنسانية الأخرى.

٧- غياب الخطط الموضوعية العلمية.

ثم قمت بتفصيل أسباب الضعف تطبيقياً على مواد اللغة الأساسية مع ذكر العلاج لهذا الضعف وكيفية القضاء على المعوقات وذلك بخطوات عدة منها:

أولاً: المناهج: حيث بينت أن المناهج المستخدمة اليوم تقليدية ثم ذكرت المنهج السديد وخطواته فى تحديد المادة علمياً واختيار الأساسيات المفيدة للمتعلم وتهيئة الظروف له ووضع الإمكانات المناسبة لتحقيق الأهداف المطلوبة، وإجراء مسح لمواقف النشاط اللغوى

فى الحياة، واتخاذ خطوات من أجل تكامل المعارف ووحدتهـا، وإعـادة فـى فـروع اللغـة المختلفـة للمتخصصـين ولغـيرهم وفـق مسـتوياتهم وتخصصاتهم. ووضع منهج يتناسب مع خبراتهم واحتياجاتهم اللغويـة، والالتزام بالمنهج التدريجى بدءاً بالأمور الحسية قبل المجردة، والسهلة قبـل الصعبة. وقد أعطيـت الأمثلـة علـى ذلـك مـن مقـررات النحو واللغـة والأدب والبلاغة، ثم تحدثت عن وجوب تحديث هـذه المنـاهج وطريقـة هذا التحديث ثم بينت كيفية تطوير أساليب التقويم.

ثانياً: أعضاء هيئة التدريس حيث بينـت أنـه مـن الواجـب إعـداد المدرسين جميعاً فى التخصصات المختلفة إعداداً جيداً لتعلم وتعليم اللغـة العربية لأنهم مسئولون جميعاً عن تصحيح اعوجاج الألسنة وزلل الأقلام وغير ذلك.

وأخيراً: تناولت الأساليب التى يجب أن تتبع فى تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها.

والله أسأل أن يجعل عملى هذا خالصاً لوجهه الكريم.

وبالله التوفيق

د. بدر عبد الرزاق الماحى

أهمية اللغة فى حياة الفرد والجماعة:

يوضح الناس حاجاتهم، ويعبرون عن مشاعرهم ويتصل بعضهم ببعض، للفهم والإفهام وتحقيق الأهداف عن طريق اللغة. فبها يتم الاتصال، وتقوم الحضارات وتزدهر المعارف، وتظهر الابتكارات، ويتميز الإنسان عن الحيوان ويتم التكيف والترابط بين الأفراد والجماعات.

مكانة اللغة العربية:

واللغة العربية من أهم اللغات وأقدمها، ويرى الأستاذ العقاد أن الأبجدية العربية أسبق من الأبجديتين اليونانية والعبرية[1] فالفينيقيون أقاموا بين النهرين على مقربة من خليج العرب قبل انتقالهم إلى شواطئ فلسطين، والحروف المنسوبة إليهم عربية. وأبجديتهم الموجودة اليوم موافقة فى ترتيبها لترتيب الأبجدية العربية، فاليونانية تبدأ بحروف، ألفا - بيتا - جما - داتا - .. الخ.

وبالنسبة للعبرية: فالأسفار تثبت أن إبراهيم وموسى -عليهما السلام- تعلما من ملكى صادق وثيرون امام مدين وهما عربيان.

وتكتسب العربية أهميتها من غزارة مفرداتها، وتنوع أساليبها، وقوة أدائها، وإمكان نمائها وزيادتها.

---

(١) عبقرية اللغة: للأستاذ عباس محمود العقاد نقلاً عن مجلة الفيصل العدد/٢٥ مارس/١٩٨٠.

كما تكتسب أهميتها القصوى من نزول القرآن بها، فبفضل القرآن أصبحت العربية رمز الأمة وثقافتها وعبقريتها وقدرتها على البقاء والتميز، وبفضله أيضاً أصبح للعربية صفة العالمية بغزارة عطائه، وقدرته على استيعاب معطيات الفكر والحضارة، والأفكار السامية فى الحياة والعلوم والمعارف جميعها.

إن العربية صمام الأمان للأمة يمنع تفككها وفرقتها ويبرز وحدتها ورقيها.

تدريس اللغة العربية فى الجامعات ماله وماعليه:

ونحن فى هذا البحث الوجيز نبرز قضية واقعية خطيرة للانتباه إليها، ومحاولة الإسراع فى علاجها، وهى قضية تدريس العربية فى الجامعات ومالها وماعليها، للنهوض بهذا التدريس وللارتقاء به حتى تتربع هذه اللغة على عرش اللغات وتتبوأ مكانتها العالمية بين القلوب والأفكار.

يشكو البعض من أن خريج الجامعة ضعيف باللغة العربية، حيث إنه كثير الأخطاء النحوية واللغوية حيت يتكلم أو يكتسب أو يؤلف وحين يعبر عن موقف أو موضوع، كما أنه لا يحفظ من الشواهد الأدبية الشعرية منها والنثرية إلا القليل ولا يلم كثيراً بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية.

ولم تكن هذه الشكوى من خريجى الجامعات وليدة اليوم، وإنما ظهرت منذ مايزيد عن نصف قرن؛ حيث نجد الدكتور/ طه حسين، فى

كتابه، الأدب الجاهلى، يعلل ضعف الطلاب البين فى لغتهم العربية يقول طه حسين: "إنك تستطيع أن تمتحن تلاميذ المدارس الثانوية والعالية وأن تطلب إليهم أن يصفوا لك فى لغة عربية واضحة مايجدون من شعور وإحساس أو عاطفة أو رأى فلن تظفر منهم بشىء، ولن تظفر من أكثرهم بشىء، فإن وجدت عند بعضهم شيئاً فليس هو مديناً به للمدرسة وإنما هو مدين به للصحف والمجلات والأندية السياسية والأدبية[١]".

وفى الخمسينات يرتفع صوت أمين الخولى شاكياً من هذا الضعف فيقول: "امض قدماً فى مراحل التعليم لمن تهيأ لهم السير فيها فإنك سترى أنّ تعليم اللغة القومية غير موفق[٢]".

ثم يبين سبب ذلك فيقول: حدق فى المدارس والتعليم فيها ترى أن المدرسين للمواد المختلفة لا يحسنون لغتهم وبالتالى فهم لا يحسنون التدريس ولا التعبير بها، إنهم عوام فى شرحهم وتلقينهم، وهم أشباه عوام فى تأليفهم وعرضهم، وهم لا يلقون لتلاميذهم وطلابهم حقائق نيرة بينة[٣].

وتحذر الدكتورة/ عائشة عبد الرحمن من خطر عدم تمكن الخريج الجامعى من الكتابة السليمة، ومن عدم قدرته على التعبير السليم

---

(١) الأدب الجاهلى: ص٢٣ ط دار المعارف مصر.

(٢) محاضرات عن مشكلات حياتنا اللغوية: أمين الخولى.

(٣) المرجع السابق ص٦.

فتقول: "الظاهرة الخطيرة لأزمتنا اللغوية هى أن التلميذ كلما سار خطوة فى تعلم العربية ازداد جهلاً بها، ونفوراً منها، وصدوداً عنها[١]".

ويرى (الجنيدى خليفة) كثرة الأخطاء النحوية فى الأقطار العربية، وقد اكتشف ذلك بنفسه حين كان زائراً لها ومتتبعاً لصحفها وكتبها ومجلاتها[٢].

وظاهرة الضعف فى اللغة لا تقتصر على قطر عربى دون آخر، فهى ظاهرة عامة فى المشرق والمغرب يقول الدكتور (حسام الخطيب): "إن الإنسان ليس فى حاجة إلى إحصاءات كى يستنتج أن سوية تعليم اللغة العربية فى انحدار مستمر، وأن الجامعات ودور المعلمين فى جميع الأقطار العربية تفرز سنوياً أعداداً ضخمة ممن يفترض أنهم مختصون بتعليم العربية ومع ذلك تزداد نسبة الأمية سنة بعد سنة عند هؤلاء[٣]".

الأسباب التى أدت إلى ضعف المتخرج الجامعى:

وإذا كان الأمر قد وصل إلى هذا الحد من ضعف المستوى اللغوى لخريجى الجامعات العربية فما الأسباب التى أدت إلى هذا الضعف؟ لكى نجيب على هذا السؤال يجب أن نعرف أولاً واقع تدريس اللغة العربية فى الجامعات، كى نكشف عن الأسباب التى أدت إلى هذا الضعف.

---

(١) لغتنا والحياة: للدكتورة بنت الشاطئ.

(٢) راجع نحو عربية أفضل: للجنيدى خليفة ص٦٦.

(٣) المؤتمر التاسع لاتحاد المعلمين العرب: الخرطوم ص٥٥٨

إن نظرة سريعة إلى هذا الواقع تبين لنا أن النظام السائد فى تدريس اللغة العربية بالجامعات يرتكز على عدة أمور:

أولها: الإملاء والتلقين، أما التفكير العلمى فبعيد كل البعد عن طرق تدريس هذه اللغة ومناهجها.

ثانيها: الموضوعات المختارة تبدو أحياناً بعيدة عن اهتمام الطالب وحياته اليومية.

ثالثها: بعض الكتب التى تدرس غير مناسبة وأكثرها لا يشجع على البحث والنظر والتفكير.

ونعطى بعض الأمثلة لهذا الواقع من كليات الآداب والتربية التى تخرج مدرس اللغة العربية.

فالعزلة بين المناهج التدريسية والمواد اللغوية وبين الحياة تتجلى فى كليات الآداب كما أشار إلى ذلك الدكتور (طه حسين) وانعكس ذلك على آراء الخريجين، فهم لم يزودوا بالمهارات اللغوية التى تمكنهم من استخدام اللغة فى عملية التفاعل الاجتماعى.

إن المناهج فى الكليات توجه عنايتها الأولى لآداب اللغة وليس للغة نفسها. فترى الكليات تركز على الشعر والنثر والآداب وتغفل المحادثة والتعبير الشفهى ونحن لا ننكر أهمية كل الجوانب اللغوية فى دراسة الطالب الجامعى. ولكن فى الوقت نفسه يجب أن نقر بأن الحديث الشفهى هو أهم عامل فى العملية التعليمية. ومع ذلك تتجاهله الكليات والمعاهد والنتيجة الطبيعية لذلك أن يتخرج معلمون

يحفظون قصاصات من تاريخ اللغة وآدابها، ولكنهم لا يحسنون استخدامها[١].

وينطبق هذا الكلام على إعداد مدرسى اللغة الأجنبية مثلما ينطبق على إعداد مدرسى اللغة الأم. وهناك عزلة من نوع آخر وتتمثل هذه العزلة بين علوم اللغة نفسها. فاللغويون فصلوا النحو عن المعانى ووضعوا بينهما الحدود والأسوار وقد جاء ذلك على جدوى التعليم فى كسب ذوق العربية ومعرفة منطقها. (إنه من المظاهر الغريبة أن نجد إلى جانب الحواجز التى تفصل اللغة عن الأدب مثلاً والدراسة اللغوية عن الدراسة الأدبية، حواجز تفصل بين مصادر البحث الأدبى أيضاً، فمصادر البحث اللغوى هى الكتابات العربية النظرية المعتد بها والتى تصور واقعاً لغوياً معيناً هو واقع اللغة فى عهودها الزاهرة المحدودة، وتعززها النصوص الأدبية القديمة وحدها. أما مصادر البحث الأدبى، فهى نصوص الأدب الإنشائى منذ الجاهلية إلى العصر الحديث، ولكن النصوص الحديثة فى تقدير البعض لا يمكن أن تكون مصادر للبحث اللغوى. ففكرة التطور اللغوى عند هؤلاء زائلة[٢].

هناك كذلك فى مناهج تعليم اللغة العربية فى الجامعات ملاحظة مهمة وهى الاهتمام بالقضايا التاريخية دون التركيز على المبادئ المهمة والاتجاهات الأساسية فى المقرر المدروس.

---

(١) حلقة تعليم الأجنبية فى التعليم العام والفنى فى البلاد العربية: ص٥٤ دمشق.

(٢) اللسانيات واللغة العربية: للدكتور/ محمد الهادى الطرابلسى ص٣١٣.

يضاف إلى ذلك أنه ليس ثمة صلة بين مناهج الأدب والعلوم الإنسانية المختلفة. كما أن هناك اهتماماً بفقه اللغة وهو منحى تاريخى فلسفى وليس هناك اهتمام لعلم اللغة بفروعه المختلفة كعلم نفس اللغة وعلم اللغة الاجتماعى وعلم الأصوات[١].

ونضيف إلى ذلك غياب الخطط العلمية الموضوعية فى تدريس اللغة العربية بفروعها المختلفة وترك ذلك لكل مدرس واختصاصه مما يحدث بلبلة واضطراباً فى نفوس الدارسين فمثلاً بعض المدرسين عند تدريسه لمادة الأدب يستهويه الوقوف عند شعراء معينين كالبحترى وأبى تمام. ولا يتعرض للشعراء الآخرين فيتخرج الطالب دون أن يتعرف على الصورة الكاملة لعصور الأدب أو للعصر المدروس بمختلف فروعه وتياراته واتجاهاته.

وبالنسبة لمادة النحو فيرى المؤلف عبد العليم إبراهيم: أن النحو العربى لا يلقى من الدارسين والمثقفين إقبالاً عليه واحتفاء به، ولا يظفر بما تظفر به ألوان الدراسة العلمية والأدبية من العناية والاهتمام والولاء إلا من طائفة قليلة ممن تضطرهم الدراسات التخصصية فى بعض الكليات إلى أن يعانوا النحو على أنه مادة منوطة بهم، مفروضة عليهم، فيعالجوا دراسته فى مرارة واستكراه، يحملون عليه حملاً كأنهم حيال شر لابد منه[٢].

---

(١) تعليم اللغة: د. محمود أحمد السيد ص١٩٦.

(٢) النحو الوظيفى: لعبد العليم إبراهيم ط دار المعارف.

ويشير الدكتور مهدى المخزومى إلى ذلك حين يقول: لقد تقلص ظل الدرس اللغوى والنحوى فعلاً حتى لم يعد له مكان إلا فى أروقة أقسام اللغة العربية فى مصنفات ليست إلا صورة مهزوزة، أدت إلى وجود خريجين يرددون القواعد بغير وعى ويجترون الأمثلة التى أمليت عليهم [١].

ودارس النحو فى الجامعات العربية يجد آراء مختلفة حول المسألة النحوية الواحدة، ومحاكاة وتأويلات متعددة وهذا عامل من عوامل الإحساس بصعوبة هذا العلم المهم من علوم اللسان. كما أن تدريسه على أنه غاية فى حد ذاته، لا على أنه وسيلة لتقويم اللسان والقلم من الاعوجاج والزلل، بعيداً عن الأهداف المرسومة لهذا الفن [٢].

ومشكلة تعدد الآراء النحوية لا تقتصر على الدارسين فقط وإنما تعدتهم إلى مؤلفى الكتب النحوية، فرأى يناقضه رأى آخر من غير أن يكلف المؤلف نفسه مشقة الاطلاع والبحث وراء هذا النقيض [٣].

وهذا الخلاف فى كثير من قواعد النحو هو أظهر العيوب وأكبر العقبات، وللتغلب على هذه المشكلة يجب الوصول إلى ضوابط محددة سليمة، يسهل استخدامها والاستعانة بها فى التفاهم محاكاة وكتابة.

---

(١) نحو لغة عربية سليمة: د. مهدى المخزومى ص٨٨، ص٨٩.

(٢) تعليم اللغة: للدكتور/ محمود أحمد السيد ص١٩٩.

(٣) اللغة والنحويين القديم والحديث: لعباس حسن ص٨١ ط دار المعارف القاهرة.

وتفتقد الكليات الجامعية المهارات النحوية التى لا تكتسب إلا بكثرة المران والممارسة، مما يجعل الخريج عندما تصادفه مسائل نحوية أساسية لم يكن قد تمكن منها بسبب عدم التدريب الوافى والانصراف إلى أمور جانبية يحس بالصعوبة والعجز ..

ويرجع بعض الباحثين العجز والضعف فى النحو إلى طريقة التدريس فالدكتورة/ بنت الشاطئ أشارت إلى أن عقدة الأزمة ليست فى اللغة ذاتها، وإنما هى فى "كوننا نتعلم العربية قواعد صنعة واجراءات تلقينية وقوالب صماء، نتجرعها تجرعاً بدلاً من أن نتعلمها لسان أمة ولغة وحياة. وقد تحكمت قواعد الصنعة وقوالبها الخامدة فأجهدت المعلم تلقيناً، والمتعلم حفظاً دون أن تجدى عليه شيئاً ذا بال، فى ذوق اللغة، ولمح أسرارها فى فن القول"[١] ..

ومنهج تدريس اللغة العربية فى الجامعات يتسم بالطابع التقليدى من حيث إلقاء الدروس على الدراسين إلقاء وهم سلبيون، ومن حيث الشرح من غير إعداد مسبق، ومن حيث قراءة الدرس من الكتاب. وهذه طرائق غير مجدية فى إكساب المهارات اللغوية المناسبة. كما أن الدروس التى تقدم للطالب دون بذل جهد منه فى سبيل اكتشاف الحقائق تؤدى إلى عدم رسوخ الحقائق فى ذهنه، وإلى [illegible] روح الاستنتاج ودقة الفهم وقلة التذوق ..

---

(١) لغتنا والحياة: د/ بنت الشاطئ ص١٩٦.

وأساليب التقويم الأخرى قاصرة، فهي لا تقيس إلا الحفظ والتذكر أما المستويات الأخرى فليس لها شأن بها ..

كما أن قلة استخدام الفصحى في التدريس والمحاضرات والمناقشات يدل على العجز والتسيب في تدريس هذه اللغة الأساسية واستخداماتها: وتبرز مأساة اللغة العربية بوضوح إذا مارأينا أن العلوم التي تقوم عليها الحضارة الحديثة كالهندسة والطب والصيدلة والطبيعة والرياضيات كلها تدرس باللغة الإنجليزية في جامعاتنا، لا لأن اللغة العربية عاجزة عن تمثيل حقائقها ومصطلحاتها تمثيلاً ما، بل لأن هيئات التدريس في هذه المجالات هي العاجزة عن استعمال اللغة العربية أداة لنقل المعارف الحديثة ومتابعة ماينشر في الخارج بفكر ولسان عربيين.

وفي منحى آخر في تدريس اللغة العربية في الجامعات نلاحظ الاضطراب والاختلاف في بعض المصطلحات، مما يحدث بلبلة وتشويشاً في أذهان الدارسين، وأكثر مايتجلى ذلك في ميادين البحوث والعلوم التطبيقية حيث تتعدد المصطلحات والتسميات للمفهوم الواحد بين بلد عربي وآخر ..

وبعد هذا الاستعراض السريع لواقع تدريس اللغة العربية بالجامعات يتبين لنا أن الأسباب التي أدت إلى ضعف المستوى اللغوي لخريجي الجامعات تنحصر في عدة أمور من أهمها مايلي:

١- المناهج التي تدرس للطلبة.

٢- طرق التدريس.

٣- الكتب المؤلفة فى هذه اللغة.

٤- العزلة القائمة بين علوم اللغة المختلفة.

٥- الاهتمام بالقضايا التاريخية دون التركيز على المبادئ المهمة والاتجاهات الأساسية.

٦- الفصل بين علوم اللغة والعلوم الإنسانية الأخرى.

٧- غياب الخطط الموضوعية العلمية.

٨- قصور أعضاء هيئة تدريس العلوم التى تقوم عليها الحضارة الحديثة كالهندسة والطب والصيدلة والطبيعة وغيرها.

علاج المعوقات والارتقاء بالتدريس:

ولعلاج المعوقات السابق ذكرها والتى أدت إلى إضعاف الخريج الجامعى فى اللغة العربية نقدم الخطوات التالية من أجل الارتقاء بلغتنا العربية الجميلة:

أولاً: المناهج:

نرى فى المناهج التقليدية عناية مركزة حول المادة الدراسية على أنها وسيلة وغاية فى الأعم والأغلب، لكن التربية الحديثة ترى أن المنهج نظام يتكون من مجموعة من المكونات التى ترتبط فيما بينها ارتباطاً وثيقاً يؤثر كل منها فى غيره ويتأثر به. وهذه المكونات هى: المقررات الدراسية، والكتب، والمراجع، والوسائل التعليمية، والمناشط والامتحانات والطرق والمبانى والمعدات وهذه كلها تعمل متكاملة

فيصبح المنهج هو حصيلة تفاعل عضوى مستمر لمجموعة متشابكة من العوامل تشمل المجتمع بثقافته وفلسفته ومشكلاته، والمتعلم من حيث النظر إلى طبيعة وفهم خصائص نموه وأساليب تعلمه، والعصر الذى يحيا فيه ويتفاعل معه.

ولعمل منهج قويم ينبغى النظر إلى كل هذه المكونات، وينبغى معرفة العلاقات بينها، وإقامة جسر متواصل بين هذه المكونات.

ثم القيام بخطوات سليمة تبدأ بتحديد أساسيات المادة تحديداً علمياً ثم يختار من هذه الأساسيات أكثرها فائدة للمتعلم من حيث مساعدته على الإسهام فى حل مشكلات مجتمعه، ومواجهة مشكلات حياته، وإشباع حاجاته وتنمية ميوله، ثم تهيئة الظروف للمتعلم ووضع الإمكانات المناسبة له لتحقيق الأهداف التى وضعت هذه المناهج من أجلها .. ومن أجل هذا اتجه تعليم اللغة نحو النفع الاجتماعى، حيث أنه لا فائدة من علم مالا يكون له مردود اجتماعى وفائدة للمتعلم فى تفاعله مع المجتمع.

وفى المناهج الحديثة يجرى مسح لمواقف النشاط اللغوى فى الحياة بغية معرفة أى هذه المواقف أكثر تواتراً واستعمالاً فى مواقف الحياة.

والهدف من ذلك بناء المناهج اللغوية على مواقف حية، حتى يحس المتعلم أن المادة التى يتفاعل معها تستثير دوافعه، وترضى اهتماماته وتلبى حاجاته، وتؤمن متطلباته، فيقبل عليها بشوق ورغبة. والتركيز على الأساسيات التى تساعد المتعلم على التفاعل فى المجتمع يسهل

للطالب دراسة المادة، ويسهل عليه تذكرها، ويجعله مرتبطاً بعصره، يعرف مايأتى من جديد من علم ومعرفة، ويساعد على إدراك العلاقات بين الحقائق والمفاهيم والمجالات بصورة أفضل، مما يساعده على حسن الانتفاع بها، وتتحقق بذلك خطوة مهمة فى سبيل تكامل المعرفة ووحدتها ..

ومن أجل تحقيق تلك المناهج الحديثة رأى الدارسون المتخصصون وجوب إعادة النظر فى فروع اللغة المختلفة، فيجب إعادة النظر - مثلاً- فى المادة النحوية التى تدرس لتخليصها مما علق بها من الدخيل أو لازمها من مصطلحات ومقولات لا تتصل بها من قريب أو بعيد، وذلك لقطع الأسباب التى أدت إلى نفور الطلاب عنها، ولتنقيتها من الشوائب. ومن الجدير بالذكر أن يلاحظ ألا تكون هذه العملية على حساب التراث الذى خلفه هذا العلم خلال مسيرته الطويلة، وأثبت قدرته على صيانة اللغة وحفظها من الضياع. وقدرتها على الأداء، واستيعابها لكل ماتحتاج إليه من مواصفات[١]. إن صعوبة النحو لم تكن من القواعد نفسها، بل من كثرة الآراء والتأويلات والتفاصيل التى كان النحاة يتناقشون فيها عند الحديث عن قاعدة نحوية تحمل آراء مختلفة، وأوجه إعراب متباينة، وقضايا لم يكن للمتعلمين قدرة على استيعابها وفهمها.

فمثلاً كان النحاة يتعسفون التأويل عندما يجدون فى القرآن آية تخالف القواعد التى وضعوها أو يجدون حديثاً مخالفاً لقواعدهم.

---

(١) نحو لغة عربية سليمة: د/ نورى حمود القيس ص١٠٠.

لذا وجب إعادة النظر فى مقررات النحو ومفردات الدرس ومنهجه وكتبه الموضوعة بين أيدى الطلاب، وأن يجتمع كل المتخصصين فى هذه المادة المهمة والأساسية فى اللغة العربية كى يقوموا بدراسة المناهج القائمة ومفرداتها، وأن تقوم ندوات مستمرة تبحث الوسائل التى تعيد لدرس النحو حيويته، وتقضى على الأشياء والآراء الميتة فى هذه المادة وتبتعد عن التطويل والتعقيد واللغو[١].

تحديث المناهج:

يجب تحديد مفهوم التحديث فإن ذلك يساعد على الانطلاق من فكر واضح ومنهج معروف، ونرى أن المقصود من التحديث أن تكون اللغة حية نامية تلبى حاجة المجتمع وتبسط نفوذها على النشاط الإنسانى فى العلم والدين والفن. ونحن فى حاجة إلى هذا التحديث أو التطوير للوسائل التى يتعلم بها الطالب علوم اللغة المختلفة، وتحديث المناهج اللغوية لابد وأن ينطلق من مبدأ أن اللغة هى مركز لكل الدراسات الإنسانية، ولابد وأن تحظى بالاهتمام من جميع العلماء والمتخصصين فى الفروع المختلفة كعلماء الصوتيات وعلماء الطبيعة وعلماء الهندسة وعلماء النفس وغيرهم. ومن هنا كان على علماء المناهج أن ينفتحوا على هذه الميادين وأن يستفيدوا من معطياتها فى تحليل الظاهرة اللغوية الأدبية وفى اكتساب اللغة وتعلمها.

---

(١) مشكلات تعلم اللغة العربية: د/ عباس محجوب بتصرف ص٦٨.

لكن مازالت النظرة القديمة للأدب -مثلاً- هى السائدة فى المناهج اليوم من حيث أن الأدب يشتمل على دواوين الشعر وكتب النثر الفنى، أما المناهج الحديثة فترى أن الأدب ليس وقفاً على هذا ولا ذاك، بل يمكن أن يكون فى كتب الفلسفة والطب والتربية والتاريخ .. الخ ويمكن أن يكون فى تراث "ابن سينا" و"الفارابى" و"ابن خلدون" و"ابن بطوطة". إنه فى ميادين الفكر فى الدراسات الإنسانية والعلمية كلها .. إذ إن العلوم الإنسانية فى تفاعل مستمر فيما بينها، ويؤثر كل منها ويتأثر بالآخر، فمن البدهى أن نطلع الطالب على أنماط المظاهر الإنسانية كلها فى ميدان الأدب، وألا نحصر إطلاعه على عدد محدود من القصائد الشعرية وبعض النثر من مقالات وخطب بل لابد من تقديم ألوان الإنتاج الفكرى الإنسانى فى دروس الأدب انطلاقاً من النظرة الواسعة لهذا الفن ..

ومن أجل هذا ترى المناهج الحديثة أن الطالب الذى يدرس اللغة عليه أن يسلم بفروع العلوم المختلفة، وأن يؤدى امتحاناً فيها ليتحقق أولوا الأمر من أن الطالب المتخصص فى اللغة أتقن قدراً لا بأس به من العلوم الإنسانية المختلفة كعلوم الكيمياء والهندسة والنبات والاجتماع وغيره. إلى آخر تلك الدراسات التى تبحث فى الكون وقواميسه والمادة وصفاتها والحياة وميزاتها والإنسان ومذاهبه. وكل هذا يساعد الطالب على فهم الكون وإيجاد الحلول للمشكلات فى منهج متكامل مبنى على كلية المعرفة وتكامل فروعها[١].

---

(١) التعليم العالى وإعداد هيئة التدريس: د/ عزت عبد الموجود ص٦٥.

وهذا المنهج المتكامل كان موجوداً عند الأوائل من أمثـال الجـاحظ وابن سينا وأبى حيان وغيرهم، حيث إنهـم انطلقـوا مـن أن الأدب هـو الأخذ من كل علم وفن وهذا بخلاف مـانحن عليـه اليـوم إذ نلاحـظ أن الخريج قد تعلم الأدب العربى على أنه موضوع للرواية والأخبار واللغـة والغريب والمعانى والبديع يلم بهـذه المعـارف ويكتسـب ذلاقـة اللسـان وقوة المحاجة، و لم يدر بخلده يومـاً أنـه تنفـس لحيـاة إنسـانية أو تصويـر لأحلام البشرية وأمانيها ..

وبالنسبة للنحو ينبغى التحديـث الـذى يبنـى ولا يهـدم ويزيـد ولا ينقص، ويقدر جهد السابقين ولا يهملهم، لأن الأقدمين من النحـاة قـد عالجوا موضوعات فـى ظـل أوضـاع لا نعيشـها، ومفهومـات فرضتهـا ظروف عصرهم وجو ثقافتهم. ونحن بحاجة إلى تحديث، يعدل ويحاجج ويثبت الإيجابيـات والسـلبيات وينقـح المبـاحث الكثـيرة التـى أقحمهـا العلماء فى دراسة النحو قاصدين بها إثبات وجودهـم وإبـراز مواهبهـم والارتقاء بمكانتهم ..

وللارتقاء بالنحو ينبغى أن تكون العربية لغة عالمية بعلومها وآدابها وتعبيرها عـن الحضـارة ومعطياتهـا وتأثيرهـا وتأثرهـا وأخذهـا والأخـذ منهـا. وينبغـى أن يرتبـط النحـو بالحيـاة اليوميـة، وأن تـدرس القواعـد المرتبطة بالتعليل النحوى .. وأن تكون الفصحى لغة التعليـم ليـس لمـادة اللغة العربية فحسب بل للمواد كلها، وأن يلتزم الطـالب والمـدرس مـن المرحلة الابتدائية إلى الجامعة باستخدام الفصحـى وهـو الـتزام أخلاقـى دينى قومى تراثى بالإضافة إلى أهميته فى تطوير اللغة بفروعها المختلفة،

ومن طرق تحديث منهج النحو .. إعداد المدرس إعداداً خاصاً بحيث يتقن هذا الفن ويحبه حتى لا ينتقل عجز المدرس وكرهه للمادة إلى طلابه.

وعلى المدرس أن يلم بفروع النحو ومسائله كلها وأن يتذوق هذه المسائل ويتعمق فيها .. ومن الوسائل الناجحة فى تطوير المناهج استخدام وسائل الإعلام المختلفة العربية الفصحى حتى تنتشر ويسهل تذوقها واستخدامها، إن على القائمين بتحديث مناهج النحو أن يبذلوا جهدهم فى سبيل تيسير طرقه وتعلمه، وحذف مواضع التناقض والاختلاف الكثيرة وتصنيفه بما يلائم روح العصر ومتطلبات الحياة، وتذليل الصعوبات دون تقليل من القواعد، ولا يجب الحذف ولا يجوز دون دليل، ولابد من التوسع فى باب القياس للاستعانة به فى تطوير اللغة. وكما قال الكسائى:

"إنما النحو قياس يتبع وبه فى كل أمر ينتفع"

ولابد فى منهج تطوير النحو من تصنيف كلمات اللغة التى لا تظهر حركات الإعراب على أواخر كلماتها بحيث يتفق على وضع قاعدة موحدة لها يكون إعرابها عليه.

ومن هذا المقام نود أن نشير إلى وجوب الاستغناء عن القواعد المتعلقة بالأساليب النحوية التى لا تستعمل كثيراً أو كانت خاصة بكلام العرب مثل بعض أسماء الأصوات والأفعال، والاقتصار على مصطلح واحد للقاعدة دون تعدد المصطلحات للشيء الواحد مثل البدل

وعطف البيان وعطف النسق. فإذا كان عطف البيان هو البدل فلماذا التعدد فى المصطلح، وكذلك أنواع النعت المقطوع والسببى، والاستثناء المتصل والمنقطع، وغيرها من المصطلحات التى يمكن ترك دراستها للمتخصصين تخصصات دقيقة.

وفى تحديث مناهج البلاغة نرى أن الغالب على دراستها اليوم هو الصناعة الذهنية، وقد أدى ذلك إلى تجريد هذا العلم من واقع الحياة. فنرى فى تدريسها تكراراً وقوالب وتعاريف قديمة، فأمثلة التشبيه بأنواعه المختلفة والمجاز والاستعارة والجمل الإنشائية والخبرية والإيجاز والإطناب والمساواة وأنواع البديع كلها أمثلة قائمة منذ زمن بعيد. ويجب تخليص البلاغة من جمودها وبعدها عن وظيفتها ثم توجيهها الوجهة التى تتفق مع المناهج الحديثة حتى نتمكن من القضاء على العزلة بين البلاغة وغيرها من العلوم المختلفة. ومن هنا لابد من عدم اقتصار البلاغة على دراسة شكل النص ومكوناته، بل لروح النص، وتحليل الجوانب النفسية والوجدانية بالإضافة إلى دراسة الخصائص الفنية ودورها فى النص. أى أن المطلوب هو اضفاء صفة الترابط والتكامل بين موضوعات البلاغة كلها وبينها وبين الفروع الأخرى ..

ويجب تدريس البلاغة من خلال النص الأدبى على أساس دراسة النص من جميع نواحيه الأسلوبية والجمالية والمعنوية والنقدية.

ويجب توجيه الدارس إلى الناحية الفطرية فى التعليم البلاغى، فنلمح صورها وألوانها فى الأحاديث العامة والخاصة وفى التراكيب اليومية فليست الاستعمالات البلاغية مقصورة على لغة الأدب، وليست

كذلك نوعاً من المعلومات التى تكتسب بالتوجيه أو التلقين أو الاستنباط ولكنها فنون عن طريق السماع والمحاكاة والاختلاط بالمجتمع والارتباط به والتفاهم معه[1].

ثانياً: تغيير طرق التدريس:

يدخل فى إطار هذا تحديث المناهج ووجوب تغيير طرق التدريس المتبعة فى أغلب الجامعات العربية والتى تعتمد على الطريقة التلقينية والإلقائية، والعمل على جعل الطالب منفعلاً بالدرس إيجابياً فعالاً فيه باحثاً مقلباً فى الكتب والمراجع.

وحينئذ يجب إغناء المكتبات بالمراجع والكتب القديمة منها والحديثة حتى يندفع الطالب إلى البحث والتنقيب والتلخيص ويكون قادراً على الحكم والنقد والتفاعل وذلك تحت إشراف ومتابعة المعلم. ليكتشف المهارات والميول والاتجاهات المختلفة عند الطلبة وأسلوب تفكيرهم لتبنى شخصياتهم على أسس سلمية ..

ويجب أن تكون هناك علاقة وطيدة بين المعلم والطالب أساسها الاحترام المتبادل .. ومن هنا يؤكد التربويون أهمية الجوانب الإنسانية فى التدريس، ويجب أن يكون تحديث المناهج مستمراً وذلك بإقامة دورات منتظمة لمدرسى اللغة أثناء عملهم حتى يبتعدوا عن النمطية والركود فى طرق التدريس.

---

(١) الموجه الفنى: عبد العليم إبراهيم ص٣٠٩.

وفى برنامج تحديث المناهج ينبغى أن يرتبط التعليم بحاجات المتعلم ومطالب المجتمع، وأن يعتمد على إيجابية الفرد ومراعاة فرديته وصولاً به إلى أقصى ماتؤهله له مواهبه واستعداداته ..

والمناهج الحديثة ترى أن يقتصر علم المدرس على تهيئة البيئة والظروف المناسبة أمام الدارسين كى يقوموا بالدور الأساسى فى تعليم ذاتهم، حيث إن عصر الانفجار المعرفى والانتشار الواسع والسريع للمعلومات يفرض تبنى مبدأ التعلم الذاتى والتعلم المستمر. ويتطلب تحديث المناهج الاستعانة بوسائل التعليم المستحدثة كأجهزة العرض والصور والنماذج وآلات التعليم المختلفة والاستعانة بالوسائل المتاحة فى الإذاعة والتلفاز لما لهما من دور كبير فى تهيئة الفرد والمجتمع، ونقصد بتلك الوسائل المواد التعليمية وليس الأجهزة، فليست العبرة فى توفير الأجهزة وإنما المهم هو وجود المادة العلمية أولاً بحيث تؤدى هذه المادة إلى اكتساب الطالب الخبرة الكافية ..

والمعلم بحاجة إلى المواد التعليمية وإلى الأجهزة التى تساعد الطالب على الاستيعاب والإنتاج والتفكير. فإذا استطاع الطالب أن يحصل على المادة العلمية وأن يستخدم الأجهزة بدأ يفهم ويتمثل ويتأكد ويشبع، فاستخدام الحواس كلها من سمع وبصر وفؤاد أجدى من استخدام حاسة واحدة ﴿... إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً﴾[1].

---

(١) سورة الإسراء الآية رقم (٣٦).

تطوير أساليب التقويم:

يتطلب تحديث المناهج أيضاً تطوير أساليب التقويم، الذى اعتمد قديماً على الامتحانات وحدها، وعلى تناول الجزئيات دون الكليات.

لم يعد التقويم الحديث مرادفاً للامتحانات، وإنما أصبح التقويم يتناول الكليات ويهدف إلى تحديد مدى مابلغناه من نجاح فى الأهداف التى نسعى إلى تحقيقها، بحيث يكون عوناً لنا على تحديد المشاكل وتشخيص الأوضاع ومعرفة العقاب والمعوقات، بقصد تحسين العملية التعليمية ورفع مستواها ومساعدتها على تحقيق أهدافها.

ومن هنا كان الاقتصار على الامتحانات الكتابية وحدها فى الحكم على الطالب أمراً قاصراً، لأن الأسئلة التى جاءت بهذه الامتحانات أسئلة جزئية محدودة غير شاملة، وربما لا تتوافر فيها الشروط المطلوبة التى تقيس قدرات الطالب المتنوعة وليس الحفظ والاستظهار فقط وأن مستويات المعرفة لا تقتصر على مستوى الحفظ والتذكر والاسترجاع، إذ إن هذا لا يشكل إلا المستوى الأول من مستويات المعرفة، فى حين أن المستويات الأعلى تتجلى فى الفهم والتحليل والتركيب والحكم والتطبيق.

لذا لابد فى التقويم من مراعاة هذه المستويات كلها، وألا تقف عند مستوى النقل والحفظ وحده ومن ذلك نرى أهمية الاختبارات الشفوية فى اللغة إضافة إلى الكتابة الموضوعية. وذلك بمقر الدارسين على تهيئة أنفسهم لمواجهة مواقف التقويم ومستوياته المتعددة وهذا

يساعد على النهوض باللغة العربية والارتقاء بها، وينبغى ملاحظة أن التقويم هو من الحوافز الأساسية فى المجال التعليمى، كما أنه وسيلة للتشخيص والعلاج والوقاية فى المنهج مادة وطريقة ونشاطاً وخطة. ذلك المنهج الذى يتسم بالشمول والاستمرار والتميز وتغير الأساليب.

ومن هنا لابد لنا من الإشارة إلى وجوب القيام بأبحاث مستقلة لكل ركن من أركان المنهج والاستمرار فى ذلك، والأخذ بالنظرة المتكاملة فى عملية التقويم ..

المختبر اللغوى:

أشرنا إلى أن التقويم وسيلة للتشخيص والعلاج والوقاية، ومن هنا كان من الضرورى وجود تدريبات لغوية متعددة فى ضوء ماكشفت عنه أساليب التقويم من صعوبات وأخطاء وعقبات، ليتمكن الطالب من التعرف على الأخطاء والعمل على تذليل الصعوابت التى تواجهه.

ويلعب المختبر اللغوى فى هذا المجال دوراً مهماً فى مساعدة الدارسين على حسن الأداء وتطور التعليم واكساب الطالب مهارات التعلم الذاتى، وذلك لأنه يتيح للمدرس فرصة تقويم الأداء الشفهى لكل متعلم حين يستمع إليه، ويتيح للطالب تصحيح أخطائه وتقويم أدائه بمقارنة إجاباته بالإجابات الصحيحة المسجلة، ولا يستمع فى أثناء درس المتخبر إلا للأنماط اللغوية الصحيحة، والأخطاء الوحيدة التى يستمع إليها هى الأخطاء الصادرة عنه فقط أما أخطاء غيره من بقية الطلبة فلا يستمع إليها، فينطلق فى المران على اللغة من غير حرج أو

خوف من سخرية زملائه بسبب أخطائه. ومن مميزات المختبر اللغوى كذلك أنه يبث برامج متنوعة فى وقت واحد تلائم مستويات الطلاب المختلفة ..

ومن الملاحظ أن المختبرات اللغوية فى الجامعات العربية يقتصر استخدامها على تدريس اللغات الأجنبية فقط أما حظ اللغة العربية منها فقليل إن لم يكن معدوماً، مع أن هذه المختبرات ضرورية فى تدريس اللغة العربية ودروس تجويد القرآن الكريم حتى لا يختلط الحابل بالنابل فى مجال الصوتيات ولكى لا توجد أخطاء يقع الدارسون فيها بعد تخرجهم. ويمكن أن تكون أجهزة التسجيل بديلاً إذا لم تتوفر المختبرات. فهى سهلة ومناسبة وشائعة فى تسجيل المحاضرات والمناقشات التى يسهل الرجوع إليها للغائب والحاضر على حد سواء.

ثالثاً: إعداد المدرسين جميعاً إعداداً جيداً لتعليم العربية:

لم يعد تعليم اللغة العربية فى المؤسسات التعليمية مسئولية مدرسى العربية وحدهم وإنما مسئولية جميع المدرسين فى التخصصات المختلفة، فهم مسئولون جميعاً عن تصحيح اعوجاج الألسنة، وزلل الأقلام، وتعويد الطلاب على الوضوح والدقة، فى التعبير وحسن تخير الكلمات المعبرة، والدالة على الفكرة المراد توضيحها .. ومن هذه النقطة المهمة نرى وجوب الاهتمام باللغة وفروعها المختلفة من البداية للنهاية لكل المتخصصين حتى يتخرج الكيميائى والرياضى والجغرافى وغيرهم وهم على درجة مناسبة من المعارف اللغوية المختلفة ليتمكنوا من التعبير الصحيح دون لبس أو غموض.

لأنه من الواضح أن المرء لكى يعبر بوضوح لابد أن تكـون الفكـرة واضحة فى ذهنـه، ووضـوح الفكـرة تـؤدى إلى وضـوح التعبـير عنهـا، ووضوح التعبير عنها يؤدى إلى فهم الآخرين لها.

فلابد لمدرسى المواد المختلفة إذاً أن يتقنوا أساسيات اللغـة العربيـة حتى يتمكنوا من توصيل المعلومات للطلاب بسهولة ويسر.

ومن أجل ذلك نـرى وجـوب الاهتمـام بـأمور عـدة فـى مرحلتـى الجامعة ومابعدها حتى يتحقق ذلك.

ففى المرحلة الجامعية يجب اتباع الآتى:

أولاً: أن تكون المواد التى يتفاعل معها هـؤلاء فـى الجامعـة مـن صميـم اختصاصاتهم حتى تلبى اللغة حاجاتهم وتشبع ميولهم.

ثانياً: يجب أن تكون هناك تدريبـات لغويـة فـى خـلال تلـك النصـوص بطرق غير مباشرة.

ثالثاً: يجب أن يكون التعامل مع هؤلاء الدارسـين متسـماً بالمرونـة وفـق المستويات والتخصصات المختلفة.

رابعاً: كما أن لطريقة التدريس دوراً مهماً فى جذبهم لتلك المادة.

خامساً: يجب أن يكـون هنـا ابتعــاد عــن التــأويلات والمماحكــات والشذوذات والتأويلات التعسفية.

سادساً: يجب أن يكون هناك ابتعاد عن تقديم مفاجآت يصعب فهمها لمثل هؤلاء الدارسين وكما جاء فى الأثر: أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم.

سابعاً: تعليم الدارسين من غير المتخصصين فى اللغة العربية يحتاج أيضاً إلى مخاطبة من نوع خاص توائم استعداداتهم، وتتناسب مع خبراتهم. للأخذ بأيديهم، والعمل على اكسابهم المهارات اللغوية عن طريق الوسائل التربوية الفعالة التى تعلم الطالب كيف ينطق، ويعبر ويربط اللغة بالحياة، ويدرس القواعد من خلال النصوص الأدبية فى الشعر والنثر من خلال الفروع الأخرى، وأن يلتزم بالمنهج التدريجى فى أبواب القواعد بدءاً بالأمور المحسة قبل المجردة، والسهلة قبل الصعبة. فلا يجوز مثلاً أن نبدأ بتدريس الأدب الجاهلى للطالب غير المتخصص فى اللغة العربية ولا للطالب الأجنبى جنباً إلى جنب مع طالب قسم اللغة العربية. لأن الاتجاه التربوى السليم يستلزم فرز الدارسين بحسب مستوياتهم، وتقديم المادة اللغوية لكل مستوى.

أما أن يفاجأ المتعلم بصعوبة المادة التى يدرسها فإن ذلك ينفره منها ويبعده عنها، وإذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع.

أما فى مرحلة مابعد الجامعة وهى المرحلة التى أصبح الدارس فيها بعد تخرجه من الجامعة مدرساً لمواد مختلفة غير اللغة العربية فينبغى للمحافظة على اتقانه للغته العربية عقد دورات تدريبية مستمرة له لتبصيره وتذكيره بالصعوبات التى يقع فيها الطلاب، وكيفية تذليل تلك

الصعوبات، والوقوف على آخر الحقائق التى تم التوصل إليها فى مجالات فروع اللغة المختلفة. ثم عليه أن يقوم بعد ذلك بدوره المنوط به ألا وهو استخدام الفصحى فى التحدث والكتابة بها فى الفصول الدراسية مهما كان المقرر الذى يقوم بتدريسه، وذلك لتهيئة الظروف أمام المتعلم كى ينشط ويعمل ويفكر ويكون مهارات بصورة صحيحة فعالة، فالتزام الفصحى فى أجواء المحاضرات، وفى تحدث الأساتذة والطلاب، وفى ممارسة النشاطات المختلفة، يساعد على النهوض والارتقاء بها.

وأخيرا نود أن نشير هنا إلى ماأوصى به المجلس القومى لمدرسى اللغة الإنجليزية فى بريطانيا، فقد أوصى: بوجوب إعداد كل مدرس وتهيئته لتدريس اللغة الأم، حتى ولو كان مدرساً للتاريخ أو الاجتماع أو الكيمياء أو غير ذلك من فروع المعرفة[(١)].

بعض الأساليب المتبعة فى تعليم العربية لغير الناطقين بها :

لا يخفى علينا جميعاً أهمية تعليم العربية للأجانب لنقل أفكارنا وديننا وآمالنا وآلامنا إليهم، وليتفهم هؤلاء لواقعنا وقضايانا بعيداً عن التشويه والتزييف والتضليل. وفى هذا مايخدم الحضارة الإنسانية ويعزز الروابط الإنسانية .. وفى هذه العجالة أود أن اذكر باختصار بعض أساليب تعليم لغتنا العربية لغير الناطقين بها كتكملة لمبحثنا فى واقع العربية ووسائل تطويرها محلياً وعالمياً. اذكر من هذه الأساليب مايلى:

---

(١) فى قضايا اللغة التربوية: د/ محمود السيد ص١٥.

أولاً: أسلوب الترجمة:

أسلوب الترجمة قديم، ويقوم هذا الأسلوب على ترجمة اللغة العربية إلى اللغة الأجنبية ويهتم بالدرجة الأولى على ذكر القواعد ثم أمثلة عليها وتطبيقات.

وهى طريقة جيدة، وإن كان يؤخذ عليها عدة أمور من أهمها:

أنها تصرف انتباه الطالب إلى الترجمة دون الاهتمام بالمقررات والتراكيب المفصلة، كما أنها تهتم بالمهارات المتصلة بالقراءة والكتابة دون الاهتمام بالاستماع والمحادثة، وتركز على القواعد وتجعلها أساساً وغاية، بالرغم من أن القواعد وسيلة لا غاية، بالإضافة إلى أن هذه الطريقة تحتاج إلى مدرس ذى مستوى عال من الكفاية والخبرة فى اللغتين العربية والأجنبية حتى يتمكن من عقد المقارنات اللغوية الدقيقة.

ثانياً: الأسلوب السمعى والبصرى الشفهى:

برزت فى الدراسات الحديثة أهمية اللغة المنطوقة بعد تطور وسائل الاتصال بين الشعوب مما قرب المسافات وخلق الحاجة إلى تعلم اللغات ليس فقط من أجل القراءة والكتابة والتأليف، وإنما لاستخدامها فى الاتصال المباشر، وقد أدى ذلك إلى ظهور أسلوب جديد فى تعلم اللغات ألا وهو الأسلوب السمعى والبصرى واستخدام الوسائل السمعية والبصرية معاً من مواد مسجلة على أشرطة إلى مواد يستمع إليها الدارس مع الصور المرئية، إضافة إلى توفر صور للأشياء المحسوسة وتوافر أجهزة العرض والبطاقات والشرائح ومختبرات اللغة والحاسوب

.. وفى هذه الطريقة ينبغى عدم الاستعانة بلغة الدارسين الأجنبية، والاعتماد على التدريب باللغة العربية، ويرى العلماء أن هذه الطريقة أصح من طريقة الترجمة، لأن المتعلم يتدرب ويتعلم باللغة العربية ولا يستخدم لغة وسيطة وذلك يجعله يفكر باللغة التى يتعلمها من خلال تراكيبها وأصولها وقواعدها لا من خلال قواعد لغة أخرى وتراكيبها، هذا بالإضافة إلى أن الوقت المحدد للدرس يقضيه الطالب متحدثاً متعلماً بالعربية ولا شىء غيرها، وذلك أجدى وأنفع بكثير من الوقت الذى يقضيه الطالب متحدثاً بالعربية من خلال الترجمة عن لغته الأصلية. بالإضافة إلى أن هذه الطريقة تهتم بمهارتين أساسيتين:

الاستماع والرؤية ثم التعبير الشفهى، على حين أن طريقة الترجمة تغفل هاتين المهارتين وتعنى بمهارتى القراءة والكتابة.

ثالثاً: الأسلوب الجمعى:

وتهتم هذه الطريقة بالجمع بين الإيجابيات الموجودة فى الطرق السابقة بمعنى:

١- الإفادة من الأجهزة الحديثة الصوتية والبصرية.

٢- البعد عن استخدام أسلوب الترجمة.

٣- الاهتمام بالمهارات الأربعة: الاستماع والتعبير الشفوى والقراءة والكتابة.

٤- التدريب على التراكيب المستعملة فى الحياة لترسيخ الأساسيات فى أذهان الطلاب.

وأخيراً على المعلم والتربوى اختيار أفضل الطرق وأحسن الأساليب للقيام بتدريس العربية لغير الناطقين بها، وعدم الاقتصار على طريقة واحدة، ولاشك أن ذلك الاختيار بحاجة إلى معرفة جيدة بأساليب التعليم المختلفة ومصادر هذه الأساليب ونظمها ليختار باتقان مايصلح للغرض الذى يقوم به، والفئة التى يقوم بتعليمها، كما ينبغى على المعلم أن يتقد حماسة ورغبة فى رفض مالا يناسب، سواء من القديم أو الحديث، وأن يلتزم بالنافع المفيد من القديم والحديث على حد سواء، وعلى المعلم عند اختيار طريقته مراعاة الوقت والجهد وعنصر الإمكانات المتاحة، على ألا يقيد المعلم نفسه بطريقة معينة يلتزمها فى كافة دروسه بل عليه أن يكون مرناً فى الاختيار وفق الأحواء والمستويات والإمكانات.

وبذلك يمكننا أن نصل باللغة العربية لتكون فى متناول الجميع أساتذة وطلاباً أفراداً وجماعات.

نتائج البحث:

وبعد

فإنه ينبغى الإشارة لبعض النتائج المتستخلصة من هذا البحث عسى أن تسهم فى القضاء على أسباب ضعف اللغة العربية وأن تعين على تعليمها لغير الناطقين بها.

فأقول وبا لله التوفيق:

أولاً: اللغة العربية من أهم اللغات فى العالم وتكتسب هذه الأهمية من غزارة مفرداتها، وتنوع أساليبها، وقوة أدائها، وإمكان نمائها وزيادتها، كما تكتسب أهميتها القصوى من نزول القرآن الكريم بها.

ثانياً: ورغم هذه الأهمية للغتنا الجميلة إلا أن الاهتمام بها فى مراحل التعليم المختلفة أصبح قليلاً إن لم يكن منعدماً على مستوى البلدان العربية قاطبة مما أدى إلى انحدارها.

ثالثاً: إن النظام السائد فى جامعاتنا العربية قد ساهم بنصيب الأسد فى هذا الانحدار وذلك للأسباب الآتية:

(أ) اعتماد هذا النظام فى التدريس على الإملاء والتلقين مع الابتعاد عن التفكير العلمى السليم.

(ب) عناية المناهج المتبعة فى الكليات بآداب اللغة وليس باللغة نفسها، وبالفصل بين علوم اللغة المختلفة، وبدراسة القضايا

التاريخية دون التركيز على المبادئ المهمة والاتجاهات الأساسية فى المقرر المدرسى، وعدم إقامة صلة بين مناهج الأدب والعلوم الإسانية المختلفة، وعدم وضع خطط علمية موضوعية فى تدريس اللغة العربية بفروعها المختلفة، كما أن هذا المنهج يخضع للطابع التقليدى المتمثل فى إلقاء الدروس على الدارسين إلقاء وهم سلبيون، والابتعاد عن الطرق العلمية الحديثة التى تكسب الطالب المهارات اللغوية المناسبة، وتدفعه لبذل الجهد فى سبيل اكتشاف الحقائق بنفسه، ويهتم هذا المنهج أيضاً بالقضايا التاريخية دون التركيز على المبادئ المهمة والاتجاهات الأساسية.

ولعلاج ماسبق يجب اتباع الآتى:

١- تحديد المادة تحديداً علمياً.

٢- اختيار الأساسيات المفيدة للمتعلم وتهيئة الظروف له.

٣- وضع الإمكانات المناسبة لتحقيق الأهداف المطلوبة.

٤- اتخاذ الخطوات الكفيلة بتكامل المعارف ووحدتها، وإعادة النظر فى فروع اللغة المختلفة للمتخصصين وغيرهم وفق مستوياتهم وتخصصاتهم، ووضع منهج يتناسب مع خبراتهم واحتياجاتهم اللغوية.

٥- التزام المنهج التدريجى بدءاً بالأمور الحسية قبل المجردة والسهلة قبل الصعبة.

٦- تحديث المناهج.

٧- تطوير أساليب التقويم.

٨- وجوب إعداد المدرسين في كل التخصصات إعداداً جيداً لمسئوليتهم جميعاً عن تصحيح اعوجاج الألسنة وزلل الأقلام.

٩- من الأهمية بمكان تعليم اللغة العربية للأجانب حتى يستطيعوا الإطلاع بسهولة ويسر على ديننا وأفكارنا وليتفهم هؤلاء لواقعنا وقضايانا بعيداً عن التشويه والتزييف والتضليل.

١٠- ولتعليم اللغة العربية للأجانب يجب استخدام الأساليب التالية:

(أ) أسلوب الترجمة بواسطة مدرس على مستوى على من الكفاءة والخبرة في اللغتين العربية والأجنبية حتى يتمكن من عقد المقارنات اللغوية الدقيقة.

(ب) الأسلوب السمعي والبصري والوسائل السمعية والبصرية معاً، من مواد مسجلة على أشرطة إلى مواد يستمع إليها الدارس مع الصور المرئية، إضافة إلى توافر صور للأشياء المحسوسة وتوافر أجهزة العرض والبطاقات والشرائح ومختبرات اللغة والحاسوب مع ملاحظة عدم الاستعانة بلغة الدارسين الأجنبية.

(ج) الأسلوب الجمعي ويهتم بالاستفادة من إيجابيات الطرق السابقة كالاستفادة من الأجهزة الحديثة الصوتية والبصرية، والبعد عن استخدام أسلوب الترجمة بسلبياته، والاهتمام

بالمهارات الأربعة الاستماع والتعبير الشفوى والقراءة والكتابة، والتدريب على التراكيب المستعملة فى الحياة لترسيخ الأساسيات فى أذهان الطلاب مع اختيار أفضل الطرق وأحسن الأساليب فى التدريس وعدم الاقتصار على طريقة واحدة.

والله من وراء القصد وهو الهادى إلى سواء السبيل

وبالله التوفيق

د. بدر الماحى

ثبت المراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: الأدب الجاهلى: د/ طه حسين.

ثالثاً: حلقة تعليم الأجنبية فى التعليم العام والفنى فى البلاد العربية: دمشق.

رابعاً: التعليم العالى وإعداد هيئة التدريس: د/ عزت عبد الموجود.

خامساً: طرائق تدريس اللغة العربية وآدابها: د/ محمود أحمد السيد.

سادساً: عبقرية اللغة العربية: لعباس محمود العقاد.

سابعاً: قضايا اللغة التربوية: د/ محمود السيد.

ثامناً: اللسانيات واللغة العربية: د/ محمد الهادى.

تاسعاً: لغتنا والحياة: د/ بنت الشاطئ.

عاشراً: اللغة والنحو بين القديم والحديث: عباس حسن.

حادى عشر: المؤتمر التاسع لاتحاد المعلمين العرب: الخرطوم.

ثانى عشر: محاضرات عن مشكلات حياتنا اللغوية: أمين الخولى.

ثالث عشر: مجلة الفيصل العدد ٢٥ مارس ١٩٨٠.

رابع عشر: مشكلات تعلم اللغة العربية: د/ عباس محجوب.

خامس عشر: الموجه الفنى: عبد العليم إبراهيم.

سادس عشر: نحو عربية أفضل: الجنيدى خليفة.

سابع عشر: نحو لغة عربية سليمة: د/ مهدى المخزومى.

ثامن عشر: نحو لغة عربية سليمة: د/ نورى حمود القيس.

تاسع عشر: النحو الوظيفى: طبعة دار المعارف بمصر - عبد العليم إبراهيم.

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع ١٩٩٦/٦٢٠٤م

